المجمل في تاريخ الأدب العربي

الجزء الأول

تأليف

محمد بهجة الأثري

مطبعة العراق ببغداد ١٣٤٧ هـ
١٩٢٩ م

المجمل في تاريخ الأدب العربي

الجزء الأول

تأليف

محمد بهجة الأثري

مطبعة العراق ببغداد ١٣٤٧ هـ
١٩٢٩ م

فهرس الجزء الاول

من

كتاب المجمل في تاريخ الادب العربي

العصر الجاهلي

الفصل الأول — اللغة

الفصل الثالث — الشعر

نماذج الشعر الجاهلي

الفصل الرابع — الشعراء

العصر الاسلامي

عصر صدر الاسلام والدولة الأموية

الفصل الأول — اللغة

الفصل الثاني — النثر :

الخطباء :

الفصل الخامس — في الخط والعلوم

علوم العرب :

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد، فهذه - أيد الله بك دولة الأدب - مباحث في تاريخ الأدب تلم بنبذ جامعة من أصوله، وعيون منتخلة من فصوله، أنشأتها لطلابه من النشء الظامئ الى اشتفاف أفاويق الأدب، وراعيت في تقسيمها وتبويبها أوسع منهاج من المناهج التي تواطأت الأقطار العربية على اصطناعها في المدارس الثانوية ودور المعلمين والمعلمات: لتكفيهم حاجتهم، وتكون عوناً لهم فيما هم بسبيله. وقد توليت بسط موادها بنقد الرواية، وتثبيت الرؤية، ومن حق التاريخ على من يكتبه أن يجمع الى وفرة المادة صدق الدراية، ونفاذ الفطنة، وسياسة التدبير، ليستطيع أن ينتزع من الأخبار العامة المتخاذلة بتضاربها المرضي المنتجب، وينشئ هيكل الحقيقة نشأً جديداً. وأرجو أني كنت موفقاً فيما قصدت له وعانيت، ومؤيداً فيما نقضت من أقوال يخذل أخراها أولاها، ومسدداً فيما أبرمت من آراء أنتجها الفكر المستقل، ومحصها البحث العميق؛ ورغبتي الى من أوتي علماً لم نؤته أن لا يضن علينا بما عسى أن يبدو له وفوق كل ذي علم عليم؟

١٥ شعبان سنة ١٣٤٦ هـ

محمد بهجة الأثري

مقدمة

في المقاصد الآتية لايسع الطالب المتأدب جهلها :

التاريخ — الادب — اللغة — أدب اللغة — تاريخ أدب اللغة — أصل اللغة — وطن الامة العربية — طبقاتها

التاريخ : معناه التدوين . وقد وضع العرب هذه الكلمة على عهد عمر بن الخطاب لتعيين الزمن . ثم أطلقوها على تدوين أخبار الماضين وأحوالهم من حيث سياستهم ، واجتماعهم ، وحروبهم ، وعلومهم ، وآدابهم ....

والادب : مولد من موضوعات القرن الثاني . أطلقوه على مأثور الكلام : نظمه ونثره مما يصلح العقل واللسان ، ويهذب الفكر والمنطق ، ثم توسعوا فيه فأطلقوه على ما يتصل بذلك من العلوم اللسانية كالنحو وما اليه ، ثم توسعوا فيه أكثر حتى أصبح معنى « الأدب » جامعاً للعلم والأخلاق والفنون والصنائع... فأطلقوه على فنون المنادمة وأصولها ، وعلى النحت والتصوير والموسيقى ، وعلى مجموع علوم العرب ، وأحاديث السمر ، وملح الظرف ، ونحو ذلك ؛ ووصفوا بالأديب في بادئ الأمر كل من كان في طبقة المعلمين لأخذهم المتعلمين بحسن الاخلاق وفضائل الأعمال من طريق الاقوال الحكيمة المأثورة نظماً ونثراً . ثم بعد أن دونت علوم العربية سلب هذا الوصف من هؤلاء وخص به اصحاب النحو ، ثم استأثر به الشعراء والكتاب واعتبروه ميراثاً لاينازعون فيه الى يومنا هذا[1] .

فاذا اطلق هذا الوصف انصرفت الاذهان اليهم ، واذا قيل « الادب » فهم

(١) ولكن القوم قد اسرفوا واسفوا حتى وصفوا به كل من حفظ ابياتاً او سود صحيفة او ضم الكلمة الى الكلمة نافرة ثم سمى صنعه هذا شعراً ، فاختلط الحابل بالنابل ، ولم يعودوا يميزون بين الحق والباطل ، ولكن لكل فوضى نظاماً (واما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

منه مأثور الكلام ومايتصل به من العلوم التي تعين على فهمه وتذوقه ، وتكون في الدارس ملكة البلاغة التي تتصرف بالنفوس بسطاً وقبضا .

واللغة : ألفاظ يعبر بها كل قوم عن أغراضهم . واللغات كثيرة ترجع الى أم أو أمهات تولدت منها ، وللعلماء فى منشئها وتفرعها أقوال تعسر الاحاطة بها . وأمثلها أن اول نطق الانسان للافصاح عن حاجاته كان بدلالة الاشارات ثم استعمل معها الاصوات الدالة على انفعالاته النفسية كالانين والتأفف والقهقهة وأصوات الزجر والخوف ونحوها ، فلما وجد أن ذالك قد قام بافهام مراده مضى فى استعماله عند الحاجة اليه فتكونت من ذلك الالفاظ الضرورية . ومازال الانسان يرتقي فى استعمالها بارتقاء حاجاته حتى كثرت مخارج الاصوات [1] واتسع فى تصريف الالفاظ . أما تفرعها فالمظنون أنه ناشئ من انسياح الجماعات وتفرقها عما يلجئها من الاسباب الطبيعية كالضيق والحاجة وبغي بعضهم على بعض ، فسبب هذا التقاطع نسيان بعض الكلمات لعدم الحاجة اليها فى الوطن الجديد ، او تحريفها على مر الزمان ، ثم وضع اسماء جديدة لمسميات لم يكن لهم بها عهد في الوطن القديم . وهكذا تباعدوا عن اللغة «الاصلية» وتبلبلت الالسن واختلفت اللغات.

وأدب اللغة : هو ما اثر عن بلغاء الامة « شعراء وكتاب وخطباء » من نتاج عقولها وثمار تفكيرها مما يهذب النفس ، و يثقف اللسان ، و يصقل العاطفة ، و يقوى الملاحظة . . . .

وتاريخ ادب اللغة : هو العلم الباحث عن احوال اللغة وسيرها فى عصورها المختلفة ، وعما انتجته عقول أبنائها وقرائح مفكريهم وكان له التأثير البين فيها . ودراسة هذا العلم من الضروري لتربية الملكة اللسانية وتهذيب الفكر . ذلك

(١) انظر تحقيق هذا الرأى فى (الخصائص) لابى الفتح عثمان بن جنى ؛ وفى (التهذيب فى أصول التعريب) لصديقنا العالم المصرى الدكتور احمد عيسى .

لأنه يتعرض لغة الامة في أجمل قوالبها وأبدع اساليبها، ويشرح تاريخ الالفاظ وما يعتورها من تغيير المعنى بالمواضعات والمجاز والكناية ونحوها فيورث ذلك الفصاحة والبيان ويكسب ملكة النقد . . . .

ثم هو يمثل حياة الامة العقلية وميولها القلبية وماعرض لها من عوامل الصعود والهبوط ، فيغذي تفهم ذلك الفكر ويربي الذوق ثم يعدها لادراك الجمال وإنتاج الثمرات الطيبة . وفي هذا من الفوائد الجليلة ، والاثر البالغ في حياة الامة وتوطيد دعائمها للخلود مالايحتاج الى بيان .

اصل اللغة العربية : واللغة العربية هي احدى اللغات السامية التي كان يتفاهم بها ابناء سام بن نوح كالعبرانية والسريانية والحبشية والبابلية والآشورية والفينيقية [1] . وهي اخوات لم يجل البحث بعد أمهن ، والعربية ارقاهن على الاطلاق واخلدهن اثراً .

وطن اللغة العربية : ومهد الناطقين بها منذ خلقهم الله هذه الجزيرة في طرف الجنوب الغربي من «قارة» آسية، ويحدها من الشرق الفرات حتى مصبه في خليج العجم وجهة من بحر الهند، ومن الغرب القلزم (البحر الأحمر)، ومن الشمال بلاد الشام، ومن الجنوب بحر الهند أيضا . أما مساحتها فتبلغ ١٬٠٠٠،٠٠٠ ميل مربع تقريباً .

ومن هذه الجزيرة انساحوا بعد ظهور الاسلام في بقاع الأرض، وشادوا مدنيتهم العظمى شرقاً وغرباً من ضفاف الكنج الهندي الى شواطئ اللوار الفرنسي ، ثم امتزجوا بالشعوب التي دخلت في دين الله بالمصاهرة والتناسل ، فدعيت سلائلهم «العرب [2] المحدثين» .

---

(١) يطلق على هذه اللغات لفظ (سامية) اطلقه شلوزرفى اواخر القرن الثامن عشر م حينما رأى تقارب هذه اللغات بعضها من بعض ورأى الامم التي تكلمها وهم الاراميون والعبرانيون والعرب هم من نسل سام بن نوح كما جاء في الكتاب الاول من كتب موسى في الاصحاح العاشر من سفر التكوين ، نقل ذلك صاحب التهذيب عن :
La Science du langage par Max Muller ; Paris 1876

(٢) العرب من الاعراب وهو البيان ويقابله العجم من العجمة.

طبقات العرب: أما ما قبل الاسلام فيسمون «القدماء» و يقسمون الى ثلاث طبقات [1] :

١ ــ العرب البائدة : وهم الذين بادوا وعميت أخبارهم ، وطمست آثارهم، فلم يقع الينا منها شيء صحيح تطمئن اليه النفس الا ما ذكره القرآن الكريم عرضاً للعظة والعبرة ، وشرحته السنة بضرب من التفصيل والبيان ، ثم ما اكتشف من الآثار النزرة في طرفي الجزيرة ؛ و يقول المؤرخون إنهم كانوا قبائل تسعاً ، وهي : عاد ، وثمود ، وأميم ، وعبيل ، وطسم ، وجديس، وعمليق ، وجرهم الاولى، وو بار .

٢ ــ العرب المعاربة [2] : وهم أبناء يعرب بن قحطان ، نزحوا من الفرات الى اليمن ، وامتزجت لغتهم بلغة قبائل العرب البائدة ، ثم إنتشروا بحادثة «سيل العرم » فى أطراف الجزيرة . و يقولون إن يعرب هذا هو أصل اللغة المبينة ، وعلى ذلك بيتان يضافان الى حسان بن ثابت ، وهما:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب ‏ ‏ ‏ أبينا فصرتم معربين ذوي نفر

وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة ‏ ‏ ‏ كلام وكنتم كالبهائم في القفر

وأشهر قبائل هذه الطبقة : كهلان بن سبأ وحمير بن سبأ وأكثر قبائل اليمن مشتق منهما . وغموض تأريخهم عند قدماء المؤرخين ليس بأقل من غموض تأريخ الطبقة الأولى . وقد عرفنا البحث الحديث بما اكتشف من الآثار فى خرائب اليمن أنه قامت هنالك ثلاث دول كبرى غير الدول الصغرى ، وهى : المعينية والسبئية والحميرية [3] .

---

(١) للمؤرخين فى تقسيم الطبقات العربية مذاهب وقع اختيارنا على التقسيم الذي أوردناه فاعرف ذلك

(٢) اى الراسخة فى العروبة تقول عرب عاربة وعرباء صرحاء خلص

(٣) أقرأ تأريخها فى كتاب العرب قبل الاسلام

٣ــ العرب المستعربة: وهم أولاد اسماعيل عليه السلام جاء به أبوه ابراهيم الخليل الى مكة حوالي القرن التاسع قبل الميلاد، وهو عبراني، فتكلم العربية، وصاهر ملوك جرهم، وتناسل منه جيل عظيم كانوا شعوباً وقبائل لم يعرف التاريخ على التحقيق منهم الا عدنان وكان في القرن السادس قبل الميلاد اذا صح ما يرويه ابن خلدون من أنه لقي بختنصر في غزواته للعربية بذات عرق. واليه ينتهي عمود النسب العربي الثبت. وقد خرج منه «عك» و«معد» فرعا العدنانية العظيمان ثم بقيت من عك بقية الى الاسلام؛ وتناسل من معد عقب عدنان على ما هو مفصل في كتب الانساب: كنهاية الارب،[1] وسبائك الذهب[2]، وشرح منظومة عمود النسب[3].

---

(١) لابي العباس احمد القلقشندي (٧٥٦ ــ ٨٢١) مؤلف كتاب صبح الاعشى المطبوع بمصر في اربعة عشر مجلداً، وغيره اما كتاب النهاية فهو مطبوع ببغداد

(٢) للشيخ محمد امين السويدي البغدادي (١٢٠٠ ــ ١٢٤٤ هـ)، وقد طبع على الحجر ببغداد سنة ١٢٨٠

(٣) لاستاذنا السيد الشريف العلامة محمود شكري الالوسي (١٢٧٣ ــ ١٣٤٢) وهو مخطوط في مجلدين وقد سبق لنا وصفه في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق.

العصر الجاهلي

الفصل الاول

اللغة

وصف اللغة العربية ومزاياها — امتزاجها وتوحدها — مراتب التوحيد والتهذيب: (١) هجرة القحطانيين (٢) هجرة اسماعيل (٣) الاسواق والمجتمعات: سوق عكاظ (٤) محل قريش — اللهجات المختلفة وبقاياها — اللهجات — تواصل نحو اللغة العربية

أجمع العلماء المحققون — الامن مني بداء الشعوبية ومناوأة العرب — على أن هذه اللغة الكريمة من أوسع اللغات مدى، وأغزرها مادة، وأحكمها نظاماً، واخضعها للتعبير عما يختلج في النفس ويجول في الحس، وأوفاها بالحاجة التي استخدمت لأجلها اللغات: تساير مقتضيات الحياة فتنمو وتتجدد، ولا تكاد تقف من ذلك عند حد. ثم لا يعرو بنيتها تغيير يخرجها عن «جنسيتها» أو يجردها من مشخصات «استقلالها». وسعت علوم الأمم وآداب الخليقة، وصرفتها الألسن والأقلام في ميادين الحياة، فلم تستعص عليها بل طاوعتها مطاوعة الظل لصاحبه، ولم تن في الحركة ولا وقفت عند مدى. ذلك لما في أصل تكوينها من مواد الحياة النامية ومرونة أوضاعها في التصريف وتنويع الصور[1].

امتزاج اللغة العربية وتوحدها: وبديهي أن اللغة العربية المروية الينا لم تنشأ دفعة واحدة بهذه الصفة العجيبة من بعد الاتساع، وهندسة الاوضاع، وعذوبة البيان

(١) سنشرح هذا قريباً

وانما هي نتيجة امتزاج القبائل التي توطنت الجزيرة في ادهار متطاولة : سايرت فيها الحياة ، وما زالت تتقلب على وجوه من الاصلاح والتهذيب حتى عادت كالوذيلة المشوفة في اللغة المضرية العلوية التي نزل بها القرآن الكريم فكانت لغة الدين والسياسة والادب والعلم . غير أن تاريخ هذا الامتزاج ، والاسباب التي أدت اليه ، وتحديد الزمن الذي نضجت فيه المضرية وتغلبت على سائر اللغات : كل ذلك شيء غير محقق بالنص بل مازال سراً في ضمير الغيب لم يسم احد الى معرفته .

مراتب التوحيد والتهذيب : وغاية ماعرفناه من سلسلة هذا الامتزاج والتهذيب أربع حلقات مفصومة واليكها :

١ — هجرة القحطانيين من الفرات الى اليمن ومخالطتهم فيها قبائل العرب البائدة ثم تفرقهم في نجد والحجاز وتهامة والشام والحيرة بعد تخرب بلادهم بسيل العرم [1] .

٢ — هجرة اسماعيل عليه السلام الى الحجاز وامتزاجه و بنيه بالقحطانيين بالمصاهرة والمتاجرة ، وكانت لغته العبرانية، فتعلم العربية من القحطانيين وهذبها بما ادخله عليها من لغته ، وجرت على أثره القبائل من ولده كربيعة ومضر وكنانة ونزار وقيس .

(١) ورد ذكر هذا السيل في القرآن الكريم . قال تعالى : لقد كان لسبأ في مسكنهم اية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي اكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي الا الكفور ، وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي واياما امنين فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان في ذلك لايات لكل صبار شكور — سورة سبأ .

وقد اختلف المؤرخون في وقت حدوث ذلك السيل ، وتفصيله يطول فراجع كتاب الاكليل للهمداني ، ومعجم البلدان في مأرب ، وانظر تصوير انقاض السد وخرائب مأرب كما شاهدها الباحثون كـكلازر وغيره ، في تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٥٣ وفي مجلة الزهراء م ٣ ص ٦٣٥ .

٣ — الاسواق والمجتمعات : وكان العرب يقيمون الاسواق في شهور السنة ينتقلون من بعضها الى بعض للمتاجرة والتسوق والمفاخرة والمنافرة والحكومة فكانوا بطبيعة الحال يقتبس بعضهم من بعض ما يروقهم من الالفاظ العذبة حتى عمت نهضة التهذيب جميع العرب . وأظهر هذه الاسواق اثراً في ذلك (سوق عكاظ) [1] ذلك لانها كانت تقام قرب ايام موسم الحج فتحضرها القبائل كلها لانها متوجهم الى الحج الاكبر . وقد كان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته الاعكاظ فانهم يتوافونها من كل جهة للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الاسرى وأداء الحج فتقوم فيها اسواقهم ويتناشد الشعراء و يتبارى الخطباء و يتخاصم الخصوم الى حكام ارتضوهم واتفقوا عليهم ، فاستدعت هذه المواقف ألسنا قوالة تفلج في الحجة ، واستحثت القرائح ، وحملت على التنافس في البيان ؛ فانصرفوا الى تجويد اللغة وتنقيحها وانتقاء الالفاظ ، فكان لذلك الاثر البالغ في تهذيب اللغة و إشاعة المنطق الفصيح . ولشدما يعلق القول الرائع بذهن العربي و يلتصق بقلبه !

« ١ » قال السيد خير الدين الزركلي :

« على مرحلتين من مكة للذاهب الى الطائف في طريق « السيل » ، يميل قاصد عكاظ نحو اليمين فيسير نحو نصف الساعة فاذا هو امام نهرفي باحة واسعة الجوانب يسمونها « القانس » بالكاف المعقودة وهي موضع سوق عكاظ . وهذه الباحة التي يسمونها « القانس » هي مجتمع الطرق الى اليمن والعراق ومكة وهي مرتفعة تشرف على جبال اليمن وبينها وبين الطائف مرحلة واحدة . كل ذلك يدلك على مادعا العرب في الجاهلية لاختيار هذه البقعة المتوسطة من دون غيرها لتكون مجمعهم الاكبر ومعرضهم الاشهر ، ولم أجد فيما بين يدي من مصنفات التاريخ تعليلا لاتفاق القبائل على الاجتماع في هذا المكان غير ماعرفته الان . والواقف في القانس (او عكاظ) يرى على مقربة منه موضعين مرتفعين احدهما يسمى الدمة بكسر ففتح واخر البهيتة بصيغة التصغير ، وعكاظ هو الفاصل بين الدمة والوادي الموصل الى الطريق التي يمر بها سالكو درب السيل « البمانية » ... وسمعت كثيرا من اهل الطائف يقولون ان عكاظا كان في مكان يعرف اليوم باسم « القراوي » في وادي ليه من الطائف . غير أن الشيوع يؤيد ماقلناه انفا من انه هو القانس نفسه وعليه اكثر العارفين من اهل هذه الديار (مارأيت وماسمعت ص ٧٩ و ٨٠)

ولا ننس اشتراك المجتمعات مع الاسواق في هذا الامر فأن أثرها لم يكن أقل من أثر الأسواق، و إن أغفلها أكثر مؤرخي الآداب، وهي كثير عديدها ومتباينة أنواعها. فمنها ما كان خاصاً بالسمر فيجتمعون في الليالي لتنشيط النفس بانشاد الشعر، وذكر ما سلف لهم من الحروب والوقائع، ونحو ذلك ومنها ما كان المذاكرة والمشاورة في تدارك حرب أو إغارة قوم على آخرين. ومنها ما كان لأجل الحكومة وفصل الدعاوي والمنازعات التي كانت تقع بينهم، كما كانوا يجتمعون في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب، وفي أندية قريش حول الكعبة. ومنها ما كان لطلب مثوبة واتعاظ بوعظ. ومنها ما كان لحلف وعقد معاهدة ونحو ذلك ... ولا ريب أن لهذه المجامع وقيام الفصحاء بشؤونها وتدبيرها أثراً كبيراً في تهذيب اللغة ...

ع — عمل قريش، وهم القبائل العربية من ولد النضر بن كنانة. كانوا ينزلون بمكة ولهم مكانة عند العرب لا تعادلها مكانة: لهم زعامة الحج وسدانة الكعبة، ولهم اللواء والحجابة والسقاية والرفادة، وهم مؤسسو دار الندوة ومجامع الوعظ وأرباب الرياسة في عكاظ، وأصحاب رحلة الشتاء الى اليمن و رحلة الصيف الى الشام، والضاربون في الأرض الى الحبشة والى فارس للتجارة. فكانوا لذلك أشد الناس بالناس التحاماً وأكثرهم بهم امتزاجاً، فسمعوا المناطق المختلفة ولطفت طباعهم ورق ذوقهم ومرنوا على الانتقاد، فاختاروا من اللغات أسهلها مخرجاً وأعذبها معنى، وأداروا بها ألسنتهم وجروا على قياسها، فصفت لغتهم من مستبشع اللهجات ومستقبح الألفاظ، فآثرها شعراء القبائل وخطباؤها لحسنها ولمكانة قريش عند العرب حتى نزل بها القرآن الكريم، فكانت قريش في عملها هذا بمنزلة «مجمع لغوي» يحوط اللغة ويغذيها بأطيب مواد الحياة.

بقايا اللهجات المختلفة : هـذا ما عرف من سلسلة تأريخ اندماج لغـات القبائل وتدرجها في طريقة الوحدة اللسانية القومية لذلك العهد . ومع هـذا فقد بقي في كلام كل قبيلة بعض التمايز الطبيعي في اللهجات لم يخرج اللغة عن وحدتها . ومنشأ ذات خواص لسانية لايستطاع تغييرها ، وتنوع وسـائل المعيشة التي يصطنعها أهل كل بيئة ، وتعدد طرق الوضع والارتجال . فوقع لهذا الاختلاف في معاني بعض الكلمات ، و تغاير بعض حروفها ، أو هيآتها من حركة وسكون ، أو صفتها كالامالة والتفخيم : أو قلبهـا ، أو الزيادة فيهـا ، أو النقص منها ؛ وفي حروف وأدوات معدودة تختلف بالاعراب والبناء ، و بالاعمال والاهمال ، ونحو ذلك مما تعاورت أكثره القبائل عند الاختلاط ، وان كان كل نوع منها خاصاً بقوم دون قوم . اللهم الا هنوات المنطق الناشئة من فساد المخارج ، فانها لم تعد أصحابها الى غيرهم بل اختصت بهم كأنها سمات بها يتمايزون ، ولا تزال متحققة في اللهجات العامية المعروفة اليوم في العراق ومصر والشام وسائر الاقطار العربية.

الهنوات : ومما اشتهر من هذه الهنوات قديماً :—

« طمطانية حمير » وهي إبدال « أل » بـ « أم » وقد تكلم بهـا النبي صلى الله تعالى عليه وسلم في جواب سائل سأله « أمن امبرام صيام في ام سفر ؟ » فقال له « ليس من ام برام صيام في أم سفر » .

و « شنشنة اليمن و وتهم » الاولى : جعل الكاف شيناً مطلقا فيقولون في « لبيك » « لبيش » . والثانية : جعل السين تاء كالنات في « الناس » .

و « عجعجة قضاعـة » وهي جعـل اليـاء المشددة جيا فيقولون في « مضري » مثلاً « مضرج » وكذا يجعلون الياء الواقعة بعد العين كالساعج أي الساعي . وكانت قضاعة اذا تكلموا لايبينون الكلام فسموا ذلك

« عجعجة قضاعة » تشبيها بأصوات الثيران عند الرعي .

و « كشكشة ربيعة » وهي إبدال كاف المخاطب شيناً وقفاً ووصلاً وعلى الثاني قول شاعرهم :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش رقيق

و « كسكسة بكر أو تميم » وهي عند قوم منهم زيادة سين على كاف المؤنث عند الوقف ليبينوا حركة الكاف ، وعند آخرين إبدال كاف المخاطبة سيناً عند الوقف ، وفيهم من يبدلها في الوصل ايضاً اجراءً له مجرى الوقف .

و « تلتلة بهراء » وهي كسر أحرف المضارعة ، و بهراء بطن من تميم .

و « عنعنة تميم » وهي إبدال الهمزة المبدوء بها عيناً نحو « عبدالك » في إبدال .

و « قطعة طيء » وهي قطع اللفظ قبل تمامه مثل « ياأبا الحكا » في « ياأبا الحكم » وهذا غير الترخيم المعروف في النحو .

و « فحفحة هذيل » وهي جعل الحاء عيناً .

و « وكم كلب ووهم » والاول : كسر كاف الخطاب في الجمع اذا كان قبلها ياء أو كسرة نحو « عليكم و بكم » والثاني كسر هاء الغيبة متى وليها ميم الجمع مطلقاً أي وإن لم يكن قبلها ياء أو كسرة نحو منهم وعنهم . والفصيح أنها لا تكسر إلا إذا كان قبلها ياء أو كسرة نحو عليهم و بهم .

و « لخلخانية الشحر وعمان » وهي اللكنة من قولهم لخ في كلامه اذا جاء ملبساً ، فيحذفون بعض الحروف اللينة ويقولون في مثل ما شاء الله « مشا الله » .

و « استنطاء سعد بن بكر وهذيل والأزد وقيس والانصار » وهو جعل العين الساكنة نوناً اذا جاورت الطاء فيقولون في أعطى « أنطى » وعلى لغتهم قرئ شذوذاً « إنا أنطيناك الكوثر » . واستعمله النبي (ص) في بعض رسائله (1) .

(1) وردت في صبح الاعشى ج ١٣ ص ١٢٠

عوامل نمو اللغة العربية : هذا ما كان من هنوات المنطق الخاصة بناس بأعيانهم . ومن التمايز العام الذي أشرنا اليه في (بقايا اللهجات ص ١٠) مما لم يستطع أن يقف ما نماً في طريق الوحدة اللسانية الذي كانت اللغة جادة فيه بما فيها من قوة جبارة مستمدة من مواد نامية لا تفتأ تغذي عروقها ، وتبعث فيها قوة بعد قوة تحفظ عليها شباب الدهر .

ومعرفة هذه المواد من أهم ما يجب أن تصرف العناية اليه ، ولكننا سنوجز لك في القول ، ونقتصر على بعضها وقوفاً عند شرط هذا الدرس :

(الاشتقاق)[1] وهو أخذ صيغة من أخرى مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيأة تركيب ليدل بالثانية على معنى الأصل بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفاً أو هيأة كشارب من شرب ، وحذر من حذر . وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها الى صيغة هي أصل الصيغ دلالة اطراداً وحروفاً غالباً كشرب فانه دال على مطلق الشرب فقط . أما شارب ومشروب ويشرب واشرب فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً ، وشرب الماضي مساوٍ حروفاً وأكثر دلالة ، وكلها مشتركة في (ش ر ب) وفي هيأة تركيبها .

(المجاز) وهو « استعمال اللفظ في غير ما وضع له » توسعاً فيه كاطلاق الأسد على الشجاع ، والبحر على الكريم ، والحمار على البليد . وقد أفاض علماء البيان في تفصيله فليس لنا أن نتبسط فيه ؛ وكأن الوضع بالمجاز اشتقاق معنوي لم يتهيأ للعرب أخذه من طريق الاشتقاق فأخذوه بالنقل من طريق المجاز .

---

(١) لصديقنا العلامة الشيخ عبد القادر المغربي كتاب نفيس في الاشتقاق والتعريب لاغنى للباحث عن دراسته . وقد طبع في مصر سنة ١٩٠٨ م فانظره .

(الابدال)[1] وهو ابدال الحروف واقامة بعضها مقام بعض كمدح ومده وفرس رفل ورفن. وهو نوعان: نوع ناشئ عن اختلاف اللهجات يقول هذا قوم وذاك آخرون ولا فرق بينهما في المعنى. ونوع يتعدد فيه الوضع في القبيلة الواحدة فتؤدي كل صورة معنى لاتؤديه الأخرى ولا يصح استعمالها فيها، وعليه يتوقف نمو اللغة واتساعها: كقولهم: لطمه: ضربه بكفه مفتوحة ولدمه: ضربه بشيء ثقيل يسمع صوته. ولثم أنفه: لكمه، ورثمه: كسره. ونحو ذلك كثير في اللغة العربية.

(النحت)[2] وهو جنس من الاختصار بجعل من الكلمتين كلمة واحدة لتسهيل التلفظ بها كعبقسي في عبدالقيس، وعبشمي في عبد شمس، أو لجمع المعنيين في الكلمة الواحدة كصهصلق للعجوز الصخابة نحتوه من صهل أي صوت وصاق اذا صات شديدا. وضبطر للرجل الشديد من ضبط وضبر، والحبرم: لمرقة حب الرمان، والعجاهنى لضرب من التمر يكون فى ضاجم اسم وادنحتوه من عجم أي نوى وضاجم هذا. وهذا لايكون الا فيما زاد على الثلاثي. وظن بعضهم أنه يقع في الثلاثي أيضاً ومثل له بنحو قولهم: مؤج الماء يمؤج فهو مأج اذا ملح. قال: فانه يصح أن يكون من ماء وأجاج ..

(الترادف)[3] وهو ترادف لفظين فأكثر على معنى واحد كالسيف والعضب والصارم والحسام. ويرى جماعة من المحققين أن الاسم واحد وهو السيف وما بعده انما هو صفات كل صفة تؤدي معنى لاتؤديه الأخرى[4]

---

(١) ألف فيه وفى القلب احمد فارس الشدياق كتابا اسماه (سر الليال فى القلب والابدال) وطبع فى فروق.

(٢) لاستاذنا العلامة الالوسى رسالة فيه.

(٣) من الكتب المطبوعة فى الترادف كتاب نجعة الرائد فى جزءين.

(٤) وهذا هو الاكثر. وهناك نوع لاتكون فيه هذه الخاصة ومنشؤه اختلاف الاوضاع لتعدد القبائل كالمدية فى لغة دوس والسكين فى لغة غيرهم.

وكذلك الأفعال نحو : مضى وذهب وانطلق . وقعد وجلس . ونام وهجع ؛ ولكن بعض هذا غمضت عليهم فروق ما بينه ، و بعضه عرفوه وبينوا وجهه . فقد قالوا : إن في (قعد) معنى ليس في (جلس) الا ترى أنا نقول « قام ثم قعد » و «أخذه المقيم والمقعد » ثم نقول « كان مضطجعاً فجلس » فيكون القعود عن قيام ، والجلوس عن حالة هي دون الجلوس لأن الجلس المرتفع فالجلوس ارتفاع عما هو دونه ، وعلى هذا يجري الباب كله .

(المشترك) وهو اللفظ الواحد الدال على معنيين فأكثر كالأرض لهذا البسيط ، ، ولأسفل قوائم الدابة ، وللنفضة والرعدة ، وللزكام ، وأرض الخشبة وهو أن تأكلها الأرضة ؛ والقسم الأكبر من المشترك كلمات معدودة تعلق بها شعراء الصنعة كالعين والخال والهلال والغرب والعجوز . وهو وجه من وجوه الوضع في اللغة أكثره راجع الى الاشتقاق والمجاز كما يقال : مشى يمشي من المشي ، ومشى اذا كثرت ماشيته . . .

(المعرب) [1] وهو اللفظ العجمي الذي يستعار لما يجد من المسميات والمعاني حينما لا يوجد في أصل اللغة ما يرادفه أو لا تمكن صوغ مثله .

---

(١) الكتب المؤلفة فى المعربات كثيرة . ومما طبع منها : شفاء الغليل للخفاجى ، ولف القماط لصديق حسن خان الحسينى نواب بهوبال . والالفاظ الفارسية المعربة لادى شير رئيس اساقفة سعرد الكلدانى . والتهذيب فى اصول التعريب للدكتور احمد عيسى المصرى . والتقريب الى اصول التعريب للشيخ طاهر الجزائرى .

الفصل الثاني

النثر

النثر وحظ الجاهليين منه ــ لغة التخاطب ــ الحكم والامثال ــ الخطابة

يطلق النثر فيراد به عند أهل الفن الأدبي الكلام الذي يقصد منه تصوير المعاني النفسية والاجتماعية وفيه مظهر من قوى العقل والتفكير. ولا أحسب أن لعرب الجاهلية حظاً من هذا النوع لأن النثر بهذا المعنى لا يظهر ولا ينضج الا حيث تكون الحضارة وارفة الظلال كاملة الاسباب : تدعو حالتها الطبيعية الى تنظيم الجماعات، وضبط أنظمتها وشؤونها بقيود العقل التي يسمونها الكتابة أو التدوين. وما كان عرب الجاهلية أصحاب حضارة ومدنية وانما كانوا أمماً بدوية وقبائل رحالة لا يعرفون كثيراً ولا قليلاً من حياة المدنية وقوانين الجماعات، فلم يضطروا الى تكلف النثر بالصفة التي ذكرناها ... واذا عددنا لهم نثراً فانما هو (ا) حديث يدور بينهم في شؤون المعيشة. (ب) أو جمل قصيرة تتضمن حكمة أو مثلاً سائراً يرسله حكيم من الحكماء. (ج) أو كلام يقوم به نابه في مشافهة الملوك وفي الاصلاح بين القبائل، أو الحض على القتال، أو في التفاخر والتنافر؛ وليس في هذا كله شيء من مظاهر الفن الذي نجده في شعرهم. وها أنا ذا ذاكر هذه الأنواع وخصائصها ونماذج منها : —

١ ـ لغة التخاطب

الاعراب ـ مادة العامية ـ ظهور اللحن

من مميزات اللغة العربية إعراب أواخر كلمها[1] لتنويع أحوال الكلام وتغيير نبراته بين رفع ونصب وخفض وجزم . والظاهر أن هذه الحروف انما هي أثر باق من حروف اوكلمات كانت تستعمل في الدهر الاول ثم قل استعمالها فاندمرت فصارت حركات ترمز الى أصولها . والاعراب في عرب الجاهلية فطري لايتكلفونه ، ولا يتأملون مواقعه واختلاف جهاته ، وانما كانوا يجرون به على مقتضى الطبع ، ويتساندون فيه الى السليقة . وقد قطع المحققون بأنه لم تكن لهم كما لنا اليوم ـ لغتان : لغة معربة يتخذونها في الخطابة والشعر ، ولغة غير معربة يستعملونها في المحادثة والمحاورة . ذلك لان مادة العامية وأصلها انما هو اللحن ونريد به الزيغ عن الاعراب ، وما كان العربي ليلحن أو يلتوي لسانه بلغته (كما تضافرت على ذلك النصوص) فتكون لهم لغة غير معربة ، وانما بدأ ظهور اللحن وتكونت العامية بعد الاسلام بملابسة العرب للامم كما سنوضحه في الفصل الثاني من فصول العصر الاسلامي . ومن زعم خلاف هذا تخذلقاً وتنطساً فقد جرى على غير هدى أو كتاب منير .

---

(١) أقول هذا واني أعلم أن حركات الاعراب لم تخل منها بقية اللغات مطلقا فان منها في اللغة التركية ، تقول مثلا : « أحمد كلدى » بتسكين الدال من أحمد ومعناه جاء أحمد « وأحمدى كوندردم » بكسر الدال منه ومعناه بعثت أحمد وان لم تكسر لايستقيم المعنى ... وكذلك هي من خصائص اليونانية واللاتينية والألمانية ، ولكنها في لغة مضر أكثر وأظهر .

ب — الامثال والحكم

امثال العرب ومدونوها — تعريف المثل — الامثال الحقيقية — الامثال الخيالية — نماذج من النوعين — الحكم وأمثلتها

لم يعن الرواة من منثور العرب على وفرته [1] الا بما علق بالذهن مما بلغ الغاية في البلاغة والنفاسة والايجاز كالأمثال والحكم وبعض الخطب والوصايا...

وقد كان العرب أكثر الأمم حكماً وضرب أمثال بشهادة الاستقرآء: استقرآء المحققين من الباحثين، وقد عني العلماء قديماً بجمع ما أثر منها عنهم اذ كانت من جملة ما احتاجوا اليه في تحقيق ألفاظ اللغة وتفهم حياة العرب العقلية والاجتماعية، وأقدمهم عبيد بن شرية في أواخر القرن الأول الهجري. وأكثرهم إحاطة أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني (٥١٨ هـ) في كتابه مجمع الأمثال.

* * *

ويقال في تعريف المثل: إنه قول سائر مشهور تمثل به حالة بحالة [2] كمواعيد عرقوب في قول الأشجعي:

وعدت وكان الخلف منك سجية مواعيد عرقوب أخاه بيثرب

فعرقوب هذا رجل كان لايصدق في وعده، فصارت مواعيده علماً لكل

---

(١) نقل القلقشندى فى صبح الاعشى م ١ ص ٢١١ عن صاحب الريحان والريعان: أن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون الا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره انتهى. وقوله «ولا ضاع من الموزون عشره» لايتفق وقول أبى عمرو بن العلاء: ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير. فتدبر!

(٢) قال ابراهيم النظام: تجتمع فى المثل اربعة لاتجتمع فى غيره من الكلام: ايجاز اللفظ، واصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة.

مالا يصح من المواعيد ، وصار هو مثلا في الخلف ، فمن أشبهت حالته حالته قيل « فلان أخلف من عرقوب » أو « وعده وعد عرقوب » .

والمثل لا يغير عن مورده ، ولا يبدل وضعه ، بل يجري كما جاء ، ويحكى كما سمع ، لأنه بذلك عرف واشتهر . كقولهم « أعط القوس باريها » ويضرب في وجوب تفويض الأمر الى من يحسنه ، فانه ورد بتسكين الياء فلا يسوغ تحريكه وإن كان الأصل . وقولهم « الصيف ضيعت اللبن » ، ويضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه ، فانه ورد بكسر التاء لأنه خوطبت به امرأة في الأصل ، وكذلك يجب أن يحكى وإن ضرب للمذكر والمؤنث والاثنين والجمع .

* * *

ويقسمون الأمثال الى قسمين : أمثال حقيقية ، وأمثال خيالية .

١ ـــ أما الأمثال الحقيقية : فهي المبنية على الحوادث والوقائع كالأمثال السابقة ... وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الخاصة ، وقد يتفق لغيرهم شيء بمعنى بعضه لتشابه الاحوال احياناً . ومن بارع ما قالت العرب في أمثالها :

المنية ولا الدنية : يضرب لمن يختار التلف على قبح الأحدوثة ، وقائله أوس ابن حارثة .

رمتني بدائها وانسلت : يضرب لمن يعير صاحبه بعيب هو فيه ، وأصله أن امرأة كانت لها ضرة ، فرمتها بعيب كان فيها ، فقالت المثل .

أوسعتهم سباً وأودوا بالابل : يضرب لمن لم يكن عنده الا الكلام ، وأصله أن رجلا أغار على ناس فاستاق ابلاً لبعضهم ، فجعل يهجوه ، فلم يرد الابل ، فهجاه ثانية ، فقال له ابنه المثل ، وقيل في سببه غير هذا .

وشيعة فيها ذئب ونقد [1] : يضرب لمكان فيه الظلمة والضعفة ولا مجير ولا مغيث .

يداك أوكتا وفوك نفخ : يضرب لمن يجني على نفسه الحين .

سبق السيف العذل : قاله ضبة بن أد لما لامه الناس على قتله قاتل ابنه في الحرم ، ويضرب لما فات والأمر الذي لايقدر على رده .

استنوق الجمل [2] : قاله طرفة بن العبد ، ويضرب للمخلط الذي يكون في حديث ثم ينتقل الى غيره ويخلط به . وأصله أن طرفة كان عند بعض الملوك والمسيب بن علس ينشد شعراً في وصف جمل ثم حوله الى نعت ناقة ، فأرسل طرفة المثل ،

أريها السها [3] وتريني القمر : أي أريها الخفي ، وتريني الواضح الجلي . يضرب لمن يغالط فيما لا يخفى ، ولمن اقترح على صاحبه شيئاً فأجابه بخلاف مراده . . . [4]

٢ واما الامثال الخيالية : فهي الموضوعة على ألسنة الحيوان وضعاً خيالياً ينطوي على عبرة أو مغزى سياسي، وهذا النوع لايختص بقوم دون قوم، بل يشترك فيه العرب وغيرهم من الامم ، ويكثر حيث يكثر الجور والاستبداد ومصادرة الحرية ، فيضطر الحكماء فيما يريدون بيانه الى التمثل على لسان حيوان أو جماد باسلوب خيالي رشيق ليبلغوا به مرادهم مع الأمن على أرواحهم

---

(١) الوشيعة : مثل الحظيرة تتخذ من فروع الشجر للشاء ، والنقد : صغار الغنم .

(٢) أي صار ناقة .

(٣) كوكب صغير خفي من بنات نعش الصغرى .

(٤) قال الشاعر :

شكونا اليه خراب السواد ... فحرم فينا لحوم البقر

فكنا كما قال من قبلنا: ... أريها السها وتريني القمر

أن تزهقها يد الظالم ، وعندي أن كثيراً مما يعزى الى عرب الجاهلية من هذه الأمثال إنما هو إسلامي محض لم يعرفه أهل الجاهلية وإن نسب اليهم. كالابيات التي تضاف الى النابغة الذبياني على لسان الحية[1] فانها أشبه أن تكون محمولة عليه لمباينة أسلوب نظمها أسلوب النابغة وأساليب الشعر في ذلك العهد. ولا بأس أن نوردها لتستطيع أن تشاركنا في الحكم أو تباينا فيه.

زعموا أن النابغة قال من قصيدة يعاتب بها بني مرة :

وإني لألقى من ذوي الضغن منهم ... وما أصبحت تشكو من الوجد ساهره
كما لقيت ذات الصفا من حليفها ... وما انفكت الأمثال في الناس سائره
فقالت له : أدعوك للعقل[2] وافياً ... ولا تغشيني منك بالظلم بادره
فواثقها بالله حين تراضيا ... فكانت تدين المال غباً وظاهره
فلما توفى العقل الا أقله ... وجارت به نفس عن الحق جائره
تذكر أنى يجعل الله فرصة ... فيصبح ذامال ويقتل واتره
فلما رأى أن ثمر الله ماله ... وأثل موجوداً وسد مفاقره
أكب على فأس يحد غرابها ... مذكرة من المعاول باتره
فقام لها من فوق حجر مشيد ... ليقتلها أو تخطئ الكف بادره
فلما وقاها الله ضربة فأسه ... وللبر عين لاتغمض ناظره
فقال : تعالى نجعل الله بيننا ... على مالنا أو تنجزي لي آخره
فقالت : يمين الله أفعل إنني ... رأيتك غداراً يمينك فاجره
أبى لي قبر لايزال مقابلي ... وضربة فأس فوق رأسي فاقره

ومن الأمثال الخيالية قولهم : « كذلك النجار يختلف » فانه يضرب مثلا

---

(١) لفظ المثل : كيف اعاودك وهذا أثر فأسك .

(٢) الدية

للمختلفين في شيء ما. وأصله — فيما يزعمون — أن ثعلباً طلع في بئر فاذا في أسفلها دلو، فركب الدلو الأخرى، فانحدرت به وعلت الأخرى، فشرب وبقي في البئر، فجاءت الضبع فأشرفت، فقال لها الثعلب: إنزلي فاشربي! فانحدرت بالدلو، فارتفعت الأخرى بالثعلب، فلما رآته مصعداً قالت له: أين تذهب؟ قال: «كذلك النجار يختلف» فذهبت مثلا. ويروى كذلك التجار تختلف.

وقولهم «لاأحب تخديش وجه الصاحب» زعموا أن الثعلب رأى جحراً أبيض بين شعبين فأراد أن يغتال به الأسد، فأتاه ذات يوم فقال: ياأبا الحارث! الغنيمة الباردة شحمة رأيتها بين لصبين (مضيقين) فكرهت أن أدنو منها وأحببت أن تولى ذلك أنت فهلم لأريكها. فانطلق به حتى قام به عليه. فقال: دونك ياأبا الحارث، فذهب الأسد ليدخل فضاق به المكان، فقال له الثعلب: اردس برأسك أي ادفع فأقبل يردس برأسه حتى نشب فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر. ثم أقبل الثعلب يخوره أي يخدش خورانه من قبل دبره، فقال الأسد: ماتصنع ياثعالة؟ قال: أستنقذك! قال: فمن قبل الرأس إذن! فقال الثعلب: «لاأحب تخديش وجه الصاحب» فضرب هذا مثلا للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر...

* * *

وأما الحكمة: فهي قول يتضمن حكما مسلماً يفيد أدباً أو عظة، ويجرى مجرى المثل. وهي ثمرة التجارب، وصادق التفرس في صور الحياة وأعمال البشر، ولعل أكثر أهل الجاهلية حكماً أكثم بن صيفي ثم الحكماء من المعمرين إذا صح نص مايضاف اليهم من الحكم المنثورة...

كقولهم : آفة الرأي الهوى — من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء — خير الأعوان من لم يرآء بالنصيحة — أول الحزم المشورة — المزاحة تذهب المهابة — الهوان للئيم مرأمة [1] — كلم اللسان أنكى من كلم السنان — حسن الظن ورطة — من خاصم بالباطل أنجح به [2] — المرء بأصغريه قلبه ولسانه — عفو الرأي خير من استكراه الفكرة — الخطأ زاد العجول — سوء حمل الفاقة يضع الشرف ؟

ج — الخطابة

انطباع العرب عليها — مبلغ عنايتهم بها وقلة ما ورد منها — مقاصدها — هيأة الخطيب حينما يخطب — ما يستحسن من صفاته — نماذج من الخطب في أغراضها مختلفة — أشهر الخطباء في الجاهلية — ترجمة قس بن ساعدة — وأكثم بن صيفي

والخطابة كلام يقوم به مفوه ذو مكانة في حشد حافل ، ومشهد عظيم ، ليبلغ غرضه النفوس وهي في العرب سليقة كالشعر لايعانونها ولايتكلفونها ، وإنما هي أن يحفز الرجل منهم داع صغير أو كبير ، فينفتق لسانه بالمنطق الحر ، ويسترسل في القول الناصع استرسالا بأسلوب هو الشهد حلاوة والماء عذوبة وانسجاما ؛ ولكنهم كانوا — فيما يظهر ممـا أثر عنهم من الكلام — الى الايجاز أميل . . .

وكان لايقوم بها غالباً إلا ساداتهم وسراتهم المفوهون ، يقومون بها في

(١) رأفة وعطف . يعني اذا أكرمت اللئيم استخف بك واذا أهنته فكأنك أكرمته .
(٢) أي ظفر به الباطل وكان عليه لاله .

المجامع العامة، والمشاهد العظام، والمواقف المشهودة. ولكن حياتهم الاجتماعية لم تكن من القوة والانتظام بحيث تدعوهم إلى الحفل بها، و رفع شأنها، كما كانوا بالشعر يحفلون، لهذا قل فيهم عدد الخطباء بالقياس الى عدد الشعراء، بل كانوا يقدمون الشاعر على الخطيب، ولا يعنون برواية الخطب كما يعنون برواية الشعر؛ فلذلك ولصعوبة حفظ النثر بنصه لم يصل الينا من آثار الخطباء الأوائل شيء ذو غناء نستطيع أن نتبين منه صورة كاملة للخطابة في ذلك العصر.

وكل ما بأيدينا منها لا يخرج في موضوعه وأغراضه عن خطب التنافر، والتفاخر بالأحساب والانساب وعظم الفعال، والحض على إدراك الثأر، والتوادي بفعل الخير واكتساب المحامد؛ وخطب النكاح بترغيب آل المخطوب اليه في المخطوب له . . . ولا ريب أن هذه الأغراض انما هي كل ما دعت اليه حياتهم الاجتماعية العامة فكانوا يرتجلونها على البداهة، فحفظ منها ما حفظ، ونسي منها ما نسي. ولعل خطب التنافر والتفاخر هي أظهر خطبهم للمنازعات التي كانت لا تفتأ تتقد نيرانها بينهم، واقتضائها الفخر بالحسب والنجار، والذود عن الشرف والذمار.

وكان من عادة الخطيب — في الجاهلية والى أيام الوليد بن عبد الملك الأموي — أن يخطب قائماً على نشز من الأرض، أو جالساً على ظهر راحلة؛ و يعتمد على الأرض بالقوس في الخطوب والحروب، و بالمخصرة في السلم؛ و يشير بالعصا أو القنا أو يتشذر بأن يرفع يده و يضعها لأداء بعض المقاصد واستدعاء انتباه السامعين.

وكانوا يحبون في الخطيب جهارة الصوت، وجمال المنطق، وفصاحة الحجة،

وقوة الجنان ، وقلة اللحظ ، ونظافة الشارة ، وغير ذلك مما تبسط فيه وضرب له الأمثال أبو عثمان الجاحظ في البيان والتبيين ، وكثيرون غيره .

نماذج من الخطب

والآن نورد لك طائفة مختارة مما يضاف الى أهل الجاهلية من الخطب ، لتتعرف الى أساليبهم النثرية ، وهي اذا لم تكن محققة النص فصورة قريبة منه : —

قال هرثم الخير الحميري : يصالح بين رئيسين تنازعا الشرف حتى تشاحنا وخيف أن يقع بين حييهما شر فيتفانى جذماهما [1] :

« إن التخبط [2] وامتطاء [3] الهجاج ، واستحقاب [4] اللجاج ، سيقفكما على شفا هوة [5] في توردها بوار الأصيلة [6] ، وانقطاع الوسيلة [7] . فتلافيا أمركما قبل انتكاث [8] العهد ، وانحلال العقد ، وتشتت الألفة ، وتباين السهمة [9] وأنتما في فسحة رافهة [10] وقدم واطدة [11] ، والمودة مثرية [12] ، والبقيا معرضة [13] فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى الى التقاطع ، ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوء سعيهم ، وكيف كان صيور أمورهم [14] ! فتلافوا القرحة [15] قبل تفاقم الثأي [16] ،

« ١ » الجذم بالكسر والسكون الأصل
« ٢ » ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة .
« ٣ » ركوب .
« ٤ » من الحقيبة أو من الحقاب فأما الحقيبة فما يحمل فيه الرجل متاعه من خرج اوغيره ، والحقاب بريم تشد به المرأة وسطها والبريم خيط فيه لونان . قال أبو على القالى : وهذا مثل اما ان يكون أراد أنه احتزم باللجاج أوجعله فى وعائه .
« ٥ » جوبة « ٦ » البوار : الهلاك . والاصيلة : الاصل « ٧ » الواسطة والوصلة والقربة الى المراد « ٨ » انتقاض « ٩ » بضم فسكون القرابة
« ١٠ » ناعمة من الرفاهية « ١١ » ثابتة « ١٢ » متصلة « ١٣ » البقيا بالضم اسم من البقاء ، ومعرضة ، ممكنة : قد أمكنت من عرضها اى من جنبها وناحيتها . « ١٤ » الصيور : الاصل الذى يرجع اليه « ١٥ » الجراحة المتقادمة التى اجتمع فيها القيح « ١٦ » اشتداد الفساد .

واستفحال[١] الداء ، وإعواز الدواء ، فانه اذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء[٢] ؛ واذا استحكمت الشحناء ، تقضبت[٣] عرا الابقاء ، وشمل[٤] البلاء .

فقال سبيع : « أيها الملك : إن عداوة بني العلات[٥] لاتبرئها الأساة[٦] ولا تشفيها الرقاة[٧] ، ولاتستقل بها الكفاة ، والحسد الكامن ، هو الداء الباطن ، وقد علم بنو أبينا أنالهم رده[٨] اذا رهبوا ، وغيث اذا أجدبوا[٩] ، وعضد اذا حاربوا ، ومفزع اذا نكبوا ، وانا واياهم كما قال الأول :

اذا ماعلوا قالوا أبونا وأمنا وليس لهم عالين أم ولا أب

فقال ميثم : أيها الملك ! إن من نفس على ابن أبيه الزعامة[١٠] ، وجدبه في المقامة[١١] ، واستكثر له قليل الكرامة ، كان قرفاً[١٢] بالملامة ، ومؤنباً على ترك الاستقامة ، وإنا والله مانعتد لهم بيد الاوقد نالهم منا كفاؤها ، ولا نذكر لهم حسنة الا وقد تطلع منا اليهم جزاؤها ، ولا يتفيأ لهم علينا ظل نعمة إلا وقد قوبلوا بشرواها[١٣] . ونحن بنو فحل مقرم[١٤] لم تقعد بنا الامهات ولا بهم ، ولم تنزعنا أعراق السوء ولا إياهم ، فعلام مط[١٥] الخدود ، وخزر العيون[١٦] والجخيف[١٧] والتصعير ، [١٨] والبأو والتكبر ؟ ألكثرة عدد ، أم لفضل جلد ، أم لطول مقتعد ؟ وإنا وإياهم لكما قال الأول : [١٩]

---

(١) اشتداد (٢) العداوة (٣) تقطعت (٤) عم . (٥) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد (٦) جمع آس وهو الطبيب (٧) جمع راق وهو من يصنع الرقية أى العوذة التي يرقى بها المحموم والمصروع (٨) عون (٩) قحطوا .

« ١٠ » أى ضن عليه بالرياسة . « ١١ » عابه في المجلس « ١٢ » خليقاً « ١٣ » مثلها « ١٤ » أى سيد شريف ، والمقرم في الاصل البعير الذى لا يحمل عليه ولا يذلل وانما هو للفحلة « ١٥ » مد « ١٦ » الخزر : الضيق في العين وخزره نظره بلحاظ العين كبراً واستخفافاً ... « ١٧ » التكبر ومثله البأو « ١٨ » هو ان يعرض المرء بوجهه عن الناس في ناحية من الكبر « ١٩ » هو ذو الاصبع العدواني من حكماء العرب وشعرائهم . والبيت من قصيدة له طويلة في امالى القالى ج ١ ص ٢٥٩ الطبعة الاولى

لاه ابن عمك لا أفضلت في حسب　　عني ولا أنت دياني فتخزوني (1)

ومقاطع الأمور ثلاثة : حرب مبيرة ، (2) أو سلم قريرة ، أو مداجاة (3) وغفيرة (4) .

فقال الملك : لا تنشطوا (5) عقل الشوارد ، ولا تلقحوا العون القواعد ، (6) ولا تؤرثوا (7) نيران الاحقاد ، ففيها المتلفة المستأصلة ، والجائحة والأليلة. (8) وعفوا بالحلم أبلاد الكلم (9) ، وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمنهج الأقصد ، فان الحرب تقبل بزبرج الغرور ، (10) وتدبر بالويل والثبور ...

فقال : لا أيها الملك ! بل نقبل نصحك ، ونطيع أمرك ، ونطفئ النائرة ، (11) ونحل الضغائن ، ونثوب (12) الى السلم (13) ».

وقال زهير بن جناب يوصي بنيه :

« يا بني ! اني قد كبرت سني ، و بلغت حرساً (14) من دهري ، فأحكمتني التجارب ، والأمور تجربة واختبار ، فاحفظوا عني ما أقول وعوه. إياكم والخور (15) عند المصائب ، والتواكل (16) عند النوائب (17) . فان ذلك داعية للغم ، وشماتة (18)

«1» لاه ابن عمك : أي لله ابن عمك ، وعند ابن دريد : أقسم بالله ابن عمك ، وافضلت : من قولهم أفضل الرجل اذا صار ذا فضل في نفسه . والديان: القيم بالامر المجازي به ، وتخزوني : تسوسني : والمعنى : لله ابن عمك الذي ساواك في الحسب وما ثلك في الشرف فليس لك فضل تنفرد به عنه ولا انت مالك امره فتسوسه وتتصرف به على حكمك ، ومراده بابن العم نفسه ولذلك رد الاخبار بلفظ المتكلم

«2» مهلكة «3» مسارة العداوة والمداراة «4» غفران «5» لاتحلوا «6» هذا مثل واصله في الابل يقال لقحت الناقة اذ احملت والقحها الفحل ، ثم ضرب ذلك مثلاً للحرب اذا ابتدأت ، والعون جمع عوان وهي الثيب ويقال للحرب عوان اذا كان قدقوتل فيها مرة بعد مرة «7» لاتذكوا «8» الجائحة : الاستئصال ، والاليلة : الثكل «9» آثار الجرح «10» الزبرج : الزينة «11» الهائجة «12» ترجع «13» امالي القالي ج ا ص ٩٢ — ٩٣ الطبعة الاولى

«14» طويلا «15» الجبن والضعف «16» ان يكل المرء امره «أي يتركه» الى غيره من قولهم رجل وكل اذا كان لا يكفي نفسه ويترك امره الى غيره ويقال رجل وكلة تكلة . «17» جمع نائبة وهي المصيبة «18» اسم من شمت به كفرح يشمت: اذا فرح بمصيبة نزلت بعدوه .

للعدو، وسوء ظن بالرب؛ وإيا كم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، ومنها ساخرين، فانه ما سخر قوم قط الا ابتلوا، ولكن توقعوها، فان الانسان في الدنيا غرض [1] تعاوره [2] الرماة، فمقصر دونه، ومجاوز لموضعه، وواقع عن يمينه وشماله، ثم لا بد أن يصيبه» [3].

وقال أبو طالب عمّ النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً:

«الحمد لله الذي جعلنا من زرع ابراهيم، وذرية اسماعيل، وجعل لنا بلداً حراماً، وبيتاً محجوجاً، وجعلنا الحكام على الناس. ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش الا رجح به براً وفضلاً وعدلاً ومجداً ونبلاً، وان كان في المال قل فان المال عارية مسترجعة، وظل زائل؛ وله في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وما أردتم من الصداق [4] فعلي [5]».

الخطباء

وأشهر خطبائهم: كعب بن لؤي جد النبي السابع، وذو الاصبع العدواني، وزهير بن جناب، ودويد بن زيد، ومرثد الخير الحميريون، وعلقمة ابن علاثة، وعامر بن الطفيل، وخالد بن جعفر العامريون، والربيع بن ضبيع الفزاري، والحارث بن عباد، وقيس بن مسعود البكريان، وحاجب بن زرارة التيمي، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وعمرو بن معد يكرب الزبيدي، والحارث ابن ظالم المري، وعمرو بن الشريد السلمي، وقس بن ساعدة الايادي، وأكثم بن صيفي التيمي... ونحن نترجم لاثنين منهم عناهما «المنهج»: —

«١» هو الهدف الذي يرمى فيه «٢» تداوله «٣» عن كتاب المعمرين لابي حاتم السجستاني.

«٤» المهر «٥» صبح الاعشى ١ — ٢١٣ والروض الانف ١ — ١٢٢ واعجاز القرآن للباقلاني — هامش الاتقان ج ٢ ص ١

١ ــ قس بن ساعدة

هو خطيب كبير، وحكيم مفكر، مضروب به المثل طوال الازمان في في البلاغة والحكمة. كان يدين بالتوحيد، ويحض الناس على مجانبة الاوثان، ويرشدهم الى عبادة الخالق. وقد سمعه النبي صلى الله عليه وسلم في عكاظ يخطب على جمل أو رق، فراقه كلامه، وأثنى عليه خيراً. وكان قس يفد على قيصر فيكرمه. وتوفي قبيل البعثة. ولم يحفظ لنا التاريخ من سيرته وخطبه وحكمه الا صبابة لا تبل فؤاد صاد.

وقد عزي الى قس شعر أيضاً ولكن كل ما يصح له انما هو هذه الخطبة (١) التي سمعه النبي (ص) يخطبها في عكاظ واعظاً ومذكراً، على أنها تروى بصور تختلف طولا وقصراً وتأخيراً وتقديماً، لرواية كل واحد ما علق بذهنه منها، ولعل أمثل تلك الصور هذه الرواية:

« أيها الناس! إسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج (٢)، ونهار ساج (٣)، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر (٤)، وبحار تزخر (٥)، وجبال مرساه، وارض مدحاه (٦)، وانهار مجراه. إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام

«١» بل قال العسقلاني في « الاصابة في تمييز الصحابة» ج٥ص ٢٨٦
« ... أفرد بعض الرواة طريق حديث قس وفيه شعره وخطبته، وهو في الطوالات للطبراني وغيرها وطرقه كلها ضعيفة».

«٢» مظلم «٣» دائم او ساكن «٤» تتلألأ «٥» تطمى وترتفع امواجها
«٦» مدحوة اى مبسوطة

فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه : إن لله ديناً هو أرضى لكم وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه . إنكم لتأتون من الأمر منكرا . ثم أنشد يقول :

في الذاهبين الأوليـ ـن من القرون لنا بصائر [1]
لما رأيت مواداً للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأكابر والاصاغر
لا يرجع الماضي الـ ـي ولا من الباقين غابر [2]
أيقنت أني لامحـ ـالة حيث صار القوم صائر

٢ ــ أكثم بن صيفي

خطيب من مشاهير الخطباء، وحكم من حكام تميم، مسدد الرأي، عالم بالأنساب، ذو مكانة رفيعة . يروون أن النعمان أوفده الى كسرى [3] على رأس جماعة من مشاهير الخطباء: كعمرو بن معد يكرب، وعامر بن الطفيل، وحاجب بن زرارة . فأعجب به كسرى وقال له : « لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ! » . وأدرك أكثم مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وبعث ابنه حبيشاً الى مكة، فأتاه بخبره : من أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر، وأخذه بمحاسن

«١» جمع بصيرة وهي العقل والعلم والخبرة وما يستدل به الرجل من رأيه وعقله على ما يغيب عنه

«٢» باق «٣» وجدت غير واحد من المحققين يذهبون الى ان خبر وفود النعمان الى كسرى مصنوع .

الأخلاق ، وفضائل الأعمال ، ودعوته الى توحيد الله ، وخلع الأوثان ... فجمع أكثم قومه ، وحثهم على الايمان به وشد أزره . وهل أسلم أم لم يسلم في ذلك روايات [1] .

وهو — في خطبه و وصاياه الواصلة الينا — رشيق الاسلوب ، حسن المسلك ، كثير ضرب الأمثال وسرد النصائح الممتازة بصدق النظر . بل لو التمست في كلامه غير ذلك من الأغراض لما وجدت شيئاً . إذن فهو خليق أن يدعى حكيماً لا خطيباً .. وقد كان يزيد بن المهلب يسلك في خطبه طريقته ، و يحتذي أسلوبه ، وأنت اذا قرأت مثلا وصيته لابنه مخلد حين استخلفه على جرجان لا تشك في أنها بوصايا أكثم أشبه . ومن أحاسن خطب أكثم قوله يخطب بني تميم و يوصيهم :

« يا بني تميم ! لا يفوتنكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي . إن بين حيزومي [2] وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع الا أسماعكم ، ولا مقار الا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مغبته [3] . الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفس مهملة ، والروية مقيدة ، ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم ، ولن يعدم المشاور مرشدا ، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ، ومن سمع سمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ؛ ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت الا مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد أمن العثار [4] ، ولن يعدم الحسود أن يتعب

«١» انظر « الاصابة فى تمييز الصحابة » ج ١ ص ١١٣

«٢» هو الصدر أو وسطه .

«٣» عاقبته «٤» مثل يضرب فى طلب العافية . والجدد : الارض المستوية

قلبه ، ويشغل فكره ، ويورث غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه . يا بني تميم ! الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف[1] للذم، وكلم[2] اللسان أنكى[3] من كلم السنان،[4] والكلمة مرهونة ما لم تنجم[5] من الفم، فاذا نجمت فهي أسد محرب،[6] أو نار تلهب؛ ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجور ؛ ونفاذ الرأي في الحرب ، أجدى من الطعن والضرب» .

***

«١» أي انتصب كالهدف يرمى بالاقاويل «٢» جرح «٣» أشد نكاية اى جرحا واثخانا
«٤» نصل الرمح «٥» نجم: خرج «٦» بكسر الميم شديد الحرب

الفصل الثالث

الشعر

تعريفه عند أدباء العرب والإفرنج وفرق ما بينه وبين النظم — نشوؤه وتكوين أوزانه — أوليته ونقد مزاعم الرواة فيها — عناية العرب به وانطباعهم عليه وأسباب ذلك — منزلة الشاعر عندهم — خصائص الشعر الجاهلي وطرائق الشعراء في الاستهلال والتخلص — نماذج منه في فنونه وأغراضه متنوعة .

الشعر : من «الفنون الجميلة» التي سميت قديماً «بالآداب الرفيعة» ومن شأنها التأثير على النفوس بسطاً وقبضاً ، وتربية ملكة الذوق أو الحاسة الفنية والشعور . وقسمها بعضهم الى سبعة أقسام ، وأرجعها غير واحد الى ثلاثة ، وهي: التصوير ، والموسيقى ، والشعر . وكلها يقصد به تصوير الطبيعة . فالتصوير يرسمها بالنقوش والخطوط ، والموسيقى بالألحان والأنغام ، والشعر يصورها بالخيال البديع المعبر عن مشاهده المتنوعة بالألفاظ الفصيحة .

وهذا الوصف للشعر إنما يتناول المنظوم والمنثور من الكلام الشعري كما عرفه اليونان والافرنج والعرب أيضاً ، وهو الحق . ولكنه اذا انضم الى ذلك نغم الوزن ، ورنة القافية ، كان أعمق أثراً في النفوس ، وأشد امتلاكاً للعواطف . ولما كانت العرب في الغالب لاتصوغ خوالجها النفسية إلا في قوالب منظومة قال أدباؤنا في تعريف الشعر : « إنه الكلام الموزون المقفى المعبر غالباً عن صور الخيال البديع » . أما من قال : « إنه الكلام الموزون المقفى قصداً » ولم

يشترط ما اشترطه أولئك ، فانما نظر اليه من جهة بنيته وقوافيه ، فعرف القالب الذي يفرغ فيه ، وهو النظم ، ولم يعرف الشعر وشتان بينهما !

نشأة الشعر : والشعر أقدم الفنون الجميلة عهداً لصلته بالشعور والخيال ، ولعدم احتياجه قديماً الى التعمق في العلم ، والارتقاء في معارج الحضارة . ويرى الباحثون أنه هو والموسيقى صنوان من أصل واحد : نشآ معاً ، ونميا معاً ، ثم استقل الشعر عن الموسيقى ، وظلت الموسيقى محتاجة الى الشعر في الغناء ، غير أنهم قد اختلفوا في نشأة أوزانه وقوافيه ، وأقرب مايساغ من آرائهم أن العرب بدأوا بالنثر المرسل ، وتوصلوا منه الى السجع ، ومن السجع الى الرجز ، ومن الرجز الى القصيد . . . وتفصيل ذلك أن السنة الطبيعية في الاشياء أن تنشأ ناقصة ثم تتكامل ، وبسيطة ثم تتركب ، ولم يخرج كلام البشر في تكونه عن هذا النظام . فقد مرت عليه ثلاثة أدوار تدرج فيها من حال الى حال حتى ارتقى الى ما كان عليه في العهد الجاهلي : نشأ بسيطاً ساذجاً ، ثم خطا الى السجع ، وهو نوع من حلية الكلام ، ومنه الى الرجز[1] ، ويظن أن متغنياً

---

(١) من بحور الشعر الستة عشر ، اجزاؤه (مستفعلن) ست مرات ، وأعاريضه أربعة وأضربه خمسة . الاولى تامة ولها ضربان الاول مثلها والثاني مقطوع ، الثانية مجزوءة صحيحة وضربها مثلها ، الثالثة مشطورة وهي الضرب ، الرابعة منهوكة وهي الضرب ، وقد ذهب الاخفش الى أن المشطور والمنهوك ليسا من الشعر بل من السجع ، وأكثر العروضيين على ان ماكان على جزء واحد ليس شعراً بل هو سجع ، وخالفهم الزجاج وجعله من الشعر نحو قول القائل ، موسى القمر ، غيث زخر ، بحر البحر . وانما كان الرجز أول مولود من الشعر لانه أبسط الاوزان وأخفها على الطبع وأقربها الى الكلام المنثور حتى ان الادباء ليسمونه « حمار الشعراء » لان كل شاعر أول مايبدأ يقول الشعر انما ينظم غالباً على وزنه من غير أن يعرف خفته وجريه مع الطبع . ومما يقوى ذلك اجماع الرواة على انه أقدم الشعر عند العرب . ومن أمثلته قول الراجز:

دع المطايا تنسم الجنوبا   ان لها لنبأ عجيبا
حنينها وما اشتكت لغوبا   يشهد أن قد فارقت حبيبا
ما حملت الا فتى كئيبا   يسر مما أعلنت نصيبا
لو ترك الشوق لنا قلوبا   اذن لآثرنا بهن النيبا
أن الغريب يسعد الغريبا

وقعت له قرينتان متواطئتان على حرف واحد، فراقه ذلك ومضى فيه حتى تمت له قطعة، سموها فيما بعد الرجز، وقعت في نفوس سامعيها، فقلدوه في النطق بما يماثلها، وتغنوا بها - والغناء عادة يورث الكلام «لحناً» خاصاً ويجريه على تقاطيع وتواقيع - فكان من ذلك المقطعات والأراجيز يحدون بها الابل الرازحة، ويذكرون الأوطان النازحة، ويعددون بها مكارم الأخلاق، ويصفون طيب الاعراق؛ ثم تعددت الاوزان، بتعدد الألحان، وأطالوا القوافي، وقصدوا القصيد في كل غرض من الأغراض، فكان للفخر وزن، وللحماسة وزن، وللأهازيج وزن، وهكذا الى سائر الأوزان التي حصرها أديب العرب الأكبر الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ — ١٧٥هـ) في خمسة عشر وزناً سماها بحوراً، ثم استدرك عليه تلميذه الأخفش بحراً سماه «المتدارك».

اولية الشعر: لقد عرفت كيف نشأت الأوزان والأعاريض، وكأنك تطمع في أن أعين لك العصور التي نشأت فيها، وتقلبت عليها، حتى تمت على هذه الصورة الناصعة. إن من المتعذر على الباحث في الشعر أن يرجع ببحثه الى ما وراء قرن ونصف قرن قبل المبعث: لانطماس الأخبار، ومكان الأمية من عرب الجزيرة. وجل ما نسب الى من تقدم ذلك العهد لا تطمئن اليه النفس، ولا يصح وضعه موضع الثقة، وقد حاول غير واحد من الباحثين أن يبحثوا في أصله ويعينوا زمنه، فزعم زاعم أن أول من أرقه عدي بن ربيعة الملقب بالمهلهل مستنبطاً من لقبه دليلاً على أنه أول من هلهل نسج الشعر، وقصد القصائد. وذهب آخر الى أن أول شعراء العرب ربيعة، وقيل بل مضر، وارتقت جماعة الى ما وراء ذلك بأحقاب فقالوا: بل هو عاد، وقيل بل ثمود، وأغرب آخرون فذهبوا صعداً الى آدم وابليس والملائكة والجن، ونسبوا

اليهم قول الشعر . وكل هذا أجدر بأن يحشر في جملة الأساطير وأحاديث خرافة.

لا ريب أن العرب قالت الشعر قديماً ، وتغنت به في البوادي والقفار ، وسامرت به زهر النجوم ، وغازلت جمال الطبيعة الفتان . وإننا لا نريد أن نتخذ من فساد تلك الروايات والمزاعم دليلاً على أنها لم تقل الشعر ما وراء منتصف القرن الثاني قبل المبعث ، لا نريد ذلك وإنما نرتاب في تعيين زمن أوليته وأول من نطق به ، ونرتاب أيضاً أن يكون المهلهل أول من وثب به تلك الوثبة في تنويع الأوزان ، وتهذيب الأساليب ، وتشعب المناحي . ونرى أن هذه النهضة الجاهلية المتصلة بالاسلام لا بد أن تكون مسبوقة بنهضات (جهل تاريخها) تدرج فيها الشعر بأغراضه وأوزانه وقوافيه أولاً فأولاً حتى بلغ أشده ، وظهر بتلك الصورة الرائعة في شعر المهلهل وامرئ القيس وطرفة و زهير وعبيد وغيرهم من شعراء النهضة الأخيرة[1] . ومما يؤيدنا قول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم   أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وقول زهير :

ما أرانا نقول الا معاراً   أو معاداً من لفظنا مكرورا

عناية العرب بالشعر وانطباعهم عليه وأسباب ذلك : وللعرب عناية شديدة بالشعر .[2] فهو ــ كما قال الجمحي ــ « ديوان علمهم ، ومنتهى حكمتهم ، به يأخذون ، واليه يصيرون » . والعرب أشعر الساميين فطرة . بل لسنا بمبالغين اذا قلنا

(١) من هنا يتبين لك فساد قول أبي عثمان الجاحظ في كتاب الحيوان ج ١ ص ٢٧ : أما الشعر فحديث الميلاد ، صغير السن ، أول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس ابن حجر ومهلهل بن ربيعة »

(٢) وكانت القبائل تحرص على أن يكون لها شاعر وخطيب وزعيم ، ولكن الشاعر كان أكرم عليها فكان له عندها المحل الارفع والقول النافذ والسلطان الغالب . فاذا نبغ في القبيلة شاعر تباشرت به ، وهنأتها القبائل ، وصنعت له الولائم ، واقامت الافراح : يشترك في ذلك الرجال والنساء ، ذلك لانه اللسان الناطق بمكارمها ، والذائد عن حياضها يوم لا ينطق سيف ، ولا يدفع سنان !

إنهم أشعر الأمم ، وأقدرها على النظم في الشعر الوجداني لأسباب سنبينها بعد. وما أخطأ أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ حين قال « إن كل شيء للعربي إنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام . وليست هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجالة فكرة ، ولا استعانة ، وانما هو أن يصرف همه الى الكلام ، والى رجز يوم الخصام ، أو حين يمتح على رأس بئر ، أو يحدو ببعير ، أو عند المقارعة والمناضلة ، أو عند صراع ، أو في حرب . فما هو الا أن يصرف وهمه الى جملة المذهب ، والى العمود الذي اليه يقصد ، فتأتيه المعاني أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا » . وقد روي عن العرب من الشعر في قرن ونصف قرن مالم يرو لأمة من الأمم مثله في عدة قرون . هذا وأبو عمرو بن العلاء كان يقول « ماانتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » . وفي الحق إننا لنسمع بالشاعر الفحل ، ومالا سمعه من الدوي ، ثم اذا مضينا نبحث عن شعره لانجد له بازاء شهرته غير الشيء النزر مما لا ينقع غلة ولا يروي صاديا . إن ذلك ليدل بوضوح على مبلغ ما ذهب من أدب القوم بذهاب المغازي وحروب الفتوح برواته وحفاظه.

ولعناية العرب بالشعر وانطباعهم عليه أسباب وعوامل طبيعية . منها أنهم قوم أصحاب قلوب كبيرة ، ونفوس حساسة ، وشعور حاد ، تؤاتيهم البادرة ، وتستفزهم اللمحة المريبة ، وفيهم بديهة وارتجال . ومن كان هذا شأنه لا يلبث عند كل حادثة أن يجيش بصدره معنى يفيض على لسانه شعراً شاعرا . واشد ما كان يقع بينهم من خصومات ومنافرات ، وحروب ومفاخرات ، تثير الحفيظة ، وتفتق اللسان . ومنها تعودهم الحرية المطلقة ، وعدم الخضوع لنظام مقيد ، أو حكومة تذل النفوس ، وتقتل المشاعر ، فكانوا يسلكون الى

أحكامهم من طريق العاطفة، فلا يدعون شيئاً يحوك في صدورهم ، أو يقنع تحت حسهم ، الا مثلوه بشعر رائع الأساليب ، صريح الاوجه ، خال عن المعاريض والتوريات . حيث لا قانون يحكم أفواههم ، ولا وازع - غير وازع الفضيلة - يمنعهم أن يقولوا ما يشاؤون . ومنها ملاءمة بيئتهم للخيال ، وخلوها مما يشغل الفكر عن التأمل في مشاهد الطبيعة ، ومناظر الوجود : من شمس ضاحية ، وبدر سافر ، وكواكب زاهرة ، في سماء مجلوة الأديم تنير الحس ، وتصقل النفس ، وترفد الذهن بمادة تفيض على الشاعرية قوة وخيالا ، والجو الصافي يكون الخيال الصافي . وتأثير الأقاليم في الأبدان والطباع مما لا يمترى فيه . ومنها أن لغتهم لغة شعرية بطبعها ، وهي من السعة ، وكثرة المترادفات ، وتنوع الاشتقاق ، وأساليب البيان ، ودقة التعابير ، بحيث يسهل بها النظم ، ويتمكن الشاعر من صوغ معانيه في القالب الذي يريده ...

خصائص الشعر الجاهلي : والشعر صورة الشاعر كما أن الشاعر صورة المجتمع . وهذا معنى لا تكاد تتحققه على وجهه الا في الشعر الجاهلي فهو مرآة صادقة لعصره ، تلتمس فيه حياة القوم وأخلاقهم وصفاتهم وآدابهم وسائر أحوالهم ، فتجد كل ذلك ممثلا فيه ، حتى لو انقطعت أنباؤهم ، واندثرت آثارهم ، ولم يبق غيره ، لاستطعت أن تستخرج منه وصفاً كاملا لجميع أحوالهم . وليس من شك في أن الفطرة الساذجة ، والصراحة التامة ، والحرية المطلقة ، وخشونة العيش ، والبعد عن التعمل : كل أولئك ماز هذا الشعر الجاهلي بهذا الطابع ؛ ومن درس الشعر الجاهلي على تنوع فنونه وأغراضه علم أن القوم لم يخطوا حدود مشهودهم ومعقولهم كما تخطاها من تأثر بآداب الفرس ومبالغاتهم من المولدين . فالجاهلي اذا روى حادثة ألم بها من جميع أطرافها ، ورسمها رسماً صادقاً يغنيك

عن التطلع الى ما وراءه . وإذا تحمس أو تعاظم فلا يذهب بنفسه على الناس، ولا يجعل قومه أربابا معبودة، وأعداءه شياطين مرجومة ، بل يقتصد في ذلك، ويتجافى عن المبالغة والاغراق ، ورب ما ذكر محاسن قرنه لا يبخسه شيئاً.[1] واذا وصف أمراً استجلاه على صورته وطبيعته، ومثله تمثيلا ناطقاً بلفظ يندر فيه زخرف المحسنات البديعية . واذا لذعه الحب بأواره « أطلعك من قلبه على موضع ناره ، وأسمعك منه رنين أوتاره » وكذلك هو في كل ما يريد تمثيله لا يعدو الحقيقة ، ولا يتجاوز ظواهر المشاهد ، ولا يغرب في التعمل ، لذلك وضحت معاني الشعر الجاهلي ، وندرت فيه المبالغة ، وقل استعمال المجاز والكناية، ثم عدم فيه (في الجملة) تنسيق الأفكار ، وترتيب المعاني على سنن المنطق ، حتى اذا قدمت فيه أو أخرت أو حذفت فلا تشعر القصيدة بتغيير . ذلك لأن الجاهليين لا يلاحظون « وحدة الموضوع » وإنما هم يقصدون في القصيدة الى جملة من الأغراض فينتقلون من معنى الى معنى حتى يفرغوا مما قصدوا اليه. وليس لهم في نظم الشعر مذهب معين يلتزمونه ويتقيدون به كالمحدثين والمولدين من التزامهم غالباً الاستهلال بالغزل والنسيب ، وان لم يكن لهم وجد ولا شوق ولا حبيب . وانما كانوا يسلكون طرقا مختلفة ، وأساليب متنوعة ، ومناحي غريبة النزعة ... فقد يعمد الشاعر الجاهلي الى الغرض يريده رأساً من غير أن يمهد له إن حماسة فبالحماسة ، أو فخراً فبالفخر ، أو رثاء فبالرثاء ، وهلم جرا . وقد يمهد له بالحكمة ثم ينتهي اليه ، أو بالغزل والنسيب ، وذكر الرحيل ، وتوقع الفراق ، وبكاء الديار ، واستنطاق الآثار ، واستيقاف الأصحاب ، والحنين الى الأحباب ، وذكر المياه التي يلتقي عليها ومن يحب ، والرياض التي ينزل بها واياه في المصايف والمرابع ، وتحية المنازل التي ألفها وأبلى فيها جدة

---

(١) سنأتي على بعض الامثلة في فصل « نماذج الشعر الجاهلي » .

الصبا وملاوة الشباب ... يتفنن في ذلك مايشاء له هواه ثم ينتقل منه الى المدح أو الفخر ، ومنه الى وصف الخيل أو الليل ، ومنه الى التفجع والتأثر وأمثال ذلك من ضروب المعاني والأغراض حتى ينقطع به نفس الكلام .

ولهم في الخروج من معنى الى آخر مذاهب ، فقد يتخلص الشاعر من غرض الى غرض بمثل قوله «دع ذا» و« عد عن ذا» ثم يأخذ فيما يريد كما قال امرؤ القيس :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا	وحلت سليمى بطن ظبي فعرعرا

فدعها وسل الهم عنها بجسرة	ذمول اذا صام النهار وهجرا

أو بواو رب كما قال علقمة :

اذا شاب رأس المرء أو قل ماله	فليس له في ودهن نصيب

وعيس بريناها كأن عيونها	قوارير في أدهانهن نضوب[1]

أو بان المشددة أو إنما كقول المثقب العبدي :

ولبعض الصفح والاعراض عن	ذي الخنا أبقى وان كان ظلم

إنما جاد بشاس خالد	بعد ما حاقت به احدى الظلم

و ربما عدلوا عن ذلك كله ، وهجموا على ما يريدونه وثباً واقتضاباً كما قال النابغة الذبياني :

تقاعس[2] حتى قلت ليس بمنقض	وليس الذي يرعى النجوم بآيب

علي لعمرو نعمة بعد نعمة	لوالده ليست بذات عقارب

وأمثال ذلك كثير نكتفي منه بهذه اللمحة ، وقد احتذى الشعراء من بعدهم هذه الطريقة في الانتقال دهراً ، ثم عدلوا عنها الى لطف التحيل في الخروج من النسيب الى المدح أو غيره فيتمادون فيه الى آخر القصيدة .

وقد كان الجاهليون يؤثرون جزالة اللفظ ، ووضوح المعنى ، ولا يعنون

(١) لم يرد هذا في رواية المفضليات ؟ ورواية اياه عن العسكري (٢) أي الليل

في النظر في أعطاف الشعر بأن يتحيلوا في التخلص ، أو يجانسوا و يطابقوا ، فيتركوا لفظة للفظة، ومعنى لمعنى كما يفعل المحدثون . ذلك لأنهم شعراء بالطبيعة صفت قرائحهم ، وسلمت لغتهم من داء العجمة ، فلم يحتاجوا مثلنا الى المدارسة والمران عهداً طويلا لنحاكي لغتهم ، ونحتذي مثالهم في أغراض الكلام نثراً وشعراً ... وهذا موضوع واسع يحتاج في المضي فيه الى مجال رحب . فحسب المتأدب الشادي ذلك منا .

نماذج الشعر الجاهلي

واليك نماذج مختارة من الشعر الجاهلي في فنون وأغراض مختلفة تتبين منها أخيلتهم وأساليبهم ...

الأدب والحكمة

قال عائذ بن محصن المشهور بالمثقب العبدي :

لاتقولن اذا ما لم ترد ... أن تتم الوعد في شيء « نعم »
حسن قول « نعم » من بعد « لا » ... وقبيح قول « لا » بعد « نعم »
إن « لا » بعد « نعم » فاحشة ... فبلا فابدأ اذا خفت الندم
واعلم أن الذم نقص للفتى ... ومتى لاتتق الذم تذم
أكرم الجار وراع حقه ... إن عرفان الفتى الحق كرم
لاتراني راتعاً في مجلس ... في لحوم الناس كالسبع الضرم (١)
إن شر الناس من يكشر (٢) لي ... حين يلقاني وإن غبت شتم
وكلام سيء قد وقرت (٣) ... عنه أذناي ومابي من صمم
فتعديت (٤) خشاة أن يرى ... جاهل أني كما كان زعم

(١) رتع في لحوم الناس : اغتابهم، والضرم: الجائع الشديد النهم أخذاً من ضرم النار وهو التهابها (٢) يضحك ويبسم (٣) صمت (٤) في بعض الروايات : فتعزيت

ولبعض الصفح والإعراض عن ذي الخنى[1] أبقى و إن كان ظلم

وقال المتلمس جرير بن عبد المسيح :

ولا يقيم على ضيم يراد به الا الأذلان : عير[2] الحي والوتد
هذا على الخسف[3] مربوط برمته[4] وذا يشج[5] فلا يرثي له[6] أحد

وقال المرقش الأصغر :

ومن يلق خيراً يحمد الناس أمره ومن يغو لا يعدم على الغي لآئما
أخوك الذي إن أحرجتك ملمة من الدهر لم يبرح لبثك[7] واجما[8]
وليس أخوك بالذي إن تشعبت عليك أمور ظل يلحاك[9] دائما

وقال سويد بن عامر المصطلقي :

لا تأمنن و إن أمسيت في حرم إن المنايا توافي كل إنسان
واسلك طريقك فيها غير محتشم حتى تبين ما يمني لك الماني[10]
فكل ذي صاحب يوما يفارقه وكل زاد و إن أبقيته فاني
والخير والشر مقرونان في قرن[11] بكل ذلك يأتيك الجديدان[12]

وقال دريد بن الصمة :

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد الا ضحى الغد[13]
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت، و إن ترشد غزية أرشد[14]

وقال الأفوه الأودي « صلاءة بن عمرو » :

البيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد اذا لم[15] ترس أوتاد

(١) الفحش في الكلام (٢) الحمار (٣) الذل (٤) بضم الراء: الحبل الرث البالي.
(٥) يضرب رأسه ويشق. (٦) لا يتوجع له .

«٧» لحزنك الشديد . «٨» مطرقا من شدة الحزن «٩» يلومك . «١٠» يقدر لك المقدر . «١١» حبل «١٢» الليل والنهار . «١٣» المنعرج : المنعطف، واللوى : ما التوى واستدق من الرمل . «١٤» هل انى ، وغزية : قوم الشاعر . «١٥» رسا : ثبت

فإن تجمع أوتاد وأعمدة وساكن بلغوا الأمر الذي كادوا (١)

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة اذا جهالهم سادوا (٢)

تبقى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

اذا تولى سراة القوم أمرهم نما على ذاك أمر القوم وازدادوا (٣)

أمارة الغي أن يلقى الجميع لذي — الابرام الامر والأذناب أكتاد (٤)

كيف الرشاد اذا ما كنت في نفر لهم عن الرشد أغلال وأقياد

أعطوا غواتهم جهلاً مقادتهم فكلهم في حبال الغي منقاد

الفخر والحماسة

قال عامر بن الطفيل :

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل موكب (٥)

فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب (٦)

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكبي

وقال عبد الشارق بن عبد العزى الجهني ، وهي من المنصفات ،

ألا حييت عنا يا ردينا نحييها وإن كرمت علينا (٧)

«١» أرادوا. «٢» يقال قوم فوضى: اذا كانوا متساوين لا رئيس لهم ولا من يجمعهم، والسراة بفتح السين جمع سري وهو الرئيس الشريف . «٣» نما: زاد «٤» الامارة : العلامة وزنا ومعنى . والابرام: احكام العقد ، والاكتاد : جمع كتد وهو مجتمع الكتفين «٥» الموكب اسم الجماعة من الناس ركبانا أو مشاة . «٦» أي لم أكن سيد قبيلة بني عامر بالارث عن الآباء بل سدتهم بأفعالي .

«٧» رديا: مرخم ردينة: اسم امرأة . يقول: نحييها وان عز نيلها ويئسنا منها ، وكان الرجل اذا عرف بحب امرأة لا يزوجونه اياها ، واذا علم عليها عرفت الهجو والعار .

ردينة لو رأيت غداة جئنا   على أضماتنا وقد اختوينا (1)
فأرسلنا أبا عمرو ربيئاً   فقال: الا انعموا بالقوم عينا (2)
ودسوا فارساً منهم عشاء   فلم نغدر بفارسهم لدينا
فجاؤا عارضاً برداً وجئنا   كمثل السيل نركب وازعينا (3)
تنادوا: يالبهثة إذ رأونا   فقلنا: أحسني ضرباً جهينا (4)
سمعنا دعوة عن ظهر غيب   فجلنا جولة ثم ارعوينا (5)
فلما أن تواقفنا قليلا   أنخنا للكلاكل فارتمينا (6)
فلما لم ندع قوساً وسهماً   مشينا نحوهم ومشوا الينا
تلألؤ مزنة برقت لأخرى   اذا حجلوا بأسياف ردينا (7)
شددنا شدة فقتلت منهم   ثلاثة فتية وقتلت قينا (8)
وشدوا شدة أخرى فجروا   بأرجل مثلهم ورموا جوينا
وكان أخي جوين ذا حفاظ   وكان القتل للفتيان زينا (9)
فآبوا بالرماح مكسرات   وأبنا بالسيوف قد انحنينا (10)
فباتوا بالصعيد لهم أحاح   ولو خفت لنا الكلمى سرينا (11)

«١» الاضم: شدة الحقد. واختوينا منعنا أنفسنا من الطعام فخوت بطوننا. وكانوا يقاتلون على خلو المعدة كراهة أن يطعن أحدهم فى بطنه فيخرج منه الطعام. وجواب لو محذوف تقديره: لرأيت امراً عظيماً «٢» يقول: أرسلنا أبا عمرو طليعة يكشف لنا امر العدو فقال الا انعموا بالقوم عينا يعنى أن العدو فى قلة عدد «٣» العارض: السحاب المعترض فى الافق والبرد بكسر الراء الذى فيه البرد بفتحتين وهو حب الغمام «٤» بهثة وجهينة: من بطون العرب «٥» كففنا ورجعنا الى مصافنا «٦» ترامينا بالسهام. والكلاكل جمع كلكل وهو الصدر «٧» حجلوا: من الحجلان وهو تقارب الخطو كمشى المقيد، وردينا: من الرديان مشية فوق الحجلان «٨» اسم فارسهم «٩» الحفاظ: المحافظة والدفاع عن المحارم «١٠» آب: رجع «١١» لهم احاح: أى صوت من صدورهم يشبه الانين. والاحاح: العطش ايضاً. والكلمى: جمع كليم وهو الجريح

وقال الحصين بن الحمام المري :

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد ... لنفسي حياة مثل أن أتقدما

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما

نفلق هاماً [1] من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وقال بشامة بن الحزن [2] :

إنا محيوك يا سلمى فحيينا ... وإن سقيت كرام الناس فاسقينا

وإن دعوت الى جلى ومكرمة ... يوماً سراة كرام الناس فادعينا [3]

إنا بني نهشل لاندعي لأب ... عنه [4] ولا هو بالأبناء يشرينا [5]

إن تبتدر غاية يوماً لمكرمة ... تلق السوابق منا والمصلينا [6]

وليس يهلك منا سيد أبداً ... الا افتلينا غلاماً سيداً فينا [7]

إنا لنرخص يوم الروع أنفسنا ... ولو نسام بها في الأمن أغلينا

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا ... نأسو بأموالنا آثار أيدينا [8]

إني لمن معشر أفنى أوائلهم ... قيل الكماة: ألا أين المحامونا ؟ [9]

لو كان في الألف منا واحد فدعوا ... « من فارس؟» خالهم إياه يعنونا

«١» رؤوسا «٢» من الغريب أن أديباً مصرياً يعزو هذه الابيات الى المرقش الاكبر . واني أذكر أن أباتمام في ديوان الحماسة يعزوها الى بعض بني قيس بن ثعلبة، وشارحه التبريزي يقول : هو بشامة بن الحزن النهشلي . «٣» الجلى : الامر العظيم ، والسراة بالفتح جمع سري وهو السيد الشريف . «٤» أي لانتسب الى أب غير أبينا . «٥» أي انه راض بنا كما نحن راضون به «٦» ابتدر الغاية : استبق اليها ، والمصلي : الثاني من خيل السباق العشرة . «٧» الافتلاء : الافتطام «٨» بياض المفارق كناية عن نقاء العرض . والمراجل : القدور . ونأسو : نداوي «٩» الكماة : جمع كمي وهو اللابس السلاح المتغطي به .

إذا الكماة تنحوا أن يصيبهم حد الظبات [1] وصلناها بأيدينا

ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم مع البكاة على من مات يبكونا

ونركب الكره أحياناً فيفرجه عنا الحفاظ وأسياف تواتينا [2]

الوصف

قال عبيد بن الأبرص يصف السحاب ، وتنسب الى أوس بن حجر أيضاً :

يامن لبرق أبيت الليل أرقبه في عارض كبياض الصبح لماح [3]

دان مسف فويق الارض هيدبه يكاد يدفعه من قام بالراح [4]

فمن بنجوته كمن بمحفله والمستكن كمن يمشي بقرواح [5]

كأن ريقه لما علا شطباً أقراب أبلق ينفي الخيل رماح [6]

فالتج أعلاه ثم ارتج أسفله وضاق ذرعاً بحمل الماء منصاح [7]

كأنما بين أعلاه وأسفله ريط منشرة أو ضوء مصباح [8]

كأن فيه عشاراً جلة شرفاً شعثاً لهاميم قد همت بارشاح [9]

بحاً حناجرها هدلاً مشافرها تسيم أولادها في قرقر ضاح [10]

هبت جنوب بأولاه ومال به أعجاز مزن يسح الماء دلاح [11]

«١» جمع ظبة وهي حد السيف «٢» الحفاظ : المحافظة والدفاع عن المحارم . وتواتينا توافقنا «٣» العارض : السحاب المعترض في الافق ، واللماح : اللماع «٤» المسف : الشديد الدنو . والهيدب : ما تدلى من السحاب «٥» النجوة : ما ارتفع من الارض ، والمحفل : مستقر الماء . والمستكن : الذي في بيته . والقرواح : أرض مستوية ظاهرة «٦» ريقه : أوله . وشطب : جبل . والاقراب : جمع قرب بالضم وهو الخاصرة ، والابلق : يريد به فرسا مرتفع التحجيل الى الفخذين . وينفي يطرد . «٧» التج : صوت . ومنصاح : منشق بالماء «٨» الريط جمع ريطة كل ثوب لين رقيق . «٩» العشار : النوق الحوامل ، والجلة : المسان جمع مسنة ، والشرف : جمع شارف الناقة المسنة الهرمة . والشعث : المتلبدة الشعر ، واللهاميم الابل الغزيرة ، وأرشحت الناقة : قوي ولدها فمشى معها ويقال للفصيل راشح «١٠» المشافر جمع مشفر وهو للحيوان كالشفة للانسان . وتسيم أولادها : ترعاهم ، والقرقر : الارض المطمئنة والضاحي : البارز «١١» دلاح : كثير الماء وهو نعت للمزن .

فأصبح الروض والقيعان ممرعة من بين مرتفق فيه ومنطاح [1]

وقال جران العود يصف سهيلاً (وهو كوكب يطلع في آخر الليل فلا يمكث الا قليلا حتي يغيب وهو يطرف كما تطرف العين لقربه من الافق):

أراقب لوحاً من سهيل كأنه اذا مابدامن آخر الليل يطرف [2]
يعارض عن مجرى النجوم [3] وينتحي كما عارض الشول البعير المؤلف [4]

وقال المرار بن المنقذ العدوي يصف فرساً :

وبعيد قدره ذي عذر صلتان من بنات المنكدر [5]
سائل شمراخه ذي جبب ساطع السنبك في رسغ عجر [6]
قارح قد فر عنه جانب ورباع جانب لم يتغر [7]
فهو ورد اللون في ازبئراره وكميت اللون مالم يزبئر [8]
شندف أشدف ما ورعته فاذا طؤطئ طيار طمر [9]
قد بلوناه على علاته وعلى التيسير منه والضمر
فاذا هجناه يوماً بادناً فحضار كالضرام المستعر [10]

«١» ممرعة : مخصبة . والمرتفق : ماء راكد قد حبسه شئ يرتفق به ، والمنطاح : سائل لم يكن ما يحبسه فسال «٢» اللوح : الظهور «٣» أي انه لايقطع السماء كما تقطعها النجوم فيطلع عن يسار قبلة العراق ويرتفع قليلا ثم ينحط راجعا «٤» الشول : الابل التى جفت ألبانها وجفت ضروعها ، والمؤلف : الذى يضم الى الابل وليس منها فهو يعتزلها ويرعى فى ناحية منها ولا يختلط بها . فشبه سهيلا به لميله عن مجرى النجوم . «٥» ذو عذر : الفرس ذو الغرة . والصلتان المنصلت فى العدو . والمنكدر : فرس قديم . «٦» الشمراخ : الغرة . والجبب : ارتفاع البياض الى الركبتين . ويقال : فرس فيه تجبيب . والساطع : القوى . والسنبك : طرف الحافر . رسغ عجر : غليظ . «٧» القارح : التام الفحولة . وفر : فتش . ولم يتغر : لم تسقط سن من ثغره . «٨» الورد من الخيل : الاحمر الضارب الى الصفرة . والازبئرار : انتفاش الشعر . والكميت بالتصغير ماخالط حمرته سواد غير خالص . «٩» شندف أشدف : مشرف مائل الخد مرحاً ونشاطاً . وطمر : خفيف جيد العدو «١٠» الحضار : العدو الشديد .

وإذا نحن حمصناه بدنه [1] وعصرناه فعقب وحضر [2]
يولف الشد على الشد كما حفش الوابل غيث مسبكر [3]
صفة الثعلب أدنى جريه وإذا يركض يعفور أشر [4]
ونشاصي إذا تقرعه لم يكد يلجم إلا ماقسر [5]
وكأنا كلما نغدو به نبتغي الصيد بباز منكدر [6]
أو بمريخ على شريانة حشه الرامي بظهران حشر [7]
ذو مراح فإذا وقرته فذلول حسن الخلق يسر

الغزل والنسيب

قال عنترة العبسي :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل [8] مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وقال المرقش الأصغر :

رمتك ابنة البكري عن فرع ضالة وهن بها خوص يخلن نعائما [9]
أرتك بذات الضال منها معاصماً [10] وخداً أسيلا كالوذيلة ناعما [11]
صحا قلبه عنها على أن ذكرة إذا خطرت دارت به الأرض قائما
ألا حبذا وجه ترينا بياضه ومنسدلات كالمثاني فواحما [12]

---

(١) ازلنا الماء عنه (٢) العقب : الجري بعد الجري . والحضر بالضم ارتفاع الفرس في عدوه (٣) الحفش : الدفع والاخراج . (٤) اليعفور : حمار الوحش . والاشر المرح (٥) نشاصي : مرتفع الرأس (٦) منصب من عل (٧) المريخ : سهم مستطيل . والشريانة : شجرة تصنع منها القسي . والظهران : ريش قصير . وحشر : حديد . (٨) من النهل وهو أول الشرب . (٩) الضال : السدر البري . خوص : غائرات العيون من مشقة السفر . والنعائم : النعام (١٠) جمع معصم وهو موضع السوار من الساعد . (١١) أسيلا لينا طويلا . والوذيلة المرآة تتخذ من الفضة . (١٢) المنسدلات المراخاة : الشعور السود . المرسلة . والمثاني : الحبال المثناة المجدولة .

وإني لأستحيي «فطيمة» جائعاً　　خميصاً وأستحيي فطيمة طاعما

وإني لاستحييك والخرق[1] بيننا　　مخافة أن تلقي أخاً لي صارما

وإني وإن كلت قلوصي[2] لراجم[3]　　بها وبنفسي يا فطيم المراجما

أفاطم لو أن النساء ببلدة　　وأنت بأخرى لاتبعتك هائما

المديح

قال زهير بن أبي سلمى :

قد جعل المبتغون[4] الخير[5] في هرم　　والسائلون الى أبوابه طرقا

من يلق يوماً على علاته[6] هرماً　　يلق السماحة منه والندى خلقا

لو نال حي من الدنيا بمكرمة　　أفق السماء لنالت كفه الأفقا

وقال:

وفيهم مقامات حسان وجوههم　　وأندية ينتابها القول والفعل[7]

وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم　　مجالس قد يشفى بأحلامها[8] الجهل

على مكثريهم حق من[9] يعتريهم　　وعند المقلين السماحة والبذل

سعى بعدهم قوم لكي يدركوهم　　فلم يفعلوا ولم يليموا ولم يألوا[10]

فما كان من خير أتوه فإنما　　توارثه آباء آبائهم قبل

وهل ينبت الخطي[11] إلا وشيجه[12]　　وتغرس إلا في منابتها النخل

«١» الفلاة البعيدة المدى . «٢» الناقة الفتية «٣» مجازف «٤» الطالبون .

«٥» بمعنى هذه أومن

«٦» على قلة ماله «٧» المقامة : المجلس ، والجماعة من الناس .

والاندية جمع ناد وهو المجلس . وانتابه : اتاه مرة بعد أخرى «٨» الاحلام : العقول .

«٩» يغشاهم طالباً معروفهم «١٠» لم يقصروا في اللوم ولم يقصروا .

«١١» الرمح نسبة الى الخط جزيرة في البحرين ترفأ اليها السفن .

«١٢» شجر الرماح أو عروقه .

وقال أبو الطمحان القيني :

اذا قيل أي الناس خير قبيلة ... وأصبر يوماً لا توارى كواكبه
فان بني أوس بن لأم[1] أرومة ... علت فوق صعب لا ترام مراقبه[2]
أضاءت لهم أحسابهم و وجوههم ... دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه[3]

الرثاء

قالت جليلة بنت مرة ترثي زوجها كليب بن ربيعة الذي قتله أخوها جساس بن مرة :

يا ابنة الاقوام إن لمت فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي
فاذا أنت تبينت الذي ... يوجب اللوم فلومي واعذلي
إن تكن أخت امرئ ليمت على ... شفق منها عليه فافعلي[4]
جل عندي فعل جساس فيا ... حسرتي عما انجلى أو ينجلي
لو بعين فديت عيني سوى ... أختها فانفقأت لم أحفل
تحمل العين أذى العين كما ... تحمل الأم أذى ما تعتلي[5]
يا قتيلاً قوض الدهر به ... سقف بيتي جميعاً من عل
هدم البيت الذي استحدثته ... وانثنى في هدم بيتي الأول
ورماني قتله من كثب ... رمية المصمي به المستأصل[6]

«١» وفي رواية : لأم بن عمرو «٢» الارومة : الاصل ، والمراقب : جمع مرقبة وهي المكان المشرف العالي يقف عليه الحارس «٣» الجزع : خرز فيه بياض وسواد تشبه به العيون «٤» الشفق : الخوف ، وحرص الناصح على صلاح المنصوح «٥» اعتلت الام : نهضت بحملها . تقول : ان العين تحمل اذى أختها كما تحمل الام راضية أذى حملها أما هي فما عساها تحمل وقد أصيبت عيناها معا ! «٦» الكثب : القرب ، وأصمى الرمية اذا أنفذها .

يا نسائي دونكن اليوم فقد　　خصني الدهر برزء معضل [1]

خصني قتل كليب بلظى　　من ورائي ولظى مستقبلي

ليس من يبكي ليوميه كمن　　إنما يبكي ليوم ينجلي

يشتفي المدرك بالثأر وفي　　دركي بالثأر ثكل المثكل

ليته كان دمي فاحتلبوا　　درراً منه دمي من أكحلي [2]

فأنا قاتلة مقتولة　　ولعل الله أن يرتاح لي !

وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

ماذا أؤمل بعد آل محرق [3]　　تركوا منازلهم ، وبعد إياد [4]

أهل الخورنق والسدير [5] وبارق [6]　　والقصر ذي الشرفات من سنداد [7]

نزلوا بأنقرة [8] يسيل عليهم　　ماء الفرات يجيء من أطواد [9]

جرت الرياح على محل ديارهم　　فكأنهم كانوا على ميعاد

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة　　في ظل ملك ثابت الاوتاد

فاذا النعيم وكل ما يلهى به　　يوماً يصير الى بلى ونفاد

وقال الربيع بن زياد في مالك بن زهير العبسي :

إني أرقت فلم أغمض حار　　من سيء النبأ الجليل الساري [10]

من مثله تمسي النساء حواسراً　　وتقوم معولة مع الاسحار [11]

«١» الرزء : المصيبة ، والمعضل : الشديد المستغلق «٢» الاكحل : عرق فى الذراع اذا قطع لا يرقأ «٣» هم آل محرق الاكبر وهو امرؤ القيس بن عدى اللخمي جد المناذرة ملوك الحيرة . «٤» قبيلة من معد «٥» الخورنق والسدير : قصران للمناذرة بالعراق . وقيل السدير نهر بناحية الحيرة «٦» ماء بين البصرة والقادسية «٨» منازل اياد وكانت اسفل سواد الكوفة «٨» موضع بنواحي الحيرة «٩» جبال .

«١٠» أرقت : سهرت ، وحار : مرخم حارث «١١» الحواسر : الكاشفات الوجوه .

أفبعد مقتل مالك بن زهير ... ترجو النسآء عواقب الاطهار [1]

ما إن أرى في قتله لذوي النهى ... الا المطي تشد بالاكوار [2]

ومساعراً صدأ الحديد عليهم ... فكأنما طلي الوجوه بقار [3]

من كان مسروراً بمقتل مالك ... فليأت نسوتنا بوجه نهار [4]

يجد النسآء حواسراً يندبنه ... يلطمن أوجههن بالأسحار

قد كن يخبأن الوجوه تستراً ... فاليوم حين برزن للنظار

يضربن حر وجوههن [5] على فتى ... عف الشمائل طيب الأخبار [6]

الهجاء

قال النابغة الذبياني يهجو زرعة بن عمرو وقد بلغه أنه يتوعده :

نبئت زرعة والسفاهة كاسمها ... يهدي الي غرآئب الأشعار

حلفت يازرع بن عمرو إنني ... مما يشق على العدو ضراري

أرأيت يوم عكاظ حين لقيتني ... تحت العجاج فما شققت غباري

إنا اقتسمنا خطتينا بيننا : ... فحملت برة [7] واحتملت فجار [8]

وقال خارجة بن ضرار المري :

أخالد هلا إذ سفهت عشيرة ... كففت لسان السوء أن يتدعرا [9]

«١» عواقب الاطهار : كناية عن عدم قرب الرجال اليهن . وكان من عادة العرب انهم لا يمسون النساء ولا يشربون الخمر ولا يتلذذون بلذيذ قبل أن يأخذوا بالثأر «٢» جمع كور وهو الرحل والشاعر يحض بهذا البيت على الاخذ بالثأر «٣» المساعر: جمع مسعر وهو من يوقد الحرب ، والحديد : الدروع ، والقار : الزفت «٤» وجه النهار : أوله «٥» حر الوجه : ما استقبلك منه «٦» فى هذه الابيات الاربعة بيان لعادة نساء العرب فى المناحة ومواقف الاحزان من بروزهن فيها سوافر الوجوه حواسر الرؤوس ، وكذلك كن يفعلن اذا دارت دوائر الحرب وارتفعن من وراء ذلك السباء وعار الاسار

«٧» علم البر لاينصرف «٨» علم الفجور «٩» من الدعارة وهي الخبث.

وهل كنت الا حوتكياً ألاثه　　بنو عمه حقو بغي وتجبرا [1]
فانك واستبضاعك الشعر نحونا　　كمستبضع تمراً الى أرض خيبرا [2]

العتاب

قال أمية بن أبي الصلت [3] يعاتب ابناً له عقه :

غذوتك مولوداً وعلتك يافعاً　　تعل بما أدني اليك وتنهل [4]
اذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت　　لشكواك إلا ساهراً أتململ [5]
كأني أنا المطروق دونك بالذي　　طرقت به دوني فعيني تهمل [6]
تخاف الردى نفسي عليك وانها　　لتعلم أن الموت حتم مؤجل
فلما بلغت السن والغاية التي　　اليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي منك جبهاً وغلظة　　كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي　　فعلت كما الجار المجاور يفعل

الاعتذار

المتفرد بالاجادة فيه من بين الجاهليين الشاعر الفحل المشهور النابغة الذبياني زياد بن معاوية . ونحن نجتزئ بما سنوردهُ من نماذج هذا الباب في ترجمته وترجمة الأعشى — عن ايراد شيء ما في هذا الموضع تفصياً من الاعادة والتكرير .

---

(1) الحوتكي القصير: الضاوي والشديد الاكل ، والاثه : أمسكه اوقام بأمره .

(2) أستبضع الشيء : جعله بضاعة ، وهذا مثل ؛ وخص خيبر بالذكر لكثرة نخلها .

(3) وتروى هذه الابيات لابن عبد الاعلى ؛ وقيل هي لابي العباس الاعمى . وقال ابو هلال : اوردها ابو عبيدة في أخبار العققة والبررة (4) علتك : قمت بشأنك ، واليافع : المقتبل الشباب . وتعل : من العلل وهو الشرب الثاني ؛ وتنهل : من النهل وهو الشرب الاول

(5) نابتك : اصابتك ؛ أتململ : أبيت قلقاً متقلباً على مثل الملة .

(6) المطروق : المصاب في ليله ، وتهمل : تسيل .

الفصل الرابع

الشعراء

طبقات الشعراء، وفساد مناهج القدماء في الموازنة والتفاضل — أشعر شعراء الجاهلية — المعلقات ورأي مستشرق في اختيارها — المعلقات وآراء العلماء في تعليقها وعدمه — تراجم أصحابها: امرئ القيس — النابغة — زهير — الأعشى — عنترة — طرفة — عمرو بن كلثوم — الحارث بن حلزة — عبيد بن الابرص — لبيد بن ربيعة

طبقات الشعراء: ذهب الشعراء قديماً وحديثاً بسابقة الذكر والشهرة، وشغل بهم الناس كثيراً، فكان طبيعياً أن يختلفوا فيهم، و ينشأ في التفاضل بينهم الجدل والنزاع لاختلاف الشعراء في المنازع والمذاهب، وتباين الناس في فهم هذه المنازع و إدراك هذه المذاهب. وكان طبيعياً أيضاً أن يفكر الناس في وضع أصول تحدد بها درجات هؤلاء الشعراء وتعين بها منازلهم في البلاغة والفن . . . فعمدوا الى تقسيمهم أولاً باعتبار العصور الى أربع طبقات:

(١) جاهليون: وهم من عاشوا قبل ظهور الاسلام كامرئ القيس، وطرفة، وعبيد. أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً مذكوراً كلبيد العامري، وأمية بن أبي الصلت.

(٢) ومخضرمون: وهم الذين اشتهروا بقول الشعر جاهلية و إسلاماً كحسان ابن ثابت، والحطيئة، والنابغة الجعدي، والخنساء.

(٣) وإسلاميون: وهم الناشئون في الاسلام ولم يدركوا الجاهلية مسلمين كانوا أم غير مسلمين كالفرزدق، وجرير، والأخطل النصراني، والراعي.

(٤) ومولدون أو محدثون: وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان، فأصلحوها بالمدارسة والمران، وذلك من أوائل العصر العباسي الى عهدنا هذا.

ثم نظروا الى جودة الشعر ومبلغ إجادة الشاعر فيه، فقسموهم الى أربع طبقات أيضاً مازوا بينها بصفات ولكنها اعتبارية مبهمة لاتحدد بين طبقة وطبقة تحديداً يقره العلم أو يجمع عليه الناس، بل تزيد في العماء عماء، وتثير في الآراء الفوضوية اختلافاً أقوى وأشد. فقالوا: الشعراء أربعة: —

(١) شاعر خنذيذ: وهو من يجمع الى اجادة نظم الشعر رواية الجيد من شعر غيره.

(٢) وشاعر مفلق: وهو الذي لارواية له ولكنه مجيد كالخنذيذ.

(٣) و «شاعر» فقط لاصفة مميزة له، يقول وسطاً وليس بمفلق ولاخنذيذ.

(٤) وشعرور: وهو من يتشاعر وليس بشاعر.

ثم إنهم استناداً الى هذا التقسيم الاعتباري المبهم أرادوا أن يعينوا طبقة كل شاعر من شعراء العصور العربية، فقسموا شعراء الجاهلية باعتبار الاجادة الى طبقات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال ثلاثاً:

الطبقة الأولى: أمرؤ القيس، والنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى.

والطبقة الثانية: أعشى قيس، ولبيد العامري، وطرفة بن العبد.

والطبقة الثالثة: عنترة العبسي، ودريد بن الصمة، والمرقش الأكبر، وعروة بن الورد.

على أنهم لم يتفقوا في أمر هؤلاء. ففي القوم من يفضل بعض شعراء الطبقة الثانية على بعض شعراء الطبقة الأولى، وفيهم من يقدم بعض أهل

الطبقة الأولى على بعضهم ، وفيهم من يضيف الى الطبقة الثالثة غير من ذكرنا وهكذا دواليك ، وذلك كما قدمنا أمر طبيعي لاختلاف الأذواق والأهواء طبيعة ، فلم يكن اذن في مقدور للقدماء حينما وضعوا هذه التقاسيم ، ولا في مقدور من تابعوهم عليها تقليداً أن يضعوا حدوداً واضحة تبين منازل الشعراء في البلاغة ، وتحسم هذا الخلاف القائم طوال الأزمان حول التفاضل بينهم ، وإذن فلا فائدة من تلك الاعتبارات مادام هم أنفسهم لا يستطيعون أن يتفقوا عليها ، وما دام الجمال والبيان لا ينتهيان الى حد ، والأذواق والأهواء تختلف باختلاف العلوم والمدارك .

ومن الخطل والسخف إطلاق القول في أي الشعراء أشعر الناس أو أشعر أهل زمانه لأن لكل شاعر مزية تفضله على سواه كامرىء القيس مثلاً فانه يمتاز على النابغة بدقة الوصف ، والنابغة الذبياني يمتاز عليه بحسن الاعتذار فليس لأحد أن يقول من غير إحتياط : امرؤ القيس أشعر من النابغة ولا النابغة أشعر من امرئ القيس ، ولكن له أن يفضل أحدهما على الآخر بما امتاز به . له أن يقول أمرؤ القيس أشعر من النابغة في الوصف ، والنابغة أشعر من امرئ القيس في الاعتذار ، وهلم جرا .

* * *

أشهر شعراء الجاهلية : ويستدل من تقسيم القوم الشعراء الى طبقات أن أصحاب المعلقات هم أشعر الشعراء الجاهليين عندهم على اختلافهم في أيهم أشعر ، وهم سبعة عند الأكثرين : أمرؤ القيس ، وطرفة بن العبد ، و زهير بن أبي سلمى ، ولبيد بن ربيعة ، وعمرو بن كلثوم ، وعنترة بن شداد ، والحارث ابن حلزة . وعند بعضهم ثمانية و يضيف اليهم النابغة الذبياني ، وعند آخرين عشرة لا يضيفون اليهم أعشى قيس ، وعبيد بن الأبرص .

المعلقات وسبب اختيارها: هؤلاء الشعراء العشرة هم الذين ذهبوا بالشهرة وتمتعوا بالصيت الطائر، وانصرف الناس قديماً وحديثاً الى العناية برواية قصائدهم ونقدها وضبطها وتفسيرها، ويعلل المستشرق الكبير تيودور نولدكه (*Theodor Noeldeke*) سر انتخابهم هذه القصائد بأنه «يرجع الى سعة الشهرة التي تمتع بها أمثال امرئ القيس، وزهير، وطرفة، كما أن قصيدة مفردة لشاعر مثل عمرو بن كلثوم نالت الشهرة لأسباب خاصة أدت الى سرعة انتشارها».

ثم قال: «ولو طلب الينا نحن النقاد الاوربيين أن نختار من الشعر أفضله فلعلنا لانختار شيئاً مما اختاره قدماء العرب، لأن أذواقنا تخالف أذواقهم، ومثالنا العليا في الفن مستمدة من مصادر تخالف مصادرهم، ولكننا لانزال نحترم اختيارهم ونوافق عليه لأنهم كانوا أدرى منا بموضوع القصائد وقوالب اللغة التي أفرغت فيها فهؤلاء السابقون يدركون من جمال معانيها ومحاسنها اللفظية مالاندركه نحن بتاتاً أو ما نحتاج في تقديره الى مجهود كبير».

* * *

آراء العلماء في التعليق وعدمه: ويزعم جمهور المؤرخين أن العرب كتبوا هذه القصائد بماء الذهب على القباطي المدرجة ثم علقوها على الكعبة كلفاً بها وتفضيلا لها [1]، فسميت بالمعلقات والمذهبات لذلك. ومن العلماء من أنكر تعليقها قائلين إن ذلك أمر لم تعرفه الرواة، وأنها إنما سميت معلقات لنفاستها وعلوقها بالأذهان، أو لأن الملك كان اذا أعجبته قصيدة قال: علقوا لنا هذه،

(١) أشهر أصحاب هذا الرأي ابن عبد ربه وابن رشيق وابن خلدون. وحفني ناصف الاديب المصري مؤلف كتاب «حياة اللغة العربية». ومن الغريب أن هذا يزعم ـ ولم يدل بالدليل ـ ان انكار تعليقها تحكم يأباه النقل ولا يقبله العقل، وستعرف أن هذا تحكم منه يأباه البرهان وتدمغه الحجة ... فالنقل الذي يزعمه مدخول، والعقل الذي يستشهد به امام البرهان مهزوم مخذول

أي اكتبوها لتبقى محفوظة في خزانته . وأقدم من عرفناه من المنكرين أبو جعفر محمد بن أحمد النحاس النحوي من رجال القرن الرابع الهجري ، وله من العلماء المتأخرين أشياع أشهرهم نولدكي الألماني *Theodor Noeldeke* ، وكليمان هوار الفرنسي Cl, Huart ، والعلامة المغربي [1] . وقد أدلى هذا على رأيه بثلاث حجج . الأولى : أن الملك في الجاهلية كان إذا أعجبته قصيدة قال علقوا لنا هذه . . . الخ . الثانية : أن قريشاً كانوا قوماً حمساً أي شديدي الحماسة والتعصب لدينهم ، وناهيك بمنزلة الكعبة وقد استهانوا في نفوسهم ، فيبعد أن يسمحوا بتعليق شعر فيه تصريح بالفحش والعهر أحياناً — على كعبتهم المقدسة . الثالثة : أن كتاب السيرة النبوية ذكروا أن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة ، وحطموا الاصنام التي فيها ، وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى إنهم كانوا يحملون الماء بترسهم ويصبونه على جدرانها لمحو الصور المنقوشة عليها بالأصباغ ، ولم يذكروا أن المعلقات كانت مما أزيل أو أنزل عن الجدران . وأزيد عليه حجة رابعة وردت استطراداً في بحث للأستاذ الرافعي [2] ، ولم أرها في كلام غيره ، وهي أن أمر تعليقها شيء افتراه هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ صاحب كتاب مثالب العرب والكتب الكثيرة في الأنساب وأخبار الأوائل والأمم البائدة والأحاديث والأسمار ، وهو وأبوه متهمان بالكذب وتعمد الزور . وقد زيفهما المحققون ، وتركوا أحاديثهما لما ظهر من كذبهما [3] .

واليك تراجم أصحاب هذه المعلقات : —

«١» الشيخ عبد القادر عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ، ومؤلف الاشتقاق والتعريب ، وكتاب البينات ، والاخلاق والواجبات ، وصاحب الابحاث اللغوية الممتعة .

«٢» مصطفى صادق من أمراء البيان العربي وأئمة الادب بمصر لهذا العهد . له في الانشاء أسلوب منفرد به لا يدانيه فيه مدان من كتاب العصر «٣» انظر ترجمتهما في كتابنا (العرب والشعوبية أو نقض كتاب المثالب) .

١ — امرؤ القيس

هو أبو الحارث حندج بن حجر الكندي، وامرؤ القيس لقب له. كان أبوه سليل الملوك من كندة بطن من كهلان، وآخر ملك على بني أسد من المضرية. وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين. فنشأ امرؤ القيس متقلباً في أعطاف النعيم والسيادة، وشب يقول الشعر، وفي نفسه صبوة الى اللهو، ومغازلة النساء، ومعاقرة الخمرة، فوعظه أبوه بأن يأخذ نفسه بما يأخذ به أبناء الملوك أنفسهم من الاعتداد للملك، فلم يرعو عن غوايته وباطله، فطرده، فخرج في أخلاط من شذاذ القبائل يرتادون الرياض والغدر ومواطن الصيد، فيذبحون ويشربون ويلعبون وتغنيهم القيان... ولم تزل تلك حاله حتى بلغه — وهو بدمون من أرض اليمن — نبأ ثوران بني أسد على أبيه وقتلهم إياه لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم، فآلى — على مذهب العرب — أن يكف عن غوايته، ولا يأكل لحماً، ولا يشرب خمراً، ولا يدهن، حتى يثأر لنفسه! فارتحل يستجيش القبائل ويستنجدهم على بني أسد، فأجابته بكر وتغلب، فأقبل بهم حتى انتهى الى بني أسد، فناجزهم حتى كثرت القتلى والجرحى فيهم وانهزموا، فلم يشف ذلك من غلته فأراد ممن معه أن يتبعوهم، فأبوا وقالوا: «لقد أصبت ثأرك» وانصرفوا عنه. فلجأ الى مرثد الخير بن ذي جدن من أقيال حمير — وكانت بينهما قرابة — فأمده، واستأجر من القبائل رجالاً فسار بهم الى بني أسد وظفر بهم. وكانت في نفس المنذر بن ماء السماء من ملوك الحيرة موجدة على آل امرئ القيس [1] فاغتنم هذه الفرصة ووجه جيشاً في طلبه، وأمده كسرى

(١) وذلك فيما يزعمون أن خلافاً شجر بين كسرى قباذ أبي كسرى أنو شروان وبين ابن ماء السماء عامله على الحيرة ونواحيها أدى الى طرده من مملكته لامتناعه عن المزدكية واقامة الحارث جد امرئ القيس مقامه على ملك الحيرة اذ رضي بها ابراحم المناذرة ويقتعد منازلهم... فكان ذلك منشأ الشحناء بين المناذرة وآل امرئ القيس.

أنو شروان بن قباذ بجيش من الأساورة ، فتفرقت جموع امرئ القيس ، ونجا بنفسه في عصبة من رهطه : ينتقل من قبيلة الى قبيلة يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه ، فاستجار بأحد بني فزارة فأجاره ، ثم دله على السموأل وأصحبه رجلاً اليه ، فأكرمه السموأل ، و بدا لامرئ القيس أن يستنصر « جستنيان » قيصر الروم ، فكتب السموأل كتاباً الى الحارث بن أبي شمر الغساني في الشام ليوصله الى قيصر الروم ، فوفق بوساطته أن يبلغ بلاط جستنيان ، فأكرم جستنيان وفادته ، وطمع أن يكون له قوة في بلاد العرب تضعف نفوذ الأكاسرة. فجهزه بجيش كثيف ، وفيه جماعة من أبناء الملوك ، ولكنه لم يكد يفصل به عن بلاد الروم حتى بدا للقيصر فاسترجعه ، لأسباب لم يتبينها المؤرخون على وجهها الصحيح [1] . وفي كل حال إنه قفل ولم ينل أربه ، فنزلت به في طريقه علة جلدية تقرح منها جسمه وتساقط لحمه [2] فمات منها ودفن بأنقرة [3] . ويقول بعض المعاصرين [4] — والعهدة عليه [5] — « إنه رأى في كتاب قديم مخطوط أن قيصر لما بلغته وفاة امرئ القيس أمر بأن ينحت له تمثال و ينصب على ضريحه ، ففعلوا ، وكان تمثاله هناك الى أيام المأمون وقد شاهده هذا الخليفة في طريقه الى بلاد الروم ليغزو الصائفة » .

«١» ويقول المؤرخ اليوناني نونوس *Nonnose* ان قيصر قلده حكومة فلسطين .

«٢» وأما خبر الحلة المسمومة المشهور فهو عندنا بالاسطورة الخيالية أشبه.

«٣» وقد ذكر بعض الادباء الذين التقت بهم عصا التسيار في أنقرة أن على قمة جبل بمقربة من أنقرة قبة قد تداعت اركانها وفيها ضريح امرىء القيس منقوش عليه هذان البيتان :

أجارتنا ان المزار قريب ... واني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا انا غريبان ههنا ... وكل غريب للغريب نسيب

والاتراك يسمون هذا الضريح بملك العرب . أنظر مجلة الزهرة م٢ ص٥١ ومجلة المجمع العلمي العربي م ٤ ص ٢٢٧ الى ٢٣٢

«٤» لويس شيخو «٥» اذ لم يذكر اسم الكتاب الذي رأى فيه الخبر ولا عزاه الى أحد .

وقد عرفت أن هذا الشاعر يماني النسب ، نجـدي الدار والمنشأ ، ترعرع بين رعية أبيه بني أسد في صميم العرب . فسمع الشعر، ومال اليه، فروى شعر أبي دواد الايادي أحد البارعين في وصف الخيل ،وشعر خاله المهلهل الشاعر المشهور. وكان قوي الشاعرية ، فقال الشعر حدثاً و بز صاغته في اختراعه وتوليده، وجمال تعبيره ،وحسن تصويره ، حتى عد رأس الطبقة الأولى عند الأكثرين، واتسعت الأقوال بفضله اتساعاً لم يفز غيره بمثله. على أنه كان مقلاً لا يصححون له الا نيفاً وعشرين شعراً بين طويل وقطعة[1] .ويمتاز بتجويد القصص الغرامي، وقرب المأخذ،وحسن الاستعارة والتشبيه ، ودقة الوصف للخيل والليل والنساء والابل،..

ومن بديع تصويره الذي يعد من مخترعاته قوله :

سموت اليها بعـد ما نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال [2]

وقوله :

وقد أغتدي ، والطير في وكناتها ، بمنجرد « قيد الأوابد » هيكل [3]

وقوله :

كأن «عيون الوحش» حول خبائنا وأرحلنا «الجزع الذي لم يثقب» [4]

ومن خير ما أثر عنه معلقته التي سارت مسير المثل. نظمها في ابنة عمه عنيزة بنت شرحبيل، واستطرد فيها الى وصف الأطلال، والليل، والفرس، والبرق، والمطر، والمفاوز: باسلوب ساحر، وتصوير بارع، ولفظ رشيق، وديباجة قوية ،

«١» هكذا يقول ابن رشيق . وقد طبع ديوانه لاول مرة في باريس سنة ١٨٣٧م وترجم الى اللاتينية. ثم في مصر مرة بشرح البطليوسي وأخرى بشرح الوزير أبي بكر بن عاصم.

«٢» سموت : علوت ونهضت . والحباب الفقاقيع تطفو على الماء . والحال : الظهر .

«٣» سيأتي تفسيره «٤» الجزع : خرز فيه سواد وبياض .

ويقول نيكلسون (*Nicholson*) عن إعجاب النقاد الاوربيين بها « إنهم قد تسابقوا الى التفنن بجميل تعبيرها ، والتحدث بفاخر تصويرها، وحلاوة تدفق أبياتها ، وسحر تمثيلها المنوع ، ومما زاد إعجابهم بها ذلك الشعور بافراح الحياة وتمجيد الشباب الذى أوحى الى الشاعر معانيها الخلابة ، ومبانيها البالغة أعلى درجات الفصاحة [1] ». وقد عرض لها أبو بكر الباقلاني في اعجاز القرآن بالنقد البياني واللغوي فأمتع وأبدع لولا أنه أسرف ولم يرد أن يبقي منها على شيء .

ومطلع هذه المعلقة قوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل [2]

ومنها قوله يصف ما جرى له في « دارة جلجل » :

ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجل [3]
ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة   فقالت: لك الويلات إنك مرجلي [4]
تقول ـ وقد مال الغبيط بنا معاً ـ: عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل [5]
فقلت لها : سيري وأرخي زمامه   ولا تحرميني من جناك المعلل [6]
أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل   وان كنت قد أزمعت صرمي فأجملي [7]
أغرك مني أن حبك قاتلي   وأنك مهما تأمري القلب يفعل؟

(1) A. *Literary History of the Arabs, Page 105*.

«٢» سقط اللوى والدخول وحومل : أسماء مواضع «٣» موضع فيه غدير ماء

«٤» الخدر ستر يمد للجارية فى ناحية البيت . وأراد به هنا الهودج . والويل : شدة العذاب . وأرجله : أحوجه أن يمشي راجلا .

«٥» الغبيط : القتب الذى يوضع عليه الهودج. وعقرت بعيرى : أدبرت ظهره «٦» الجنى اسم لما يجتنى من الشجر ، وأراد به هنا القبل التى يسترقها منها . والمعلل : المكرر من عله اذا كرر سقيه . «٧» أزمعت : عزمت ، والصرم : القطيعة ، والاجمال : الاحسان والاعتدال .

وما ذرفت عيناك الا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل [1]

ومنها قوله في وصف الليل :

وليل كموج البحر[2] أرخى سدوله[3] علي بأنواع الهموم ليبتلي [4]

فقلت له : لما تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل [5]

الا أيها الليل الطويل الا انجل بصبح وما الاصباح منك بأمثل [6]

فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيذبل [7]

كأن الثريا علقت في مصامها بأمراس كتان الى صم جندل [8]

ومنها يصف فرسه :

وقد أغتدي ،والطير في وكناتها، بمنجرد قيد الأوابد هيكل [9]

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل [10]

درير كخذروف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل [11]

«١» ذرفت العين : دمعت . والمراد بالسهمين عيناها . والاعشار: القطع والكسور . والمقتل: المذلل غاية التذليل «٢» فى هوله ونكارة أمره «٣» ستوره ، ويريد ظلماته «٤» الابتلاء الاختبار . «٥» تمطى : امتد وطال ، والصلب : الظهر . وأردف : أتبع ، والاعجاز : المآخير ، وناء : مقلوب نأى بمعنى بعد، والكلاكل : الصدر ، والباء فيه للتعدية «٦» الانجلاء الانكشاف ،وأمثل : أفضل «٧» مغار الفتل : محكمه ، ويذبل : اسم جبل بنجد «٨» الثريا : كواكب سبعة فى عنق الثور ، ومصامها : مكانها ، والامراس : الحبال ، والصم : الصلاب، والجندل :الحجارة الصلبة، واضافة الصم الى الجندل من اضافة الصفة الى الموصوف «٩» أغتدى :أخرج وقت الغدوة ، وهو ما بين طلوع الفجر والشمس، والوكنات :الاعشاش، والمنجرد : القصير شعر الجسم أو الماضى فى السير ، والاوابد : الوحوش ، أراد أنه لسرعة ادراكه الصيد كالقيد لها لانها لايمكنها أن تفلت منه ، والهيكل : العظيم الجرم «١٠» الكر: العطف والهجوم ، والفر : الهرب . وفرس مكر مفر (بكسر الميم فيهما وفتح الكاف والفاء) جيدهما. والجلمود :الحجر العظيم «١١» درير : سريع الجرى ، والخذروف : شئ يدوره الصبى فى يده فيسمع له دوى ، وأمره : فتله ودوره .

له أيطلا ظبي وساقا نعامة   وإرخاء سرحان وتقريب تتفل [1]

ومن شعره السائر قوله مفتخراً ببعد همته، واصفاً لما يحاوله :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة   كفاني-ولم أطلب-[2] قليل من المال

ولكنما أسعى لمجـد مؤثل [3]   وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي

وهذا معنى جليل صادر من قلب كبير، وأمير طموح يحاول مجداً ذهبت به عوادي الزمن أو يموت في سبيله فيعذر. وبضده قوله :

اذا ما لم تكن أبل فمعزى   كأن قرون جلتها العصي

فتملأ بيتنا أقطاً وسمناً   وحسبك من غنى شبع وري [4]

والمرجح أن هذا مما نحل إياه. وهو أشبه بقول أعرابي متلفع بشملته لا تجاوز همته، ما حوته خيمته، كما قال أحمد بن عبيد الله بن عمار في وصفه [5]. واسمع امرأ القيس الأمير الطموح ماذا يقول في صبره على احتمال المصائب في سبيل الملك، من قصيدة له يذكر فيها رحلته الى قيصر الروم، ويفخر ببعد همته، وقوة إرادته على مثال البيتين السابقين :

سما لك شوق بعد ما كان أقصرا [6]   وحلت سليمى بطن ظبي فعرعرا [7]

فدعها وسل الهم عنها بجسرة   ذمول اذا صام النهار وهجرا [8]

عليها فتى لم تحمل الأرض مثله   أبر بميثاق وأوفى وأصبرا

«١» الايطل : الخاصرة ، والارخاء : نوع من السير السريع، والسرحان : الذئب، والتقريب : نوع من السير ، والتتفل : الثعلب أو جروه .

«٢» منعول له محذوف تقديره «الملك» أو «المجد» بدلالة البيت الثاني ولا حذف على رواية « ولم أطلب » «٣» مؤصل «٤» الاقط لبن مجفف يابس مستحجر يطبخ به «٥» الموشح ص ٢٣ «٦» جاءك الشوق بعدما كان تركك «٧» ظبي مكان في أرض كلب : وعرعر : مكان في نجد «٨» الجسرة : الناقة الماضية في السير ، والذمول : السريعة، وصام النهار وهجر : اشتد حره .

اذا قلت هذا صاحب قد رضيته ... وقرت به العينان بدلت آخرا

كذلك جدي[1] لا أصاحب صاحباً ... من الناس الا خانني وتغيرا

تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت ... على جمل بنا الركاب وأعفرا[2]

ولما بدا حوران والآل دونه ... نظرت فلم تنظر بعينيك منظرا[3]

تقطع أسباب اللبانات والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا[4]

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لاحقان بقيصرا[5]

فقلت له : لاتبك عينك إنما ... نحاول ملكاً أو نموت فنعذرا

٢ــ النابغة الذبياني

هو زياد بن معاوية من بني ذبيان من قيس . ولقب بالنابغة لأنه راض جامح الشعر صغيراً، ثم امتنع عليه حتى احتنك، ففجأ الناس بشعر قبض به على صولجان الزعامة من بين الشعراء ، وكان له منه مادة لاتنقطع فشبهوه بالماء النابغ. وهو سري في الذوآبة من ذبيان ، ولكن تكسبه بشعره غض من شرفه. على أنه لم يقصد الا الملوك في الاغلب ، ولعلهم اعتبروا ذلك غضاضة لمقامه في عشيرته وغناه عنهم بسمو نسبه وشرف أرومته . وكان يفد على المناذرة في الحيرة ، وعلى الغساسنة في الشام ، ويقرض الشعر في مديحهم ،فيكرمونه ويحسنون وفادته. ثم استخلصه النعمان بن المنذر لنفسه ، وجعله من ندمائه،

«١» حظى «٢» جل وأعفر : موضوعان في الشام .

«٣» حوران : كورة من اعمال الشام، والآل : مايبدو وقت الضحى كالماء بين السماء والأرض . واما السراب فهو ما يكون نصف النهار كانه ماء جار «٤» اللبانة : الحاجة ، وحماة : مدينة مشهورة من مدن الشام، وشيزر: بلدة من بلاد الشام كانت فيها قلعة حصينة، قرب المعرة ، بينها وبين حماة مسيرة يوم «٥» الدرب: باب السكة الواسع، وكل مدخل الى بلاد الروم.

وأسبغ نعمته عليه حتى صار لا يأكل إلا في آنية الذهب والفضة . ثم سخط عليه وهم بقتله ، فأحس وهرب الى الشام لآئذاً بالغساسنة ! ومصدر هذا السخط فيما يزعمون أن مقرباً عند النعمان كان له سيف قاطع فشوق النابغة النعمان اليه حتى حمله على أخذه منه . فلم ذاك أن الذي شوقه اليه إنما هو النابغة ، فاضطغنها عليه فوشى به الى النعمان ... وفي زعم آخر أن المنخل اليشكري الشاعر من بطانة النعمان كان يحسد النابغة على مقامه فأغراه أن يصف المتجردة زوج النعمان ايقاعاً به ، فوصفها وأسرف في الوصف حتى ذكر مايستقبح ذكره فدرج بينهما بالسعاية متذرعاً اليها بهذه القصيدة ! ومهما يكن فان الأصل في سخط النعمان على شاعره ونديمه وشاية قام بها عدو للنابغة نكاية به . ولكن ما هي هذه الوشاية؟ أما هاتان الروايتان فلست بطمئن الى واحدة منهما ، وأرى مع مؤلف في الأدب الجاهلي أن النابغة كان متصلاً سراً بالغساسنة خصوم المناذرة السياسيين ومنافسيهم على الملك يمدحهم ويمهد لهم بالدعاية السرية في بلاد المناذرة طمعاً في جوائزهم ، فعرف ذلك منه اليشكري أو صاحب السيف أو غيرهما ممن يحسده ويريد أن يتقرب من النعمان بالوشاية ، فسعى به اليه ، فكان ذلك مصدر سخطه عليه ، وهمه بقتله ، وفرار النابغة الى الغساسنة في الشام لواذاً . وإن في التجائه الى الغساسنة مايؤيد هذا الرأي ، بل إنا لنجد حجة ما نذهب اليه في بعض قصائده التي تتصل بها مما رمي به من الخيانة . فهو يعتذر للنعمان بأنه لم يتصل بالغساسنة ولم يمدحهم الا لأنهم قد أحسنوا اليه قديماً وقربوه منهم وحكموه في أموالهم فشكر لهم صنيعهم ، والصنائع في الرجال قروض . وهو يرى أن هذا الشكر لايصلح أن يكون ذنباً يعاقب عليه ، ويقيم عليه الحجة بأنه يصطنع قوماً ويقربهم منه ويحسن اليهم فيشكرون

له ذلك فلا يرى هذا الشكر ذنباً. وظاهر أنه يعرض هنا من طرف خفي بصنيع النعمان في خذل الناس عن الغسانيين. وقد استلات تلكم الحجج التي أقامها بأسلوبه الخلاب وبيانه الناصع سخيمته حتى جعلته يثق بأن اتصاله بالغساسنة ومدحه إياهم لم يكن منه مما لأثم عليه، وانما هو إقرار بجميل الصنيع ليس غير، فسمح له بالعودة اليه. فعادمو فوز الكرامة، ومازال متفيأ ظلال نعمته حتى اخترم، وقد عمر طويلا، في السنة التي قتل فيها النعمان. وذلك قبل الهجرة بنحو ثمانية عشر عاماً [1] .

***

كان للنابغة منزلة عظيمة في عالم الشعر، فقد انتخبه الشعرآء حكماً لهم في سوق عكاظ يضربون له في الموسم قبةً من أدم فيأتون اليه يحتكمون في خصوما تهم الأدبية فيقضي بينهم ويفضل هذا على ذاك، فيخضعون لحكمه راضين مطمئنين، وفي هذا ما يكفي دلالة على عظم مكانته في فنه. بيد أن الواصل الينا من شعره [2] ـ وفيه ما أعتقد أنه محمول عليه ـ لايكاد يمثل شاعريته التي بلغ بها هذه المنزلة. على أن فيه من الغزل الساحر، والوصف البارع، والمدح الجليل، والاعتذار الـكلامي المذهب، ما يجني له الشعرآء المرققون الهام. وهو معدود في «عبيد الشعر» الذين شغل الشعر خواطرهم، فانصرفوا الى التفنن بطرائقه، والعناية بتحكيكه وتنقيحه، فامتاز بصفآء الديباجة، وشدة الأسر، وجمال التعبير، ووضوح المقاصد، وقلة التكلف، والموافقة لهوى النفوس. ولا أذكر أني قرأت شعراً الجاهلي فاستولى على نفسي كشعر النابغة ثم امرئ القيس وزهير. وأحسن شعره — بعد المعلقة — عندي اعتذاريا ته الى النعمان، وأبلغها قصيدته التي تبينا منها سبب فراره الى الغساسنة، والتي يقول فيها:

«١» وزعم أديب مصرى انه مات في السنة الثامنة عشرة من الهجرة، وليس بصحيح.

«٢» ترجم ديوانه الى الفرنسية وطبعه مع الاصل العربي الاستاذ هارتوانغ ديرنبرغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩م، واعيد طبعه بمصر

أتاني (أبيت اللعن) أنك لمتني ... وتلك التي أهتم منها وأنصب [1]
وبت كأن العائدات فرشن لي ... هراساً به يعلى فراشي ويقشب [2]
حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراء الله للمرء مذهب
لئن كنت قد بلغت عني خيانة ... لمبلغك الواشي أغش وأكذب [3]
ولكنني كنت امرءاً لي جانب ... من الارض فيه مستراد ومهرب [4]
ملوك وإخوان اذا ما أتيتهم ... أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطنعتهم ... فلم ترهم في شكر ذلك أذنبوا [5]
فلا تتركني بالوعيد كأنني ... الى الناس مطلي به القار أجرب [6]
ألم تر أن الله أعطاك سورةً ... ترى كل ملك دونها يتذبذب [7]
وأنك شمس والملوك كواكب ... اذا طلعت لم يبد منهن كوكب
ولست بمستبق أخاً [8] لاتلمه ... على شعث [9] . أي الرجال المهذب؟
فان أك مظلوماً فعبد ظلمته ... وأن تك ذا عتبى فمثلك يعتب [10]

أما المعلقة فقد اختلف في تعيينها . فمن قائل إنها التي يقول في مطلعها:

يادار مية بالعلياء فالسند ... أقوت، وطال عليها سالف الأبد [11]

«١» أبيت اللعن : تحية ملوك لخم وجذام في الجاهلية معناها أمتنعت ان تفعل ماتلعن به وتذم عليه . وأنصب : أتعب «٢» العائدات : الزائرات في المرض ، والهراس: شجر شائك ثمره كالنبق وشوكه كالحسك ، وقشب الشيء: خلطه بشيء يفسده «٣» الواشي :النمام «٤» المستراد : مكان يختلف فيه لطلب المطر «٥» اصطنعتهم : اتخذتهم وأحسنت اليهم «٦» الوعيد : التهديد والى : هنا بمعنى في ، والقار : سائل أسود لزج يستخرج من الزفت بالغليان «٧» السورة : بفتح السين : المنزلة الرفيعة ، ويتذبذب : يضطرب «٨» أي انك لاتستبقي مودة أخ «٩» لاتلمه : لا تجمعه وتصلحه ، والشعث : الفساد «١٠» أعتب رضي ، والعتبى : الرضا .

«١١» مية : اسم امرأة ، والعلياء: المرتفع من الأرض، والسند: ما قابلك من الجبل وعلا من السفح . وأقوت : خلت من أهلها ، وسالف الابد : ماضي الدهر

وقفت فيها أصيلا كي أسائلها ... عيت جواباً، وما بالربع من أحد[1]

ومن قائل إنها التي يقول في أولها :

عوجوا فحيوا لنعمٍ دمنة الدار ... ماذا تحيون من نؤيٍ وأحجار[2]؟

أقوى وأقفر من نعمٍ وغيره ... هوج الرياح بهابي الترب موار[3]

وهذه أمثل وأجدر أن تكون معلقة ، و يعجبني منها قوله بعد هذين البيتين :

وقفت فيها سراة اليوم أسألها ... عن آل نعم أموناً عبر أسفار[4]

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار

فما وجدت بها شيئاً ألوذ به ... الا الثمام والا موقد النار[5]

وقد أراني ونعماً لاهيين بها ... والدهر والعيش لم يهمم بامرار

أيام تخبرني نعم وأخبرها ... ما أكتم الناس من حاجي وأسراري

لولا حبائل من نعم علقت بها ... لأقصر القلب عنها أي إقصار[6]

فان أفاق لقد طالت عمايته ... والمرء يخلق طوراً بعد أطوار[7]

نبئت نعماً على الهجران عاتبة ... سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري

فما أرق هذا النسيب ، وأشد تأثيره في النفس، وفعله في القلب، ولاسيما هذا

«١» أصيلا : عشية، والربع : الدار «٢» عوجوا : قفوا . ونعم: اسم امرأة، والدمنة : آثار الديار ، والنؤي : الحفير الذي يكون حول الخباء يمنع المطر «٣» أقوى وأقفر كلاهما بمعنى خلا . هوج الرياح : جمع هوجاء وهي الشديدة، الهابي : السافي : وموار : يجيء ويذهب «٤» سراة اليوم : وسطه، والامون : الناقة أمنت أن تكون ضعيفة ، وعبر أسفار أي يعبر عليها في الاسفار «٦» الوذ به: التجيء اليه ، والثمام : نبت ضعيف «٧» الحبائل : المصايد من المودة، وأقصر عن الشيء: انتهى وأمسك وهو يقدر عليه «٨» العماية : بالفتح الغواية والضلال واللجاج في الباطل .

البيت الأخير أو شطرته « سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري » فهل لك من سبيل الى تحديد ما تشعر به من عذوبة وقوة فعل في النفس ؟

ويروقني من هذه القصيدة قوله بعد ذلك:

رأيت نعماً وأصحابي على عجل ... والعيس للبين قد شدت بأكوار [1]

فريع قلبي، وكانت نظرة عرضت ... حيناً وتوفيق أقدار لأقدار

بيضاء كالشمس وافت يوم أسعدها ... لم تؤذ أهلا ولم تفحش على جار

والطيب يزداد طيبا أن يكون بها ... في جيد واضحة الخدين معطار

أقول ـ والنجم قد مالت أواخره ... الى المغيب ـ تثبت نظرة حار [2]

ألمحة من سنا برق رأى بصري ... أم وجه نعم بدا لي أم سنا نار !

بل وجه نعم بدا والليل معتكر ... فلاح من بين أثواب وأستار [3]

إن الحمول التي راحت مهجرة ... يتبعن كل سفيه الرأي مغيار [4]

نواعم مثل بيضات بمحنية ... يحفزن منه ظليماً في نقا هار [5]

إذا تغنى الحمام الورق هيجني ... وإن تغربت عنها أم عمار [6]

ومن جيده قوله من قصيدة في مدح عمرو بن الحارث الأعرج الغساني :

عليّ لعمرو نعمة بعد نعمة ... لوالده ليست بذات عقارب [7]

وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت ... كتائب من غسان غير أشائب [8]

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب [9]

«١» العيس : الابل : والاكوار :الرحال، والبين:الفراق.

«٢» النجم : الثريا ههنا ، وحار : مرخم حارث «٣» الاعتكار :شدة الظلام.

«٤» الحمول : الرفقة سميت بذلك لانها تحمل على الابل ، والمغيار : الكثير الغيرة.

«٥» المحنية : جانب الوادى حيث تبيض النعام . يحفزن : يدفعن والنقا : من الرمل الكثيب، هار :منهار متهدم «٦» الورق من الحمام ما أشبه لونه لون الرماد «٧» ليست بذات من ولا اذى' شبه المن بالمعروف بالعقرب لانه يلدغ لدغاً معنوياً «٨» الاشائب : الاخلاط من الناس «٩» العصائب : جمع عصابة وعصبة وهي الجماعة ، وقد أخذ معنى هذا البيت مسلم بن الوليد حين قال في يزيد بن مزيد الشيباني :

قد عود الطير عادات وثقن بها ... فهن يتبعنه في كل مرتحل

فهم يتساقون المنية بينهم　　بأيديهم بيض رقاق المضارب (١)
تطير فضاضاً بينها كل قونس　　ويتبعها منهم فراش الحواجب (٢)
ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب (٣)
لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم　　من الجود والأحلام غير عوازب (٤)
محلتهم ذات الآله ودينهم　　قويم فما يرجون غير العواقب (٥)
رقاق النعال طيب حجزاتهم　　يحيون بالريحان يوم السباسب (٦)
ولا يحسبون الخير لا شر بعده　　ولا يحسبون الشر ضربة لازب (٧)

ومما يتمثل به من شعره:

نبئت أن أبا قابوس (٨) أوعدني　　ولا قرار على زأر من الأسد

وقوله: —

فلو كفي اليمين بغتك خوناً　　لأفردت اليمين من الشمال

أخذه المثقب العبدي فقال:

وإني لو تخالفني شمالي　　خلافك ما وصلت بها يميني

«١» البيض: السيوف «٢» فضاضا. انتثارا وتفرقا، والقونس: اعلى الرأس، واعلى بيضة الحديد، والفراش: عظام رقاق تلي القحف، أوعلى الخياشيم من داخله

«٣» الفلول: الثلوم، والقراع: المجالدة. والكتائب: جمع كتيبة وهي القطعة من الجيش وجماعة الفرسان الى نحو الالف «٤» الاحلام: العقول، غير عوازب: غير ذاهلة ولا غائبة «٥» محلتهم ذات الاله: أي مسكنهم البيت المقدس، ويروى مجلتهم بالجيم والمجلة الكتاب المتضمن الحكمة وأراد بالمجلة الانجيل، وذات الاله: كلامه لانه صادر عن الذات ويرجون: يخافون «٦» رقاق النعال: كناية عن الترف، والحجزات جمع حجزة وهي معقد الازار، وطيب الحجزة كناية عن العفة. ويوم السباسب. عيد من اعياد النصارى ويعرف بالسعانين بالسين المهملة أو بالمعجمة كما ينطقونه اليوم، ومن عادة الغسانيين ان يحيوا ملوكهم فيه برفع أغصان الريحان كذا قيل «٧» ضربة لازب: أي شيء ثابت لازم، يصفهم بالخبرة والدهاء وأنهم قد عرفوا الدهر وسبروا غوره فعلموا أن للانسان يومين يوماً له ويوماً عليه فلذا لا يحسبون الخير ملازماً لا شر بعده، ولا الشر غير مفارق لا خير بعده.

«٨» كنية النعمان بن المنذر

إذن لقطعتها ولقلت بيني   كذلك أجتوي من يجتويني[1]

وقوله :

استبق ودك للصديق ولاتكن   قتباً يعض بغارب ملحاحا[2]

أخذه ابن ميادة فقال :

ما إن ألح على الاخوان أسألهم   كما يلح بعظم الغارب القتب

وقوله :

فحملتني ذنب امرئ وتركته   كذي العر يكوى غيره وهو راتع[3]

٣ ــ زهير بن أبي سلمى

هو زهير بن أبي سلمى بن ربيعة بن رياح المزني . كان يقيم هو وأبوه وولده في منازل عبد الله بن غطفان[4] ، ونشأ في بيت جل أهله شعراء ، فشب نزوعاً الى الشعر ، فلزم خال أبيه بشامة بن الغدير الغطفاني ، وزوج أمه أوس ابن حجر ، وكلاهما شاعر مجيد . كان الأول مقعداً حكيماً مشهوراً بسداد الرأي ، فكان قومه إذا أرادوا أن يغزوا استشاروه وأصدروا عن رأيه ، فاذا رجعوا بالغنيمه قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم . وكان الثاني شاعر مضر في زمانه عاقلاً في شعره ، كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، مجيداً في الوصف ولاسيما للسلاح والقوس ، ومبرزاً في دقيق المعاني ، وصوغ الحكمة وضرب المثل . فتخرج عليهما ، وروى شعرهما ، فتأثر بأسلوبهما تأثراً قوياً تحسه إذا أنت قرأت شعره وشعر بشامة وأوس . ولكن تأثره بأسلوب أوس كان أقوى

«١» يني : فارقني ، وأجتوى : أكره «٢» الغارب : ما بين سنام البعير وعنقه ، والملحاح : الكثير الالحاح «٣» العر : بضم العين الجرب . وراجع معنى هذا البيت في فصل أوابد العرب من كتاب بلوغ الارب لاستاذنا الالوسي . «٤» بالحاجز من نجد .

وأشد ، وانك لتجد الشبه بينهما ظاهراً في المنزع والوصف والتصوير ، مما يدل على شدة تعلقه به ، واعتماده عليه ، وعنايته برواية شعره ، ومحاكاته له .

ولما نبغ زهير بالشعر انقطع لهرم بن سنان المري أحد مشاهير الأجواد يمدحه ويشيد باسمه حتى ضرب المثل بمدحه له ، ويروون من إعجاب هرم به — ولست أعلم مبلغ الرواية من الصحة — أنه حلف أن لا يمدحه زهير ، ولا يسأله ، ولا يسلم عليه ، الا أعطاه عبداً ، أو وليدة ، أو فرساً . فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، وأصبح اذا رآه في ملأ قال « عموا صباحاً غير هرم وخيركم استثنيت ! » . وكان أول شيء أعجب زهير من هرم ، وحمله على مدحه ، والانقطاع له ، ما رآه من سعيه هو والحارث بن عوف المري في الصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء ، وإطفائهما نارها باحتمالها ديات القتلى التي بلغت ثلاثة آلاف بعير ، فاستفزته الأريحية ، وقال فيهما معلقته التي أولها :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم ... بحومانة الدراج فالمتثلم (١)
ودار لها بالرقمتين كأنها ... مراجيع وشم في نواشر معصم (٢)
بها العين والآرام يمشين خلفة ... وأطلاؤها ينهضن من كل مجثم (٣)
وقفت بها من بعد عشرين حجة ... فلأياً عرفت الدار بعد توهم (٤)

« ١ » أم أوفى : كنية حبيبته ، والدمنة : آثار الدار . والحومانة : ما غلظ من الارض والدراج والمتثلم : موضعان . وقد أخرج الكلام في معرض الشك ليدل بذلك على أنه لبعد عهده بالدمنة وفرط تغييرها لم يعرفها معرفة تحقيق « ٢ » ودار لها : أراد وأدار لها الخ . والرقمتان : روضتان بناحية الصمان . وقيل احداهما قريبة من البصرة والاخرى قريبة من المدينة والمراجيع : خطوط الوشم المرجعة والمرددة . والوشم : نقش بالابرة يحشى نؤوراً كانت نساؤهم ونساء القرى اليوم يستعملنه يتزين به . والنواشر : اعصاب الذراع ، مفردها ناشرة . والمعصم موضع السوار من اليد « ٣ » العين : يريد البقر العين أي الواسعات العيون . والارام : جمع رئم وهو الظبي الخالص البياض . خلفة : يخلف بعضها بعضاً اذا مضى قطيع منها خلف مكانه قطيع آخر . والاطلاء : جمع طلا وهو ولد البقر وولد الظبية الصغير . والمجثم : موضع الجثوم وهو للناس والطير والوحوش بمنزلة البروك للبعير « ٤ » الحجة : بفتح الحاء السنة ، واللأي البطء والجهد المشقة . والتوهم : التفرس .

وهو يمضي على هذا الأسلوب من ذكر الديار ، والتشبيب ، و وصف النساء اللآئي كن فيها ، والطريق التي سلكنها ، والماء الذي نزلن عليه ، حتى يتخلص الى مدح صاحبيه و وصف سعيهما في الصلح ، فيقول : —

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما   تبزل ما بين العشيرة بالدم (١)
فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله   رجال بنوه من قريش وجرهم (٢)
يميناً لنعم السيدان وجدتما   على كل حال من سحيل ومبرم (٣)
تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٤)
وقد قلتما إن ندرك السلم واسعاً (٥)   بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن   بعيدين فيها من عقوق ومأثم (٦)
عظيمين في عليا معد هديتما   ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم (٧)
فأصبح يجري فيهم من تلادكم   مغانم شتى من إفال مزنم (٨)

وعمر زهير حتى نيف على المائة ، ومات قبل البعثة بنحو عام واحد . وكانت له مبادئ في الألوهية والحكمة أنضجت فكره ، وأكسبت شعره طلاوة

«١» غيظ بن مرة : حي من غطفان ثم من ذبيان . وتبزل : تشقق «٢» البيت : الكعبة ، وجرهم : أمة قديمة كانوا أرباب البيت قبل قريش «٣» السحيل : الخيط المفرد ، والمبرم : المفتول ، وهما مستعاران للسهل والصعب «٤» دقوا بينهم عطر منشم : مثل يضرب لقوم هاجت الفتنة بينهم . وقد اختلفوا في منشم ، قال ابن قتيبة : وأحسن ما سمعت فيه أنها امرأة كانت تبيع الحنوط في الجاهلية ، فقيل للقوم اذا تحاربوا ، دقوا بينهم عطر منشم ، يراد طيب الموتى «٥» أي ندرك الصلح تاماً مكيناً «٦» العقوق : قطيعة الرحم ، والمأثم الاثم «٧» عليا معد : أشرافها ورؤساؤها ، والكنز : كناية عن الكثرة «٨» التلاد : المال الموروث ، والافال : صغار الابل ، والمزنم : المشروط الاذن . وانما لم يقل المزنمة وان كان صفة الافال ، لأن الجمع هنا جاء على لفظ المفرد فيسوغ تذكير صفته حملاً على اللفظ . وقد كرر زهير هذا المعنى في قصيدة أخرى (أنظرها في ديوانه ص ١٥ — ٢٣ بشرح الاعلم — طبع مصر سنة ١٣٢٣ ﻫ)

وعذوبة . وقد ظهرت آثار التأله والايمان بالبعث في شعره كقوله في معلقته :

فلا تكتمن الله ما في نفوسكم ليخفى ، ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فينقم

وكان زهير من الشعراء المطبوعين الذين يتأثر خيالهم بالمظاهر الطبيعية المحسوسة فيؤلفون الصور الشعرية تأليفاً لاتجد فيه أثراً للكلفة ، ولكنه اتخذ الشعر فناً وصناعة ، فكان يقاوم طبيعته ، ولايندفع في قوله الشعر مع السجية ، بل يؤلفه في روية وأناة ، ويتعمد التفنن في تنويع الصور البيانية ، ويمعن في تحكيكه ، ويطيل النظر في أعطافه حتى يقتنع باستقامة عموده له . وإنك حين تقرأ شعره لتحس فيه بالصنعة ، وتلاحظ شدة الاسر ، وقوة التلاؤم بين أجزائه ، ودقة تعابيره ، وايجازه ، وبعده عن المعاضلة والتعقيد . ولعل من زعم « أنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، وينقحها في أربعة أشهر ، ثم يعرضها على خواصه في أربعة أشهر ، ثم يذيعها بعد الحول » أراد ماذكرنا من حرصه على شعره أن يكون سالماً من الخطل وتريثه في اخراجه ، ولم يرد من ذكر الأشهر والحول أن يحدد الزمن ويعينه . . . وقد عرف بهذا المذهب في قول الشعر جماعة من الجاهليين وغيرهم يطلق عليهم نعت « عبيد الشعر » لافتنانهم فيه ، وشدة عنايتهم بتهذيبه وتنقيحه . وهم : النابغة الذبياني ، والنمر بن تولب ، والحطيئة ، وزهير . ولعل زهيراً أظهرهم في ذلك أثراً . وهو — بعد — واحد الشعراء في إرسال الحكمة الحصيفة ، وضرب المثل ، واصابة الوصف ، وإجادة المدح . ويقول الرواة : إنه لم يمدح الرجل الا بما هو فيه . بلى ! لقد وجدت في مدائحه من التعقل والقصد في المديح ما يصحح قولهم ، وقد مضى في باب النماذج مثال منها وسنورد غيره فيما بعد اليه . ثم هم يزعمون أنه لم يهج أحداً قط الا مرة هجا

قوماً فأوجع ثم ندم على ماصنع ، وذلك قوله :

ولا أدري ولست إخال أدري   أقوم آل حصن أم نساء؟ [1]

فإن قالوا النساء مخبآت   فحق لكل محصنة هداء [2]

وأكثر الباحثين مطمئنون الى هذا الزعم يدنون عليه أحكاماً شغفاً منهم بالتقاليد ، وقعوداً عن الاستقراء . وعندي أن زهيراً هجاء أي هجاء ، وقد رأيته هجا أكثر من مرة ولا إخاله ندم يوماً على ماصنع : هجا أولئك القوم كما يقول الرواة ، وهجا الحارث بن ورقاء من بني أسد حينما أغار على بني عبد الله بن غطفان وغنم إبله وغلامه ، ثم توعده إن لم يرد عليه الغلام والابل ليهجونه بأقذع الهجاء :

ليأتينك مني منطق قذع   باق [3] كما دنس القبطية الودك ! [4]

فلم يلتفت اليه الحارث ، فلم يكذب زهير إيعاده ، فحمل على نساء قومه المحصنات الغافلات بقصيدة شنعاء تتلثم منها العفة التي يصفونه بها . ولعله قال أشد من ذلك وهجا أكثر فذهب به الزمان . . . وقد جمعت طائفة من شعره شرحها ثعلب ، والأعلم الشنتمري وغيرهما . وكلا الشرحين مطبوع بمصر وليدن

ومن عيون شعره في الحكمة وضرب المثل قوله :

إذا أنت لم تقصر عن الجهل والخنا [5]   أصبت لئيماً أو أصابك جاهل

وقوله في تحديد مقاطع الحق :

وإن الحق مقطعه ثلاث [6]   يمين أو نفار أو جلاء [7]

«١» اخال : أظن . والقوم : جماعة الرجال خاصة ، وآل حصن : من بني كلب .
«٢» المحصنة : ذات الزوج وهي أيضاً البكر . والهداء : زفاف العروس الى زوجها .
«٣» أي يجري على أفواه الرواة ويبقى مع الدهر «٤» القبطية : الثياب البيض ، والودك الدسم «٥» قول الفحش «٦» أي ثلاث خصال ينفذ بكل واحدة منها «٧» النفار : التنافر الى حاكم يتبين حجج الخصوم ويحكم بينهم ، والجلاء : هو بيان ينكشف به الحق وبرهان تتضح به الدعوى فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين .

فذلكم مقاطع كل حق ثلاث كلهن له شفاء

وقوله في معلقته :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم[1]
رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم[2]
وأعلم ما في اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم[3]
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم[4]
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم[5]
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلبه الى مطمئن البر لا يتجمجم[6]
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم[7]
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذماً عليه ويندم
ومن يعص أطراف الزجاج فانه يطيع العوالي ركبت كل لهذم[8]
ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم[9]

«١» سئمت : مللت ، والتكاليف : المشاق الشديدة ، لا أبالك : كلمة تستعملها العرب عند الجفاء والغلظة وتشديد الامر. ولا يراد بها ذلك وانما يراد التنبيه والاعلام «٢» المنايا: جمع منية ، وهي الموت ، والخبط : الضرب باليد ، وهو منصوب بالفعل أي تخبط خبط عشواء وهي الناقة التي لا تبصر ليلا فتخبط بيديها على عمى ، والتعمير : تطويل العمر «٣» غير مهتد «٤» المصانعة : المجاملة والمداراة ، ويضرس : يعض بالاضراس وهو استعارة للاهانة والاذلال ، والمنسم : خف البعير «٥» يفره : يحفظه ، وأصل الوفر الكثرة والزيادة .

«٦» مطمئن البر : أي الخير الذي تطمئن اليه النفوس وتسكن له ، ولا يتجمجم : لا يتأخر في اسدائه وايلائه «٧» أسباب السماء : طرقها أو مراقيها أو نواحيها «٨» الزجاج: جمع زج وهو الحديد المركب في أسفل الرمح ، والعوالي : صدور الرماح مما يلي السنان ، واللهذم: السنان الماضي النافذ . يقول : ان من عصى الامر الصغير صار الى الامر الكبير فاطاع فيه مكرهاً ، وقد ضرب الزجاج والعوالي مثلا ، وكان من عادة العرب أنهم يستقبلون العدو اذا ارادوا الصلح بازجة الرماح فان أجابوهم اليه والا قلبوا الاسنة وقاتلوهم فالمعنى حينئذ : من أبى الصلح ذللته ولينته الحرب «٩» الذود : الكف والدفع ، والحوض : الحريم وهو استعارة

ومن يغترب يحسب عدواً صديقه ⠀⠀ ومن لا يكرم نفسه لا يكرم

ومهما تكن عند امرئ من خليقة ⠀⠀ وإن خالها تخفى على الناس تعلم (1)

وكائن ترى من صامت لك معجب ⠀⠀ زيادته أو نقصه في التكلم

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده ⠀⠀ فلم يبق الا صورة اللحم والدم

وإن سفاه الشيخ لاحلم بعده (2) ⠀⠀ وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

وقوله في غيرها يصف نفسه بالتحلم :

وذي خطل في القول يحسب أنه ⠀⠀ مصيب فما يلمم به فهو قائله (3)

عبأت له حلماً وأكرمت غيره ⠀⠀ وأعرضت عنه وهو باد مقاتله (4)

وفي هذه القصيدة تجد زهيراً يصف الصيد وصفاً هو من خير مايؤثر عن الجاهليين ، ومن الخير لك أن تعرفه فلنورده . قال :

فبينا نبغي الصيد جاء غلامنا ⠀⠀ يدب ويخفي شخصه ويضائله (5)

فقال : شياه راتعات بقفرة ⠀⠀ بمستأسد القريان حو مسائله (6)

ثلاث كأقواس السراء ومسحل ⠀⠀ قد اخضر من لس الغمير جحافله (7)

«١» الخليقة : السجية والطبيعة «٢» أخذه صالح بن عبد القدوس فقال :

والشيخ لايترك أخلاقه ⠀⠀ حتى يوارى فى ثرى رمسه

«٣» الخطل : كثرة الكلام وخطأه . يلمم به : يعرض له ويخطر «٤» عبأت له حلماً أى جمعت له الحلم وهيأته له ، وقوله : غيره ، يحتمل أن يريد به نفسه أو من يراعى حقه فيه وباد : ظاهر ، والمقاتل : جمع مقتل وهو العضو الذى اذا أصيب صاحبه لايكاد يسلم .

«٥» نبغى : نبتغى أى نطلب ، ويضائله : يصغره «٦» الشياه هنا الحمير ، والمستأسد : ما طال من النبت وقوى ، والقريان : مجارى الماء الى الرياض : والحو : ذات النبات الشديد الخضرة : والمسائل : حيث يسيل الماء ، والقياس أن لاتهمز ياؤه لانها أصلية الا انهم همزوها على توهم الزيادة كما همزوا مصائب «٧» السراء : شجر تتخذ منه القسى ، والمسحل : الحمار الوحشى ، واللس : الاخذ بمقدم الفم ، والغمير : نبت غمره نبت آخر أطول منه ، والجحافل جمع جحفلة وهى للدواب بمنزلة الشفة للانسان

وقد خرم الطراد عنه جحاشه[1] فلم يبق الا نفسه وحلائله[2]
فقال أميري : ماترى رأي ما نرى أنختله عن نفسه أم نصاوله ؟[3]
فبتنا عراة[4] عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله[5]
ونضربه حتى اطمأن قذاله ولم يطمئن قلبه وخصائله[6]
وملجمنا ما إن ينال قذاله ولاقدماه الأرض الا أنامله
فلأياً بلأي ما حملنا وليدنا على ظهر محبوك ظماء مفاصله[7]
وقلت له : سدد وأبصر طريقه وما هو فيه عن وصاتي شاغله[8]
وقلت : تعلم إن للصيد غرةً والاتضيعها فانك قاتله[9]
فتبع آثار الشياه وليدنا كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله[10]
نظرت اليه نظرة فرأيته على كل حال مرة هو حامله[11]
يثرن الحصى في وجهه وهو لاحق سراع تواليه صباب أوائله[12]

«١» أي أخذ الصيادون جحاشه ، وأصل الخرم القطع «٢» الحلائل : جمع حليلة وهي زوج الرجل وهو حليلها ، وقد استعارها للأتن «٣» الامير : الذي يؤامره ويستشيره ، والختل : الخداع والكيد ، ونصاوله : نواجهه جهرة «٤» من العراء وهي الارض العارية من الشجر والبناء أي بتنا لا يسترنا شيء «٥» أي يعالج مدافعتنا ونعالج الجامه وركوبه .

«٦» قذاله : معقد عذاره في رأسه ، والخصائل : جمع خصيلة وهي كل لحمة في عصبة

«٧» اللأي : الجهد والمشقة ، والوليد : الغلام ، والمحبوك الشديد الخلق المدمج وقوله ظماء مفاصله : أي هي قليلة اللحم يابسة وليست برهلة «٨» سدد : استقم على ظهره لاتمل يمنة ولا يسرة ، وأبصر طريقه لاتمر به على جرف وحجر ونحو ذلك ،

«٩» تعلم : بمعنى اعلم ، لا يصرف منه فعل في غير الامر . والغرة : الغفلة .

«١٠» تبع : اتبع ، والشؤبوب : الدفعة من المطر ، ويحفش يقشر . والاكم : جمع أكمة وهي التل والرابية ، والوابل ، أغزر المطر وأعظمه قطراً «١١» مرة على الطمع ومرة على اليأس ومرة على الهلاك لنشاطه وحدته «١٢» يريد بالتوالي رجليه وعجزه ، وبالاوائل يديه وصدره يعني أن مقدمه قاصد يصوب ومؤخره مؤيد له لا يخذله .

فرد علينا العير من دون إلفه ... على رغمه يدمى نساه وفائله (١)

ورحنا به ينضو الجياد عشية ... مخضبة أرساغه وعوامله (٢)

بذي ميعة لاموضع الرمح مسلم ... لبطء ولا ما خلف ذلك خاذله (٣)

وقد وجدت له قطعة أخرى في وصف القنص أيضاً أبدع في تصويره، وأحسن ما شاء له الاحسان . وأراني جد حريص على أن تعرفها ولكن ضيق المجال يضطرني أن أحيلك عليها في ديوانه فانظرها في شرح الأعلم ص٤٣ .

ومن جيد مدح زهير قوله في هذه القصيدة بعد هذا الوصف مباشرة :

وأبيض فياض يداه غمامة ... على معتفيه ما تغب فواضله (٤)

أخي ثقة لايهلك الخمر ماله ... ولكنه قد يهلك المال نائله (٥)

تراه ، اذا ماجئته ، متهللا ... كأنك تعطيه الذي أنت سائله (٦)

وقوله يمدح هرم بن سنان :

لمن طلل برامة لايريم ... عفا وخلا له حقب قديم (٧)

تحمل أهله منه فبانوا ... وفي عرصاته منهم رسوم (٨)

«١» الفه : أتانه لأنه يألفها وتألفه ، والنسا والفائل : عرقان وانما خصهما ليخبر بحذق الغلام بالطعن واصابة المقتل . «٢» رحنا به : أى رجعنا عشياً بالفرس وهو ينضوا الجياد أى ينسلخ منها ويتقدمها لم يكسر الطرد من نشاطه ، والعوامل : القوائم «٣» الميعة : الدفعة من السير وقوله لاموضع الرمح الخ يعنى أن مقدمه لايسلم مؤخره أى لايخذله ولكن يؤيده ويعينه وكذلك مؤخره لايخذل مقدمه . ومثل هذا قول القطامى :

يمشين زهراً فلا الاعجاز خاذلة ... ولا الصدور على الاعجاز تتكل

«٤» الابيض : النقى من العيوب ، والفياض : الكثير العطاء ، والمعتفى : الطالب لمعروفه . وتغب : تنقطع ، والفواضل : العطايا . «٥» النائل : العطاء «٦» المتهلل : الطلق الوجه المستبشر «٧» رامة : اسم موضع ، لايريم : لايبرح ثابتاً ، الحقب : الدهر .

«٨» الرسوم : الآثار

يلحن كأنهن يدا فتاة ... ترجع في معاصمها الوشوم (١)

تطالعنا خيالات لسلمى ... كما يتطلع الدين الغريم (٢)

لعمر أبيك ما هرم بن سلمى ... بملحي اذا اللؤماء ليموا (٣)

ولا ساهي الفؤاد ولا عيي اللسان اذا تشاجرت الخصوم

ولكن عصمة في كل أمر ... يطيف به المخول والعديم (٤)

وعود قومه هرم عليه ... ومن عاداته الخلق الكريم

كما قد كان عودهم أبوه ... اذا أزمتهم يوماً أزوم (٥)

كبيرة مغرم أن يحملوها ... تهم الناس أو أمر عظيم (٦)

لينجو من ملامتها ، وكانوا ... اذا شهدوا العظائم لم يليموا (٧)

كذلك خيمهم ولكل قوم ... اذا مستهم الضراء خيم (٨)

وإن سدت به لهوات ثغر ... يشار اليه جانبه سقيم (٩)

مخوف بأسه يكلأك منه ... عتيق لا ألف ولا سؤوم (١٠)

له في الذاهبين أروم صدق ... وكان لكل ذي حسب أروم (١١)

«١» ترجع : تردد مرة بعد مرة «٢» تطالعنا : تظهر مرة وتختفي أخرى ، ويتطلع : ينتظر والغريم هنا الدائن «٣» الملحي : الملوم «٤» عصمة : يعتصم ويتقى به ، والمخول : الغنى . والعديم : الفقير

«٥» السنة الازوم : الشديدة القحط ، وأزمتهم : أصابتهم بشدة

«٦» قوله أن يحملوها أى كبرت عليهم أن يحملوها فيحملها هرم

«٧» لينجو أى هرم ويروى لينجوا بواو الجماعة ، ولم يليموا : لم يلمهم الناس من ألمته بمعنى لمته «٨» الخيم بالكسر الخلق «٩» اللهوات جمع لهاة وهى مدخل الطعام فى الحلق استعارها لمدخل الثغر وهو الموضع الذى يتقى منه العدو ، و يشار اليه : من صفة الثغر أى يهتم به ويذكر ، وجانبه : الضمير فيه للثغر ، وسقم جانبه : كناية عن أنه يخشى أن يأتى العدو منه «١٠» مخوف بأسه : من صفة الثغر ، ويكلأك منه : جواب قوله وان سدت به ، ومعنى يكلأك يحفظك ، والعتيق : النجيب ، والألف : الضعيف الرأى الثقيل ، والسؤوم : الملول «١١» الاروم : جمع أرومة وهى الاصل ، والحسب : كثرة الشرف والمآثر .

٤ — أعشى قيس

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل من بكر بن وائل من ربيعة. والأعشى لقب غلب عليه. نشأ باليمامة في قرية تسمى منفوحة، وروى شعر خاله المسيب بن علس أحد الشعراء المجيدين. حتى اذا ارتاض لسانه، وقوي بيانه، ونبه شأنه، رغب في عطايا الملوك والسروات، فانتجع أطراف البلاد، وطوف في الآفاق يمدح من يمنح، ويقذع من يمنع، فسن لمن جاء بعده سنة جديدة ولكنها سيئة، وهي السؤال عن طريق الشعر. وقد كان الشعراء قبله يمدحون ولكنهم لا يسألون[1] اللهم الا النابغة الذبياني في اختلافه الى الغساسنة في الشام، والمناذرة في الحيرة طمعاً في جوائزهم السنية. ولكنه لم يكن متبذلا كالأعشى، ولم يسف الى ما أسف اليه من إرعاب الناس بالهجاء...

وقد انتاب الأعشى من السروات سلامة ذا فائش، وملوك الحيرة، وكسرى أنو شروان، وملوك نجران وأساقفتها وغيرهم. فكان لحياته الحافلة بالأسفار والمشاهدة والاختبار في أنحاء الجزيرة وفارس، وطول لبثه بين نصارى نجران: يشرب الخمر، ويسمع الغناء، ويذاكرهم في عقائدهم — أثر بين في شعره ولا سيما فيما تعرض فيه لوصف الخمرة. وطال عمر الأعشى، وعمي بأخرة، حتى كان الاسلام وسمع بأمر النبي، فأعد قصيدة يمدحه قال فيها، وقد أشار الى ناقته وتخلص الى المدح على طريقة شعراء العرب:

فآليت لا أرثي لها من كلالة ولا من حفى حتى تزور محمدا[1]

متى ما تناخى عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله ندى[2]

«١» آليت: أقسمت، وأرثى لها: أرحمها وأرق لها والضمير يعود على ناقته والكلالة: التعب. والحفى: رقة القدم، وتزور: يروى في موضعها، تلاقى «٢» الفواضل: العطايا.

نبي يرى ما لا يرون وذكره　　أغار لعمري في البلاد وأنجدا [1]
له صدقات ما تغب ونائل　　وليس عطاء اليوم يمنعه غدا [2]

فلما عزم الرحلة اليه بلغ خبره قريشاً وما قد عزمه [وكان اذ ذاك صلح الحديبية بين الرسول ومشركي مكة [3]] فأوجسوا خيفة من إسلامه وتخوفوا أثر شعره حتى أثر عن أبي سفيان أنه قال يخاطب قريشاً : « يا معشر قريش! والله لئن أتى محمداً واتبعه ليضرمن عليكم نيران العرب بشعره فاجمعوا له مائة من الابل ! » ففعلوا ، فرصدوه على الطريق ، وخرج اليه أبو سفيان يبغضه صاحب الشريعة بذكر ما يحرمه من متع الحياة الوثنية كالحب المحرم والربا والقمار ... وما زالوا به حتى اشتروا « ضميره » بتلك الابل ، فعدل عن الاسلام ، ورجع أدراجه الى منفوحة . حتى اذا تراءت للناظر أو كادت سقط عن ناقته فدقت عنقه ومات على دين دهماء العرب أعني الوثنية مع التوحيد. وقد ادعى بعض المعاصرين [4] نصرانيته مستدلاً على ذلك بما وجده في شعره من ذكر مدينة أورشليم ، ومدح أساقفة نجران ، وفلان وفلان من النصارى . وليس ذلك بشيء . فان الرجل وان كان يخالط النصارى ويمدحهم لأخذ نوالهم ، ويذكر أساقفة نجران في عقائدهم ، لم يكن نصرانياً ، وإنما تأثر ببعض آراء النصرانية ليس غير . ولو كان نصرانياً لما اجترأ على تسمية الصليب وثناً في قوله :

«١» أغار . دخل الغور وهو كل ما انحدر مغربا عن تهامة ، وأنجد ، دخل النجد وهو ضد الغور «٢» تغب : تنقطع . والنائل العطاء . «٣» الحديبية : بئر بينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل . وحديث صلحها معروف في السيرة النبوية كسيرة ابن هشام ، والسيرة الحلبية ، وكتاب الهدى النبوي ، وفي غيرها من كتب الحديث والتأريخ الاسلامي .
«٤» لويس شيخو في مجموعة شعراء النصرانية .

تطــوف العفـــاة بأبوابه كطوف النصارى ببيت الوثن [1]

* * *

وهو عند الكثيرين رابع الشعراء الثلاثة الذين ذهبوا بالزعامة، وهم: امرؤ القيس، والنابغة، وزهير. ونقل عن بعض متقدمي العلماء أنه كان يعده أشعرهم فقيل له: فأين الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن امرأ القيس بيده لواء الشعراء؟ فقال: بهذا الخبر صح للأعشى ماقلت وذلك أنه ما من حامل لواء الا على رأس أمير، فامرؤ القيس حامل اللواء والأعشى الأمير! وهذا كما ترى الى الهزل أقرب منه الى الجد. نقول هذا وإن كنا لا نرتاب في شاعرية الاعشى الفياضة، غير أن التفضيل بهذه الصفة مذهب قديم بل سقيم، وإطلاق القول بتفضيل شاعر على شاعر ضلال وتحكم لا يقره العلم وقواعد النقد. على أن هذه الآراء تدلنا على مكانة الاعشى عند القوم، ومبلغ اعجابهم بشعره قديماً، وفي الحق انه لشاعر فحل متصرف في فنون من الشعر أظهرها المدح والغزل والوصف، وممتاز بكثرة ما روي له من الطوال الجياد، ومشهور بشعره بالتأثير الشديد في نفوس القبائل لروعته وبراعة أسلوبه حتى زعموا أنه أعز به وأذل، واستشهدوا على ذلك بفرق القرشيين من إسلامه، كما تقدم، وبهجاء الكلبي الذي وضعه، ومحاولة الكلبي قتله حينما ظفر به لولا ان استجار بشريح ابن السموأل في قصة ليس هذا موضعها. وبحكاية المحلق، وكان رجلا مملقاً وأباً لثمان بنات عوانس فلما قراه وأحسن قراه مدحه بقصيدة عامرة ووقف بها منشداً في عكاظ فلم يمض عام حتى لم تبق جارية منهن الا وهي زوج لسيد كريم! ومطلع هذه القصيدة:

---

(١) أراد بالوثن الصليب كما في (لسان العرب). وانظر مجلة لغة العرب م١ ص ٣٥٤.

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ... وما بي من سقم وما بي تعشق (١)

ولقد أجاد في مدح المحلق حينما قال :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة ... الى ضوء نار باليفاع تحرق (٢)

تشب لمقرورين يصطليانها ... وبات على النار الندى والمحلق (٣)

رضيعى لبان ثدي أم تقاسما ... بأسحم داج عوض لانتفرق (٤)

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه ... كما زان متن الهندواني رونق (٥)

يداه يدا صدق فكف مبيدة (٦) ... وكف اذا اما ضن (٧) بالمال تنفق

وقد ذهب الأعشى بالشهرة في وصف الخمرة وكثرة ذكره لها اذ ان في شعراء الجاهلية من وصفها وذكرها . ومن جيدما وصفها به قوله :

تريك القذى (٨) من دونها وهي فوقه ... اذا ذاقها من ذاقها يتمطق

أراد أنها من صفائها تريك القذاة عالية عليها وهي في أسفلها ، فأخذه الاخطل فقال:

ولقد تباكرني على لذاتها ... صهباء عالية القذى خرطوم (٩)

ومن أبياته السائرة فيها قوله :

وكأسٍ شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

«١» الارق : ذهاب النوم ، والسهاد : فقد النوم «٢» اليفاع : المرتفع من الارض ، «٣» تشب : توقد ، والمقرور : من أصابه القر وهو البرد ، ويصطليانها : يستدفئان بها . والندى : الكرم «٤» اللبان : اللبن ، وتقاسما : أقسما وتعاهدا . بأسحم داج : بليل مظلم شديد السواد . وعوض ، ابداً . وهو ظرف لاستغراق المستقبل من الزمان — ا ر كتاب كشف الطرة لابن الثناء الالوسي ص ٣٦١ الى ٣٦٣ .

«٥» الهندواني : السيف المطبوع في الهند «٦» متلفة «٧» بخل «٨» مايقع في الشراب وفي العين من تبنة ونحوها «٩» الخرطوم : الخمر السريعة الاسكار

لكي يعلم الناس أني امرؤ أتيت المروءة من بابها

وقد احتذى الناس على مثله فقال الشاعر :

تداويت عن ليلى بليلى من الهوى كما يتداوى شارب الخمر بالخمر

وقال أبو نواس :

دع عنك لومي فان اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء

وكان الأعشى كثير الهجاء مجيده ، ويقال إن أهجى بيت للعرب قوله في علقمة :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا[1]

وقال يعتذر الى أوس بن لأم عن هجائه إياه :

وإني على ما كان مني لنادم وإني الى أوس بن لأم لتائب

وإني الى أوس ليقبل عذرتي[2] ويصفح عني ما حييت لراغب

فهب لي حياتي فالحياة لقائم بشكرك فيها خير ما أنت واهب

سأمحو بمدح فيك اذ أنا صادق كتاب هجاء سار اذ أنا كاذب

وهذا شعر جيد متين ، وقد لا يشاكهه في جزالته ورونقه الا لاميتاه اللتان لم يقع الاتفاق على أن أيهما من المعلقات . أما الأولى فهي التي يقول في مطلعها :

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي وما ترد سؤالي

دمنة قفرة تعاورها الصيف بريحين من صبا وشمال[3]

وأمر هذه القصيدة عجب . فقد استهلها بالغزل ، ثم انتقل الى الوصف ، ثم الى المدح مدح الأسود بن المنذر ، ثم عاد — والعود أحمد — الى الغزل ، ثم الى

«١» المشتى : موضع الشتاء وزمانه . غرثى : جائعات . الخمائص جمع خميصة وهى الضامرة البطن الجائعة «٢» عذرى .

«٣» الصبا : الريح التى تأتى من ناحية الشرق . والشمال : ماتأتى من جهة الشمال

وصف القنص فختم به القصيدة . والغرابة انما هي من العودة الى الغزل بعد المدح مرة أخرى ، وليس ذلك بالمألوف عند الشعراء .

وأما الثانية ، وهي أبرع من اختها جمالاً وأروع جلالاً ، فقد بدأها بالغزل أيضاً ، ثم انتقل الى الوصف فوصف مجالس الشرب والندماء ، وافتخر قليلاً ثم انتقل الى وصف السحاب حتى اذا فرغ منه انبرى يتوعد رجلاً ويهجوه ويفتخر ويتحمس . وقد أجاد في كل ذلك فجمع الى رقة التشبيب رونق التشبيه ، والى دقة الوصف روعة الفخر ، في لفظ مختار وأسلوب رشيق . على أني أسرع فأقول إن هذا لا يصدق على كل بيت من أبيات القصيدة فأن في بعض غزلها ضعفاً وسخناً قد تبرأت منه جمهرة أبياتها ، وقد لا أتردد بأن أدعي حمل ذلك عليه كما أدعي حمل أشياء أخرى يضيق المقام عن التبسط فيها.

ومن غزل هذه القصيدة قوله :

ودع هريرة إن الركب مرتحل ... وهل تطيق وداعاً أيها الرجل [1]

غراء فرعاء مصقول عوارضها ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل [2]

كأن مشيتها من بيت جارتها ... مر السحابة لا ريث ولا عجل [3]

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ... ولا تراها لسر الجار تختتل [4]

يكاد يصرعها لولا تشددها ... اذا تقوم الى جاراتها الكسل [4]

صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة ... اذا تأتى يكاد الخصر ينخزل [5]

«١» هريرة : اسم امرأة . والركب : اصحاب الابل في السفر «٢» غراء : بيضاء . فرعاء : طويلة الفرع وهو الشعر التام ، والعوارض : جمع عارض وهو صفحة العنق وجانب الوجه . تمشي الهوينى : أي على مهل . والوجي : الذي رق قدمه من المشي بلا نعلين . والوحل : الواقع في الطين .

«٣» الريث : البطء «٤» تختتل : تتسمع «٥» الفتور «٥» صفر الوشاح : يعني انها خميصة البطن دقيقة الخصر فوشاحها يقلق عنها . والدرع : الثوب . والبهكنة : الكبيرة الخلق . وتأتى : تهيأ للقيام ، وينخزل : ينثني او ينقطع

اذا تقوم يضوع المسك أصورةً ... والزنبق الوردمن أردانهـا شمل (١)
ما روضةمن رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطل (٢)
يضاحك الشمس منها كوكب شرق ... مؤزر بعميم النبت مكتهل (٣)
يوماً بأطيب منهـا نشر رائحـة ... ولا بأحسن منهـا إذ دنا الأصل (٤)
علقتهـا عرضـاً وعلقت رجلاً ... غيري وعلق أخرى غيرها الرجل (٥)

ومن وصفها يذكر لهوه وندماءه :

وقـد أقود الصبـا يوماً فيتبعني ... وقد يصاحبني ذو الشارة الغزل (٦)
في فتية كسيوف الهند قد علموا ... أن هالك كل من يحفى وينتعل (٧)
نازعتهم قضب الريحان متكئـاً ... وقهوة مزّة راووقهـا خضـل (٨)
لا يستفيقون منهـا وهي راهنة ... الا بهات وإن علوا وإن نهلوا (٩)
يسعى بها ذو زجاجات له نطف ... مقلص أسفل السربال معتمل (١٠)

«١» يضوع: تفوح رائحته ، والاصورة : جمع صوار وهو : وجة المسك أى وعاؤه الورد: الاحمر ، الاردان : أطراف الاكمام ، ومفرده ردن ، وشمل : شامل

«٢» الحزن : ماغلظ من الارض ، وجاد عليها، امطرها ، ومسبل : سائل ، وهطل : هاطل يروى أرضه

«٣» يضاحك الشمس : يدور معها حيث دارت. وكوكب كل شيء : معظمه ، والشرق : الريان الممتلىء ماء . والعميم التام السن ، والمكتهل : الذى تم طوله وظهرت ازهاره فهو قد انتهى في التمام «٤» النشر : الرائحة الطيبة ، والاصل : جمع أصيل وهو الوقت من العصر الى العشاء

«٥» علقتها بالبناء المجهول أى أحببتها ، عرضاً: على غير عمد .

«٦» الشارة : الهيأة الحسناء «٧» قال مبرمان والسيرافى : الشطر الثانى مصنوع والرواية الصحيحة (ان ليس يدفع عن ذى الحيلة الحيل) وأيدهما ابن المستوفى

«٨» القهوة: الخمرة ، وراووقها : اناؤها، والخضل : الدائم الندى «٩» راهنة : دائمة أو معدة ، والعلل : السقية الثانية ، والاولى النهل «١٠» النطف ، جمع نطفة كجرة وهى القرط أو اللؤلؤة الصافية أو الصغيرة ، ومقلص : مشمر ، والسربال : القميص ، ومعتمل : دائب نشيط

ومستجيب تخال الصنج يسمعه ... اذا ترجع فيه القينة الفضل [1]

والساحبات ذيول الريط آونة ... والرافعات على أعجازها العجل [2]

من كل ذلك يوم قد لهوت به ... وفي التجارب طول اللهو والغزل

ومن فخرها وحماستها قوله يخاطب يزيد بن مسهر متوعداً ومتهكماً :

أبلغ يزيد بني شيبان مألكة ... أبا ثبيت أما تنفك تأتكل [3]

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا ... ولست ضائرها ما أطت الابل [4]

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل [5]

تغري بنا رهط مسعود وإخوته ... يوم اللقاء فتردي ثم تعتزل [6]

لاتقعدن وقد أكلتها [7] حطباً ... تعوذ من شرها يوماً فتبتهل [8]

سائل بني أسد عنا فقد علموا ... أن سوف يأتيك من أنبائنا شكل

واسأل قشيراً وعبد الله كلهم ... واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل [9]

لئن قتلتم عميداً لم يكن صدداً ... لنقتلن مثله منكم فنمتثل [10]

«١» المستجيب : العود . والصنج : بالفتح صفحة مدورة من النحاس يضرب بها على أخرى مثلها للطرب . ترجع : تردد صوتها ، والقينة : المغنية . والفضل بضمتين المتفضلة في ثوب واحد والتفضل : التوشح «٢» الريط جمع ريطة : وهي الملاءة المنسوجة قطعة واحدة . والعجل : جمع عجلة وهي مزادة كالاداوة «٣» المألكة : الرسالة ، وتأتكل : تغتاب . أو يأكل بعضك بعضاً من الحقد والغيظ . «٤» الاثلة : شجرة الطرفاء ، ونحت الاثلة كناية عن الذم والتنقص : ضائرها : ضاراً بها ، وأطت : حنت «٥» اوهى : أضعف . الوعل : تيس الجبل

«٦» الرهط : القوم والعشيرة . وتردي : تهلك الناس باغرائك اياهم ثم تعتزل وتبتعد

«٧» الضمير يعود الى الحرب المعروفة من المقام . ومعنى أكلتها : أشعلتها وأوقدتها

«٨» تدعو الله أن يصرف شرها .

«٩» افتعل : ابتدع ابتداعاً غير مسبوق الى مثله «١٠» الصدد : المقارب . ونمتثل : نقتل الامثل فالامثل . والاماثل : الخيار .

لئن منيت بنا عن غب معركة　　لاتلفنا عن دماء القوم ننتفل (1)

لاتنتهون ولن ينهى ذوي شطط　　كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل (2)

حتى يظل عميد القوم مرتفقاً (3)　　يدفع بالراح عنه نسوة عجل (4)

أصابه هندواني فأقصده　　أو ذابل من رماح الخط معتدل (5)

كلا زعمتم بأنا لانقاتلكم　　إنا لامثالكم ياقومنا قتل (6)

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحية　　جنبي فطيمة لاميل ولا عزل (7)

قالوا : الطراد، فقلنا: تلك عادتنا.　　أو تنزلون ، فانا معشر نزل

وللأعشى ديوان مخطوط في الاسكوريال والمكتبة الخديوية ،وقد قيض الله له (8) باحثاً كبيراً وهو المستشرق الألماني ردولف غاير (RudolfGeyer) فأولع بجمع آثاره وآثار العشي وهم كثيرون كأعشى أسد ، وأعشى باهلة ، وأعشى سليم ، وغيرهم. فقسمها الى جزءين : الجزء الاول يحتوي على أشعارهم وهي — فيما قيل — تربو على سبعة آلاف بيت . والجزء الثاني خاص بترجمة هذه الأشعار الى اللغة الألمانية وفيه فهرس للكلمات مع بحث مستفيض في ترجمة الأعشى وشعره . وقد شرع في طبع هذه المجموعة النفيسة منذ حين ولما نطلع عليها .

«١» منيت : ابتليت ، وغب كل شيء : عاقبته ، والانتفال : بالفاء الجحود والانتفاء ، وضبطه بعضهم بالقاف «٢» الشطط : الجور «٣» متكئاً على مرفقه «٤» جمع عجول وهى المرأة الواله الثكلى «٥» الهندوانى :السيف من صنع الهند . أقصده : قتله والذابل :الرمح ، والخط : موضع بالبحرين «٦» قاتلون ، وهى جمع قتول «٧» يوم الحنو : هو يوم ذى قار بين العرب والفرس ، والحنو يبعد ليلة عن ذى قار ، ضاحية : بارزة علانية ، وفطيمة :موضع بالبحرين كانت به وقعة بين بنى شيبان وبنى ضبيعة وتغلب ظفر فيها بنوتغلب على بنى شيبان. والميل : جمع أميل وهو الذى لايثبت فى الحرب ، والعزل : جمع اعزل وهو الذى لاسلاح معه.

«٨» الزهراء م ٢ ص ٥٢٠ ـ ٥٢٥

٥ — عنترة العبسي

هو عنترة بن عمرو بن شداد من قبيلة عبس، ويلقب بعنترة الفلحاء [1].

كان هجيناً: أبوه من سادات قومه، وأمه حبشية تدعى زبيبة، والى ذلك يشير في بيت له:

إني امرؤ من خير عبس منصباً شطري وأحمي سائري بالمنصل [2]

وكان من سنة العرب في الجاهليـة أنها تستعبـد بني الاماء ولا تلحقهم بأنسابها الا اذا أنجبوا، وعلى هذه السنة جرى أبوه، فنبذه بين عبدانه يرعى له إبله، ولـكنه كان كبير النفس، حمي الأنف، فكبر عليه ذلك وأبى أن يعيش عيشة العبد الذليل، فنزع الى الفروسية وما زال يروض نفسه عليها حتى مهر فيها واستكمل أدواتها، فشب فارساً تخشى صولته، وشجاعاً لا يريد بقاء نفسه في الحرب الضروس. واتفق يوماً أن بعض أحيـاء العرب أغاروا على عبس واستاقوا إبلاً لهم فتبعهم العبسيون، وعنترة فيهم، فقال له أبوه «كر يا عنترة!» فأجابه — وهو يحقد عليه امتهانه اياه وعدم الحاقه بنسبه — «العبد لا يحسن الـكر، وإنما يحسن الحلاب والصر [3]» فقال له «كر وأنت حر!» فكر وقاتل قتالاً شديداً حتى هزم المغيرين واستنقذ الابل، فاستلحقه أبوه. ومن يومئذ ظهر اسمه بين العرب حتى صار مضرب المثـل في الشجاعة والاقـدام، وقاد كتائب عبس في حرب داحس والغبراء، فحسن فيها بلاؤه وحمدت مشاهده، وحالفه النصر فيها وفي وقائع كثيرة اقتحمها. ثم أدركه الهرم وضعف جسمه، فقعد به العجز عن شن الغارات. ويؤثر عنه أن قائلاً قال له: أنت أشجـع

«١» الافلح: المشقوق الشفة السفلى ومؤنثه فلحاء، وقد لقب بذلك لانشقاق شفته، وانما قيل له الفلحاء بالتأنيث حملا على تأنيث اسمه، والعنترة في الاصل واحدة العنتر وهو الذباب «٢» المنصل: السيف «٣» الحلاب: الحلب، والصر: شد ضرع الناقة.

الناس وأشدهم ! فقال : لا . قال : فبماذا شاع لك هـــذا في الناس ؟ قال : « كنت أقدم اذا رأيت الاقدام عزماً ، وأحجم اذا رأيت الاحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لي منه مخرجاً ، وكنت أعتمد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأثني عليه فأقتله ! » ومات عنترة قبيل البعثة . وللمستشرق الالماني تور بكي Thorbecke كتاب فيه طبع في هيدلبرج سنة ١٨٦٨م

* * *

و ينطقه الرواة شعراً ينادي على نفسه بالصنع والتوليد ، و يسندون اليه قصة كبيرة فيها من مشاهد الحروب وقصصها مالم يره بالحلم . ثم هم يختلفون في واضع هذه القصة ، والأكثر على أن أخباره رويت عن الأصمعي ، ثم مازالت تتسع بالمناقلة طوال الأيام حتى انتهت الى رجل حافظة اسمه الشيخ يوسف بن اسماعيل في عهد العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) فألفها في اثنين وسبعين جزءاً ، و تلطف في أسلوبه فالتزم في آخر كل جزء أن يقطع الحديث عند معظم الأمر الذي يشتاق اليه القارىء أو السامع فلا يفتر عن الكتاب الذي يليه فاذا وقف عليه انتهى به الى مثل ما انتهى في الاول ، وهكذا الى نهاية القصة . والقصة حماسية غرامية تصف حياة العرب وأخلاقهم وحروبهم ، ولعلها أفضل القصص العربية وأبعدها أثراً في نفوس قرائها [1] لما تبعثه من روح الحمية والنجـــدة والوفاء . وقد أشتهر بها عنترة بين الخاصة والعامة شهرة لم يحظ بمثلها أحـد من أهل الجاهلية وكثير من أهل الاسلام . وقد ترجمها الى الألمانية المستشرق النمساوي همر Hammer مؤلف تاريخ الدولة العثمانيـة ، وتاريخ الأدب العثماني ،

« ١ » أنظر مثلا ملموساً لهذا الا ثر في مقدمتنا لديوان الاستقلال .

وتأريخ الأدب العربي. ثم ترجم شيئاً منها الى الفرنسية مارسل ديفيك (*Devic*) معلم العربية في كلية مون بيليه من أقدم مدارس الفرنجة.

والديوان المنسوب اليه جله مستخرج من هذه القصة يغلب عليه الصنع والتوليد. والشعر الذي يثبت له وتطمئن اليه النفس إنما هو معلقته وقصائد عليها طابع هذه المعلقة الممتازة برقة النسيب، وفخامة الفخر والحماسة. وقد استهلها بالتشبيب «بعبلة» فشكا بعدها، ووقف على دارها فحياها، ووصفها، وذكر آثار الربيع بها، ثم استطرد الى الناقة فوصفها وصفاً جليلاً، وتخلص الى الفخر والحماسة فذكر وقائعه ومشاهده بأسلوب يملك النفس بروعته وجلاله، ويهز القلب فتكاد تسمع منه رنين أوتاره ... ومطلعها:

هل غادر الشعراء من متردم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم؟ (١)

يا دار عبلة بالجواء تكلمي، ... وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي (٢)

دار لآنسة غضيض طرفها ... طوع العناق لذيذة المتبسم (٣)

فوقفت فيها ناقتي وكأنها ... فدن لأقضي حاجة المتلوم (٤)

حييت من طلل تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم (٥)

ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

إن تغدفي دوني القناع فانني ... طب بأخذ الفارس المستلئم (٦)

أثني علي بما علمت فأنني ... سمح مخالطتي إذا لم أظلم

فاذا ظلمت فان ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم (٧)

«١» غادر: ترك، والمتردم: المرقع، وأم: بمعنى بل، والتوهم: التفرس

«٢» الجواء: مكان بنجد

«٣» الآنسة: التي تؤنسك بحديثها وقربها، والغضيض: الفاتر، والمتبسم بكسر السين أي لذيذة الفم المتبسم «٤» الفدن: القصر، والمتلوم: المتمكث «٥» أقوى: خلا من سكانه ومثله أقفر، وأم الهيثم: كنية عشيقته عبلة «٦» تغدفي: ترخي وترسلي، والقناع: ما تغطي به المرأة وجهها، والطب: بفتح الطاء الحاذق، والمستلئم: اللابس اللأمة وهي الدرع. «٧» باسل: كريه

ويستجاد له فيها :

واذا شربت فانني مستهلك — مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى — وكما علمت شمائلي وتكرمي

يفتخر بالجود ووفور العقل في حالتي صحوه وسكره ، فهو اذا سكر فانما يحمله السكر على المحامد فيجود بماله كما يجود به وهو صاح ، ثم لايطيش لبه ولا يشين به عرضه ولاينال منه عيب عائب . وقد احتذى هذا المعنى ابن حمديس الصقلي الشاعر الأندلسي المشهور (٤٤٧ هـ — ٥٢٧ هـ) فقال :

يعيد عطايا سكره عند صحوه — ليعلم أن الجود منه على علم
و يسلم في الانعام من قول قائل : — تكرم لما خامرته ابنة الكرم

وقوله فيها يصف روضة :

جادت عليها كل عين ثرة — فتركن كل قرارة كالدرهم (١)
سحاً وتسكاباً فكل عشية — يجري عليها الماء لم يتصرم (٢)
وخلا الذباب بها فليس ببارح — غرداً كفعل الشارب المترنم (٣)
هزجاً يحك ذراعه بذراعه — قدح المكب على الزناد الأجذم (٤)

وقوله في الفخر :

ومدجج كره الكماة نزاله — لاممعن هرباً ولا مستسلم (٥)
جادت له كفي بعاجل طعنة — بمثقف صدق الكعوب مقوم (٦)

«١» جادت عليها : أمطرتها ، والعين : مطر أيام لايقلع ، والثرة : الكثيرة الماء ، والقرارة : الحفرة «٢» السح : الصب والانصاب ، والتصرم : الانقطاع .
«٣» البارح : الزائل ، والغرد : المصوت ، والمترنم : الذي يردد صوته بضرب من التلحين
«٤» هزجاً : مصوتاً ، والأجذم : الناقص اليد «٥» المدجج : التام السلاح ، والامعان : الاسراع في الشيء والغلو فيه «٦» بمثقف أي برمح مثقف أي مقوم مصلح ، صدق الكعوب : صلب عقدالانابيب مستويها

برحيبة الفرغين يهدي جرسها ... بالليـل معتس الذئاب الضرم [1]
فشككت بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم [2]
فتركته جزر السباع ينشنه : ... يقضمن حسن بنانه والمعصم [3]

ومنها :

نبئت عمراً غير شاكر نعمتي ... والكفر مخبثة لنفس المنعم [4]
ولقد حفظت وصاة عمي بالضحى ... اذ تقلص الشفتان عن وضح الفم [5]
في حومة الحرب التي لا تشتكي ... غمراتها الأبطال غير تغمغم [6]
إذ يتقون بي الأسنة لم أخم ... عنها ولكني تضايق مقدمي [7]
لما رأيت القوم أقبل جمعهم ... يتذامرون ، كررت غير مذمم [8]
يدعون عنتر ، والرماح كأنها ... أشطان بئر في لبان الأدهم [9]
مازلت أرميهم بثغرة نحره ... ولبانه حتى تسربل بالدم [10]
فازور من وقع القنا بلبانه ... وشكا الي بعبرة وتحمحم [11]

«١» الرحيبة : الواسعة ، والفرغ من الدلو مخرج الماء ، والجرس صوت ، والمعتس من الذئاب وغيرها المبتغي شيئاً بالليل ، والضرم : الجياع «٢» شككت : شققت ، والاصم : الصلب المتين ، والقنا : الرماح واحدها قناة «٣» الجزر جمع جزرة وهي الشاة المعدة للذبح ، ينشنه : يتناولنه ، والقضم : الاكل بمقدم الأسنان ، والبنان : الاصابع ، والمعصم : موضع السوار من اليد «٤» مخبثة : مفسدة

«٥» الوصاة : الوصية ، وتقلص : تتشنج وتقصر ، ووضح الفم : الاسنان.

«٦» حومة الحرب : معظمها وهي حيث تحوم الحرب أي تدور ، وغمراتها : شدائدها ، والتغمغم : صياح ولجب لا يفهم منه شيء «٧» يتقون بي الاسنة : يجعلونني وقاية لهم منها ، لم أخم : لم أجبن ولم أنكص ، والمقدم : موضع الاقدام.

«٨» يتذامرون : يحض بعضهم بعضاً على القتال ، غير مذمم : غير مذموم ،

«٩» الأشطان : جمع شطن وهو الحبل ، واللبان : الصدر ، والادهم : أراد به فرسه «١٠» الثغرة : النقرة بين الترقوتين ، تسربل بالدم : صار الدم له بمنزلة السربال وهو القميص أي عم جسده «١١» ازور : مال واعرض ، والوقع : صوت وقعة الضرب بالشيء والتحمحم : من صهيل الفرس ما كان فيه شبه الحنين ليرق صاحبه له.

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمي
ولقد شفى نفسي وأبرأ سقمها ... قيل الفوارس: ويك عنتر أقدم[1]
والخيل تقتحم الخبار عوابساً ... من بين شيظمة وأجرد شيظم[2]
ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابني ضمضم[3]
الشاتمي عرضي، ولم أشتمهما، ... والناذرين اذا لم ألقهما دمي[4]
إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزر السباع وكل نسر قشعم[5]

ومن رائع شعره:

بكرت تخوفني الحتوف كأنني ... أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل[6]
فأجبتها: إن المنية منهل[7] ... لابد أن أسقى بكأس المنهل
فاقني حياءك لا أبا لك واعلمي ... أني امرؤ سأموت إن لم أقتل[8]
إن المنية لو تمثل مثلت ... مثلي اذا نزلوا بضنك[9] المنزل
إني امرؤ من خير عبس منصباً ... شطري وأحمي سائري بالمنصل[10]
واذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيراً من معم مخول[11]
والخيل تعلم والفوارس أنني ... فرقت جمعهم بضربة فيصل[12]

«١» ويك: ويلك «٢» تقتحم: تدخل، والخبار: الارض اللينة، والشيظم: الطويل من الخيل، والاجرد: القصير الشعر «٣» ابنا ضمضم: هما حصين وهرم، وكان عنترة قتل أباهما في حرب داحس والغبراء يوم المريقب «٤» وفي رواية: اذا لقيتهما «٥» القشعم: المسن. «٦» بكرت: تقدمت، أو أتت بكرة وقت الغلس، والحتوف: جمع حتف وهو الموت، والغرض: الهدف الذي ينصب ليرمى فيه «٧» مورد

«٨» الزمي حياءك «٩» ضيق، وأضافة الضنك الى المنزل، من أضافة الصفة الى الموصوف «١٠» السيف «١١» الكتيبة: الطائفة من الجيش مجتمعة، وأحجمت: تأخرت، وتلاحظت: نظر بعضهم بعضاً من شدة الهول. والفيت: وجدت، ومعم مخول: كريم الاعمام والاخوال «١٢» الفيصل: السيف.

والخيل ساهمة الوجوه كأنما تسقى فوارسها نقيع الحنظل (١)
ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المأكل (٢)

٦ — طرفة بن العبد

هو عمرو بن العبد بن سفيان البكري ، وطرفة لقب غلب عليه . نشأ في بيت هو في الذروة والسنام من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العز والكثرة ، ومات أبوه — وهو صغير — فكفله أعمامه ، فأهملوا تربيته ، فأخلد الى اللهو والدعة والبطالة، وعكف على الخمرة يعاقرها، ومال الى رواية الشعر فنبغ به يافعاً ، وكان جريئاً ، فوقع به في أعراض الناس هجواً وثلباً ، ولم يدع حتى قومه وأهله . وكان ملك العرب اذ ذاك عمرو بن هند، وعاصمته الحيرة ، فاتصل به طرفة ونادمه هو وخاله المتلمس الشاعر المشهور ، و بقي عنده زمانا ، وكان طرفة غلاماً معجباً شديد نزق الشباب فنقم منه الملك أشياء وحقد عليه من أجلها ، ثم بدرت من الملك بوادر منكرة في سياسة قومه ، فنظم طرفة قصيدة شنع فيها على سياسته ووصفه بالحمق — وكان جريئاً غير هياب — منها قوله :

فليت لنا مكان الملك عمرو رغوثاً حول قبتنا تدور (٣)
لعمرك إن قابوس بن هند ليخلط ملكه نوك كثير (٤)

فصمم الملك على قتله ، فحذره بعض رجاله عاقبة الأمر وخوفه أن تجتمع عليه بكر إن قتله ظاهراً ثم هجاء خاله المتلمس فان هذا اذا هجاه أسقطه في القبائل — فرأى أن يتخلص منهما جميعاً بمكيدة يدبرها ، فأمن طرفة وأظهر له عفوه

«١» ساهمة الوجوه عابستها «٢» الطوى : الجوع .
«٣» الرغوث: النعجة المرضع «٤» النوك الحمق.

عن جريرته و رضاه عنه ، حتى اذا وثق به طرفة جاءه هو وخاله يتعرضان لفضله فأحالهما على عامله با لبحرين وأعطاهما كتابين اليه يأمره بقتلهما ، وأوهمهما أنه يأمر لهما بصلة وجائزة. و بيناهما في طريقهما الى البحرين فطن المتلمس للمكيدة فمزق كتابه — في حديث طويل لايبرأ من الزيادة والوضع ، وألح على ابن أخته أن يفعل فعله و ينجو ، فأبى واستكبر ، وحملته غرارة الشباب على عدم الاكتراث قائلا « إن كان قد اجترأ عليك فما كان ليجترئ علي ولايغرني! » فافترقا : مضى المتلمس الى الشام فنجا ، ومضى طرفة الى البحرين فلقي حتفه شاباً لم يتجاوز السادسة والعشرين [1] . و يزعم الرواة أن العامل أطلعه على جلية الأمر وفسح له مجال الهرب ، فلم يفعل أنفة واستكباراً ، بل أشار عليه أن يقتله قتلة هادئة بأن يسقيه الخمر ، و يفصد أكحله [2] وهو ثمل ، ففعل كما أراد ، فما زال ينزف دمه حتى خمد ميتا .

* * *

طرفة شاعر بلغ مبلغ الفحول وهو حدث ، فكان حسن التصرف في فنون الشعر وشعاب أساليبه ، يجمع الى الجزالة ، وشدة الأسر ، وغرابة الألفاظ — حسن الرونق ، وماء الفصاحة ، ونباهة الأغراض ، وصدق الوصف ، ولطف التخيل. نقول هذا القول في الواصل الينا من شعره وهو قليل رواه ابن السكيت والشنتمري ، وجمع بين روايتيهما أحمد بن الأمين الشنقيطي ، وعلق عليه شرحاً وطبع

«١» قالت أخته الخرنق ترثيه :

عددنا له ستاً وعشرين حجة ... فلما توفاها استوى سيداً ضخما

فجعنا به لما رجونا ايابه ... على خير حال لا وليداً ولاقحما

وايابه : رجوعه ، وأرادت رجوعه من البحرين بجائزته على خير حاله والقحم : المسن.

«٢» عرق في باطن الذراع ، وليس في باطن القدم ، كما وهم من وهم.

في قزان بمطبعة (اورنهك) . وترجم الى الفرنسية في الصور بون، وطبعه مع الاصل العربي سلكسن (Seligsohn) سنة ١٩٠٠م . وأجوده معلقته [١] وقد ابتدأها بالتشبيب بخولة، واستطرد فيها الى وصف حدوجها مشبهاً لها بالسفن السابحة ثم وصف ناقته التي ساعدته على نيل أمانيه بخمسة وثلاثين بيتاً وصفاً كان به نسيج وحده، ثم تمدح بنفسه فوصفها بنشاط العزيمة وكفاية المهم والجود والشرف وأنه يجمع بين الجد والهزل . ثم صور حياته ومجالس لهوه مع قينته وندمائه، و بسط رأيه في هذه الحياة الدنيا فقال: هي لهو ولعب وسكر ومسرات، وهو رأي من لا يتأثم ولا يبالي بعواقب الاستهتار، و رد على الذين يلومونه في مذهبه هذا. ثم عاتب ابن عمه مالكاً على هجرانه اياه مع تقربه منه، وقص ما وقع بينهما، ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونحره النياق في سبيل اللهو، وانتهى الى نهاية كل حيّ وهو الموت، وعلم ابنة أخيه معبد كيف تندبه وتذكره بما هو جدير به من القول . ثم ختمها بأبيات حكمية بليغة سارت مسير الامثال، فضرب بسهم في وصف الاخلاق وتقرير الحكم والآداب، وجود القول في كل ما تعرض له من الاغراض حتى عد أجود شعراء الجاهلية طويلة عند الأكثرين، وأشعر الناس عند ابن مقبل، وقد عرفت مذهبنا في أمثال هذه الاحكام المطلقة العامة في غير ما موضع . . . ومهما يكن من شيء فان طرفة من الفحول المقرمين، ومعلقته هذه من أجود المعلقات وأوضحها منزعاً وأغزرها معنى . ومطلعها قوله :

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد [٢]

«١» أنظر محاضرة المغربي في الجزء الأول من محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق

«٢» خولة : أسم عشيقته ، و برقة ثهمد : موضع لبني دارم، والبرقة : مكان اختلط ترابه بحجارة أوحصى ، تلوح : تبدو وتظهر ، والوشم: غرز ظاهر اليد وغيره بالابرة وحشو المغارز بالكحل ، أو النقش بالنيلج .

وقوفاً بها صحبي على مطيهم   يقولون: لاتهلك أسىً وتجلد (١)

وقد توارد بهذا البيت مع امرئ القيس في قوله :

وقوفاً بها صحبي على مطيهم   يقولون : لاتهلك أسى وتجمل

ثم مضى يصف حدوج معشوقته مشبهاً لها بالسفن السابحة فقال :

كأن حدوج المالكية غدوة   خلايا سفين بالنواصف من دد (٢)

عدولية أومن سفين ابن يامن   يجور بها الملاح طوراً ويهتدي (٣)

يشق حباب الماء حيزومها بها   كما قسم الترب المفايل باليد (٤)

وقال فيها واصفاً نفسه ومجلس أنسه ، وباسطاً رأيه في الحياة والموت :

اذا القوم قالوا: من فتى؟ خلت أنني   عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ولست بحلال التلاع مخافة   ولكن متى يسترفد القوم أرفد (٥)

فان تبغني في حلقة القوم تلقني   وإن تلتمسني في الحوانيت تصطد (٦)

«١» الأسى : الحزن ، والتجلد : تكلف الجلادة وهو الصبر

«٢» الحدوج : مراكب النساء واحدها حدج ، والخلايا ، جمع الخلية وهي السفينة العظيمة ، والسفين : جمع سفينة ، واضافة الخلايا الى السفين من اضافة الخاص الى العام، والنواصف: جمع الناصفة وهي أماكن تتسع من نواحي الأودية ، ودد : اسم واد «٣» عدولية نسبة الى عدولى وهي قبيلة من أهل البحرين وقيل قرية بالبحرين ، وابن يامن: رجل من أهلها ، والجور : العدول عن الطريق

«٤» الحباب : الامواج ، الواحدة حبابة ، والحيزوم: الصدر ، والمفايل ، صانع الفيال وهي لعبة لفتيان العرب وما زالت معروفة عند فتياننا في العراق يسمونها (طم خريزة) وذلك أنهم يجمعون تراباً ويخبئون فيه خبيئاً ثم يقسم المفايل التراب نصفين ويسأل عن الدفين في أيهما هو فمن أصاب قمر ومن أخطأ قمر «٥» التلاع : جمع تلعة وهي ما ارتفع عن مسيل الماء، والرفد والارفاد : الاعانة ، والاسترفاد : الاستعانة «٦» تبغني :تطلبني ، والحوانيت : جمع حانوت وهو بيت الخمار

وان يلتق الحي الجميع تلاقني ... الى ذروة البيت الشريف المصمد (١)
ندامای بيض كالنجوم وقينة ... تروح الينا بين برد ومجسد (٢)
اذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا ... على رسلها مطروقة لم تشدد (٣)
اذا رجعت في صوتها خلت صوتها ... تجاوب أظآر على ربع رد (٤)
وما زال تشرابي الخمور ولذتي ... و بيعي وانفاقي طريفي ومتلدي (٥)
الى أن تحامتني العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد (٦)
رأيت بني غبراء لاينكرونني ... ولا أهل هذاك الطراف الممدد (٧)
الا أيهذ الزاجري أحضر الوغى ... وأن أشهد اللذات هل انت مخلدي ؟ (٨)
فان كنت لاتسطيع دفع منيتي ... فدعني أبادرها بما ملكت يدي (٩)
كريم يروي نفسه في حياته ... ستعلم إن متنا غداً أينا الصدي (١٠)
أرى قبر نحام بخيل بماله ... كقبر غوي في البطالة مفسد (١١)
ترى جثوتين من تراب عليهما ... صفائح صم من صفيح منضد (١٢)

«١» الحي: القبيلة، الجميع: المجتمع، وذروة الشيء: أعلاه، والمصمد: الذي يقصده الناس بحاجاتهم «٢» القينة: الجارية المغنية: والمجسد: الثوب المصبوغ بالجساد وهو الزعفران وقيل بل هو الذي يلي الجسد «٣» أسمعينا: غنينا: والانبراء: الاعتراض للشيء والاخذ فيه، على رسلها: على مهلها. والمطروقة التي بها ضعف «٤» الترجيع: ترديد الصوت، والاظآر: جمع ظئر الناقة التي لها ولد، والربع من ولد الابل ماولد في اول النتاج، والردي: الهالك
«٥» الطريف: المال المستحدث، والمتلد: المال الموروث «٦» المذلل: المطلي بالقطران «٧» بنو غبراء: الفقراء، والغبراء: الارض، والطراف: البيت من الجلد وكنى بأهل الطراف عن الاغنياء «٨» الوغى: الحرب. والاخلاد: الابقاء «٩» اسطاع لغة في أستطاع، وابادرها: أعاجلها «١٠» الصدى: العطشان «١١» النحام: البخيل الذي اذا سئل نحم أى تنحنح، والغوى: الضال «١٢» الجثوة الكومة من التراب، والصفائح: الحجارة العريضة ومفردها صفيحة، صم: صلاب، والصفيح: وجه كل شيء عريض وأراد به معنى الصفائح، منضد: مضموم بعضه الى بعض.

أرى الموت يعتام الكرام و يصطفي ... عقيلة مال الفاحش المتشدد [1]

أرى العيش [2] كنزاً ناقصاً كل ليلة ... وما تنقص الأيام والدهر ينفد

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى ... لكالطول المرخى وثنياه باليد [3]

متى ما يشأ يوماً يقده لحتفه ... ومن يك في حبل المنية ينقد [4]

ومنها في عتاب ابن عمه و وصف ما وقع بينهما:

فمالي أراني وابن عمي مالكاً ... متى أدن منه ينأ عني و يبعد

يلوم وما أدري علام يلومني ... كما لامني في الحي قرط من معبد

وأيأسني من كل خير طلبته ... كأنا وضعناه الى رمس ملحد [5]

على غير شيء قلته غير أنني ... نشدت ولم أغفل حمولة معبد [6]

وقربت بالقربى وجدك إنه ... متى يك أمر للنكيثة أشهد [7]

و إن أدع للجلى [8] أكن من حماتها ... و إن يأتك الأعداء بالجهد أجهد

و إن يقذعوا بالقذف عرضك أسقهم ... بشرب حياض الموت قبل التهدد [9]

بلا حدث أحدثته وكمحدث ... هجائي وقذفي بالشكاة ومطردي [10]

«١» يعتام : يختار ، ومثله يصطفي ، وعقيلة كل شيء خياره ، والفاحش : الشديد البخل «٢» العمر «٣» الطول : الحبل الطويل تشد به قائمة الدابة ، والثنى : الطرف ، وما في قوله ما أخطأ الفتى : مصدرية ظرفية . «٤» يقده : يجره ، والحتف : الموت .

«٥» الرمس : القبر ، والحدت الرجل : جعلت له لحداً ، يقول قنطني من كل خير رجوته منه حتى كأنا وضعنا ذلك الطالب الى قبر رجل ملحد لا يرجى خيره «٦» نشد الضائع : طلبه وبحث عنه ، والاغفال : الترك والحمولة ، الابل التي يحمل عليها ، ومعبد : أخوه «٧» النكيثة : المبالغة في الجهد واقصى الطاقة «٨» الخطة العظيمة «٩» القذع : الفحش ، والقذف : السب «١٠» يقول : أجفى وأهجر وأضام من غير حدث اساءة أحدثته ثم أهجى وأشكى وأطرد كمن أساء اساءة وجرجريرة . وأطردته : صيرته طريداً .

فلو كان مولاي امرءاً هو غيره ... لفرج كربي أو لأنظرني غدي [1]
ولكن مولاي امرؤ هو خانقي ... على الشكر والتسآل أو أنا مفتد
وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند [2]
فذرني وخلقي إنني لك شاكر ... ولو حل بيتي نائياً عند ضرغد [3]

وقال موصياً ابنة أخيه معبد ، ومعرضاً ببعض منافسيه :

فان مت فانعيني بما أنا أهله ... وشقي علي الجيب يا ابنة معبد [4]
ولا تجعليني كامرئ ليس همه [5] ... كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي [6]
بطيء عن الجلى [7] سريع الى الخنا [8] ... ذلول بأجماع الرجال ملهد [9]
فلو كنت وغلاً في الرجال لضرني ... عداوة ذي الأصحاب والمتوحد [10]
ولكن نفى عني الرجال جرآءتي ... عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي [11]
لعمرك ما أمري علي بغمة ... نهاري ، ولا ليلي علي بسرمد [12]

وختمها بهذه الأبيات السائرة :

أرى الموت أعداد النفوس [13] ولا أرى ... بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غد!
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ... ويأتيك بالأخبار من لم تزود [14]
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له [15] ... بتاتاً [16] ولم تضرب له وقت موعد

«١» الانظار : الامهال «٢» المضاضة : ألم المصيبة فى القلب، ووقع الحسام : نزول السيف القاطع وشدة ضربته ، والمهند : المطبوع فى الهند «٣» اسم جبل .

«٤» الجيب : من القميص ما يدخل منه الرأس «٥» عزمه وقصده «٦» الغناء الكفاية، والمشهد : هنا الشهود وهو الحضور «٧» الامر العظيم «٨» الفحش «٩» ذلول : ذليل : الاجماع : جمع جمع وهو الضرب بالكف مجموعة، ملهد : مدفع يدفعه الناس «١٠» الوغل : اللئيم الجبان، والمتوحد : المنفرد الذى لا أتباع له «١١» المحتد بكسر التاء الاصل «١٢» غمة : مبهم ملتبس، والسرمد : الدائم - يتمدح بمضاء الصريمة وذكاء العزيمة «١٣» أى ارى الموت على قدر عدد النفوس «١٤» لم تعطه زاداً وهو طعام السفر «١٥» لم تشتر لاجله .
«١٦» كساء واداة

ومن شعره قوله مخاطباً أعمامه ، وكان أبوه قد مات وهو غلام ، فهضموا حق أمه و ردة :

ما تنظرون بحق و ردة فيكم ؟ صغر البنون و رهط و ردة غيب
قد يبعث الأمر الكبير صغيره حتى تظل له الدماء تصبب
والظلم فرق بين حيي وائل : بكر تساقيها المنايا تغلب [1]
قد يورد الظلم المبين آجناً ملحاً يخالط بالذعاف و يقشب [2]
وقراف من لا يستفيق دعارة يعدي كما يعدي الصحيح الاجرب [3]
والصدق يألفه الكريم المرتجى والكذب يألفه الدنيء الأخيب
أدوا الحقوق تفر لكم أعراضكم إن الكريم اذا يحرب يغضب [4]

ومن غرره :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه اذا ذل مولى المرء فهو ذليل [5]
وأن لسان المرء ـ مالم تكن له حصاة [6] ـ على عوراته لدليل

وقوله في ذم الأخلاء :

وكم خليل كنت خالته لا ترك الله له واضحه [7]
كلهم أروغ من ثعلب ما أشبه الليلة بالبارحه [8]

«١» يشير الى حرب البسوس التى أحدثها بين بكر وتغلب تمادى كليب ملكهم فى الظلم وقتل جساس اياه على ما يأتى فى ترجمة ابن كلثوم «٢» الآجن : الماء المتغير الطعم واللون والذعاف : السم ، ويقشب يخلط ـ يعنى ان الظلم يجر المعاداة «٣» القراف : المخالطة ، والدعارة : الخبث والفسق «٤» تفر : تحفظ ، يقال وفر عرضه : اذا حفظه وصانه ، التحريب : الاغضاب ، وسلب المال «٥» المولى : السيد ، والعبد ، وابن العم ، والمراد هنا الاخير

«٦» عقل ورأى «٧» الواضحة : الاسنان تبدو عند الضحك «٨» اروغ : أمكر وأخدع ، يقال : راغ الثعلب اذا ذهب يمنة ويسرة فى سرعة خديعة .

٧ — عمرو بن كلثوم

نشأ عمرو بن كلثوم في قبيلة تغلب بالجزيرة الفراتية جامعاً لخلال العظمة فصيحاً فارساً أيداً حمي الأنف يضارع في شدة بأسه وإبائه للضيم جده لأمه مهلهل ابن ربيعة أخا كليب وآئل، فساد قومه يفعاً غلاماً، وقاد الجيوش يرقل بها الى الموت إرقال الجمال المصاعب عليهم البيض واليلب اليماني، وبيدهم السيوف كأنها المخاريق بأيدي اللاعبين، وأبلى البلاء الحسن في الحروب التي دارت رحاها بين بكر وتغلب من جرآء البسوس (١) حتى تصالح الفريقان على يد عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة، ولم يكد يمضي أمد يسير على الصلح حتى تلاحى وجوه الفريقين في مجلس ابن هند، وكان يؤثر بني تغلب على بني بكر، فقام الحارث بن حلزة شاعر بكر الشهير وأنشد معلقته المشهورة، فعير التغلبيين مواقع ظهروا عليهم فيها، وافتخر بقومه وحسن بلائهم، وما كاد يفرغ منها حتى اجتذب ضلعه الى بكر. فانصرف ابن كلثوم غضبان يحرق عليه الأرم، فأثر ذلك في نفس الملك، وأراد أن يكسر من أنفته ويذله باستخدام أمه، ودبر ذلك مع أمه هند، فأرسل اليه يسترضيه ويستزيره ويسأله أن يزير أمه أمه. فأقبل عمرو وأمه في جماعة من تغلب، وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الحيرة والفرات، وأرسل الى وجوه رعيته فحضروا، ودخل عمرو بن

---

(١) بنت منقذ من بني تميم، كانت نازلة في بني شيبان مجاورة لجساس، وكان لها ناقة، فدخلت يوماً حمى كليب وائل زوج جليلة اخت جساس، واختلطت بابله، فانكرها لما رآها، وكان قد بلغ من بغيه أنه يحمي مواقع السحاب فلا يرعى حماه، فشد عليها بسهم فخرم ضرعها، فنفرت وهي ترغو، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها وصاحت واذلاه ياجاراه فأحمت جساساً حتى حمل على كليب بقتله، فارتحلت بنو شيبان، وتشمر المهلهل الشاعر اخو كليب واستعد لحرب بني بكر، وبنو شيبان منهم، فكانت بين الفريقين بكر وتغلب ايام مشهورة دامت زمناً طويلا الى أن أصلح بينهم عمرو بن هند ملك الحيرة.

كلثوم رواقه، ودخلت أمه على أم الملك في قبتها ، فلما دعا الملك بالمائدة نحت هند الخدم ، وكلفت ليلى حاجةً تقضيها ، فأنفت وأجابتها بعزة ربة الأنف الأشم: لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها ! فأعادت عليها وألحت ، فصاحت صيحةً رددتها الأجواء وسمعها كل من في رواق الملك : واذلاه ، يالتغلب ! فسمعها ابنها عمرو فانتفض انتفاضة المحموم ،وصاح: لاذل لتغلب بعد اليوم ! ثم عمد الى السيف وصدع به رأس ابن هند صدعة أسلمته الى حتفه ، ونادى في تغلب فانتهبوا ما في الرواق ، وساقوا نجائبه وساروا توآنحو الجزيرة . فقال معلقته التي أولها :

ألا هبي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا[1]

يصف فيها أمره مع ابن هند ، ويفتخر بأيام قومه وغاراتهم المشهورة .ثم قام بها منشداً في عكاظ[2] فتناقلتها الألسن،وتنافست تغلب كبارها وصغارها في انشادها وروايتها : لسمو فخرها ، ونباهة أغراضها ، وانسجام أسلوبها حتى هجاهم بذلك بعض شعراء بكر فقال :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مـــذ كان أولهم يا للرجال لشعر غير مسؤوم!

---

(١) هبي: استيقظي ، الصحن : القدح العظيم ، أصبحينا :اسقينا الصبوح وهو شرب أول النهار ، والاندرين : قرية بالشام ، وقيل فى جنوبى حلب بينهما مسيرة يوم للراكب

(٢) يؤخذ من القصيدة أن الشاعر لم يقلها فى موقف واحد ، وأن الخطب الذى بعثه على نظمها ليس بواحد ، لهذا تجد الرواة قد اختلفوا فى سبب نظمها فقال بعضهم انه قالها على أثر ماجرى له مع عمرو بن هند ، وقال آخرون انه أنشدها بحضرة الملك عمرو بن هند، والجمع بين الروايتين يسير أمره ، فهو قد قال قسما منها وأنشده بحضرة ابن هند على أثر الخلاف الذى نشب بين قومه وبين بنى أعمامهم ، ثم أتمها على أثر احتقار أم عمرو لامه وقتله لعمرو منفصلا لهذه الواقعة ، وقام بها منشداً فى عكاظ .

وفي الحق أنها لمن خير الشعر الحماسي تمثيلاً لاباء العربي ، واعتزازه بالقوة والاقدام والاعتماد على النفس ، ونحو ذلك من فضائل الرجولة التي يمجدها العربي و يتغنى بها . ليس فيها من الاسراف في الفخر الا قوله :

اذا بلغ الرضيع لنا فطاماً   تخر له الجبابر ساجدينا

وكذلك هذا البيت :

ملأنا البر حتى ضاق عنا   ونحن البحر نملؤه سفينا

وقوله : لنا الدينا ومن أمسى عليها   . . . .

وهذه المعلقة و بعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها هي كل ما روي لعمرو بن كلثوم من الشعر الذي خلد به اسمه في صحائف الشعراء الخالدين . ولعل للزعامة وقيادة الجيوش أثراً في إشغاله عن التقلب في فنون الشعر والافاضة في شعابه. هذا ولا ننس أن لابن كلثوم بين الخطباء المصاقع مقاماً محموداً ، وتضاف اليه وصية جليلة أوصى بها بنيه [1] (انظرها في بلوغ الارب ج٣ ص ١٧٤ من الطبعة الثانية). ومن معلقته قوله يتوعد ابن هند و يتهكم ويفتخر :

أبا هند [2] فلا تعجل علينا   وأنظرنا [3] نخبرك اليقينا

بأنا نورد الرايات بيضاً   ونصدرهن حمراً قد روينا [4]

وأيامٍ لنا غر طوال   عصينا الملك فيها أن ندينا [5]

«١» قال أبو الفرج فى الاغانى ٩ — ١٧٦ : « ولعمرو بن كلثوم عقب باق ومنهم كلثوم ابن عمرو العتابى الشاعر صاحب الرسائل » .

«٢» كنية عمرو بن هند «٣» أمهلنا «٤» الراية : العلم ، وأصل أورد : اذا أتى بالابل المورد للشرب ، وأصدر : اذا رجع بها بعد السقى — وهذا البيت تفسير لليقين فى البيت الاول . «٥» الايام : الوقائع ، غر : حسنة ، وقوله أن ندين : تقديره كراهية أن ندين، ودان : أطاع وائتمر بالامر

وسيد معشر قد توّجوه ... بتاج الملك يحمي المحجرينا[1]

تركنا الخيل عاكفة عليه ... مقلدة أعنتها صفونا[2]

متى ننقل الى قوم رحانا[3] ... يكونوا في اللقاء لها طحينا

يكون ثفالها شرقي نجد ... ولهوتها قضاعة أجمعينا[4]

نزلتم منزل الأضياف منا ... فأعجلنا القرى أن تشتمونا[5]

قريناكم فعجلنا قراكم ... قبيل الصبح مرداة طحونا[6]

نطاعن ماتراخى الناس عنا ... ونضرب بالسيوف اذا غشينا[7]

نشق بها رؤوس القوم شقاً ... ونخليها[8] الرقاب فيختلينا[9]

كأن جماجم الأبطال فيها ... وسوق بالأماعز يرتمينا[10]

وإن الضغن بعد الضغن يبدو ... عليك و يخرج الداء الدفينا[11]

ورثنا المجد قد علمت معد ... نطاعن دونه حتى يبينا[12]

نجذ[13] رؤوسهم في غير بر[14] ... فما يدرون ماذا يتقونا[15]

كأن سيوفنا فينا وفيهم ... مخاريق[16] بأيدي لاعبينا

كأن ثيابنا منا ومنهم ... خضبن بأرجوان[17] أو طلينا

«١» الملجئين «٢» المكروف : الاقامة ، والصفون : جمع صافن وهو أن يقوم الفرس على ثلاث قوائم ويثني سنبكه الرابع «٣» يعني بالرحى رحى الحرب

«٤» الثفال : جلدة تبسط تحت الرحى ليقع عليها الدقيق ، واللهوة : القبضة من الحب تلقى في فم الرحى ، وقد ألهيت الرحى : ألقيت فيها لهوة ، وقضاعة : قبيلة.

«٥» القرى : مايقدم للضيف من الطعام «٦» المرداة : الصخرة التى تكسر بها الصخور ، وقد استعارها للحرب «٧» التراخي : البعد ، والغشيان : الاتيان ، «٨» أى نتركها تخليها أى تقطعها «٩» ويروى : فتختلينا «١٠» الوسوق : الاحمال ، ومفردها وسق ، والاماعز : جمع أمعز وهو المكان الذى تكثر حجارته ، والارتماء : التساقط «١١» الضغن : الحقد «١٢» يظهر «١٣» تقطع «١٤» فى غير عطف ولا رحمة «١٥» يحذرون منا من القتل والسبي واستباحة الاموال «١٦» جمع مخراق وهو شيء أو ثوب يفتل ويلعب به «١٧» صبغ أحمر.

اذا ماعي بالاسناف حيّ | من الهول المشبه أن يكونا(١)
نصبنا مثل رهوة ذات حد | محافظة وكنا السابقينا(٢)
بشبان يرون القتل مجداً | وشيب في الحروب مجربينا
حديا الناس كلهم جميعاً | مقارعة بنيهم عن بنينا(٣)

* * *

ألا لا يعلم الأقوام أنا | تضعضعنا وأنا قد ونينا(٤)
ألا لا يجهلن أحد علينا | فنجهل فوق جهل الجاهلينا(٥)
بأي مشيئة عمرو بن هند | نكون لقيلكم فيها قطينا(٦)
بأي مشيئة عمرو بن هند | تطيع بنا الوشاة وتزدرينا(٧)
تهددنا وتوعدنا؟ رويداً | متى كنا لأمك مقتوينا(٨)
فان قناتنا ياعمرو أعيت | على الأعداء قبلك أن تلينا(٩)
اذا عض الثقاف بها اشمأزت | وولتهم عشوزنة زبونا(١٠)

«١» الاسناف : شد البعير بالسناف وهو مايشد على عنق البعير بالرحل ليمنع تأخره ، والسناف أيضاً التقدم ، وفلان عي بالاسناف: أي دهش من الفزع كمن لايدرى أين يشد السناف
«٢» أي نصبنا كتيبة مثل رهوة ، ورهوة : جبل ، ذات حد: ذات بأس وقوة وشدة
«٣» حديا : اسم جاء على التصغير مثل ثريا وحميا ، وهي بمعنى التحدى - يقول : نتحدى الناس كلهم بمثل مجدنا وشرفنا ونقارع أبناءهم ذابين عن أبنائنا «٤» الونى : الفتور.
«٥» الجهل : السفه «٦» القيل : الملك دون الملك الاعظم ، والقطين : الخدم ، ومفردها: قاطن «٧» تحتقرنا وتستخف بنا «٨» القتو : خدمة الملوك ، يقال قتا يقتو والمقتى مصدر كالقتو تنسب اليه فتقول مقتوى ثم يجمع بطرح ياء النسبة فيقال مقتوون فى الرفع ومقتوين فى النصب والجر «٩» القناة : الرمح ، والعرب تستعير للعز اسم القناة ، وأعيا عليه الامر : بمعنى أعجزه، يريد أنهم لايذلون لاعدائهم لعزهم المنيع الذى لايرام «١٠» الثقاف : الحديدة التى يقوم بها الرمح ، والعشوزنة : الصلبة الشديدة ، واشمأزت: نفرت، والزبون: الدفوع - جعل القناة التى لايتهيأ تقويمها مثلا لعزتهم التى لاتضعضع ، وجعل قهرها من تعرض لهدمها كنفار القناة من التقويم والاعتدال

متى نعقد قرينتنا بحبلٍ تجذ الحبل أو تقص القرينا[1]
ونوجد نحن أمنعهم ذماراً[2] وأوفاهم اذا عقدوا يمينا

* * *

ونحن غداة أوقد في خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا[3]
وكنا الأيمنين اذ التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا[4]
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب و بالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا[5]

* * *

اليكم يابني بكر اليكم ألما تعرفوا منا اليقينا
ألما تعرفوا منا ومنكم كتائب يطعن و يرتمينا[6]
علينا البيض واليلب اليماني وأسياف يقمن و ينحنينا[7]
علينا كل سابغة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا[8]
وتحملنا غداة الروع جرد عرفن لنا نقائذ وافتلينا[9]
و رثناهن عن آباء صدق ونورثها اذا متنا بنينا
على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا

«١» القرينة: التي تقرن الى غيرها ، والجذ: القطع ، والوقص: دق العنق، والفعل وقص يقص «٢» عهداً وذمة .

«٣» يفتخر بإعانة قومه بنى نزار فى محاربتهم اليمن ، ويوم خزازى هو أعظم يوم التقت فيه العرب فى الجاهلية ، ولم تكن بنو نزار تنتصف من اليمن فلم تزل نزار ممتنعة قاهرة لليمن فى كل يوم يلتقونه بعد خزازى حتى جاء الاسلام «٤» أراد ببنى الاب أبناء عمهم (يعنى مضر) وهذا شائع فى كلامهم «٥» آبوا: رجعوا، مصفدين: مقيدين بالاغلال «٦» يترامون معهم بالنبل .

«٧» البيض: ما يوضع على الرأس فى الحرب مفردها بيضة ، واليلب: الدروع من جلود الابل

«٨» السابغة: الدرع الواسعة التامة ، والدلاص: البراقة ، والغضون: جمع غضن وهو التجعد والتثنى «٩» الروع: الفزع ويريد به الحرب هنا ، والنقائذ: المخلصات من أيدى العدو بعد استيلائه عليها ، والافتلاء: الفطام

يقتن جيادنا ، ويقلن : لستم   بعولتنا اذا لم تمنعونا (١)
اذا لم نحمهن فلا بقينا   لشيء بعدهن ولا حيينا
وما منع الظعائن مثل ضرب   ترى منه السواعد كالقلينا (٢)
وقد علم القبائل من معد   اذا قبب بأبطحها بنينا (٣)
بأنا المطعمون اذا قدرنا   وأنا المهلكون اذا ابتلينا (٤)
وأنا المانعون لما أردنا   وأنا النازلون بحيث شينا (٥)
وأنا التاركون اذا سخطنا (٦)   وأنا الآخذون اذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً   ويشرب غيرنا كدراً وطينا
اذا ما الملك سام الناس خسفاً (٧)   أبينا أن نقر الذل فينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا   ونحن البحر نملؤه سفينا (٨)
اذا بلغ الرضيع لنا فطاماً   تخر له الجبابر ساجدينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا

«١» يقتن: يطعمن ويعلفن «٢» الظعائن : النساء والازواج، مفرد ها ظعينة ، والقلين: جمع قلة وهي الخشبة التي يلعب بها الصبيان يضربونها بالمقلى وهو العود الكبير الذي يضرب به «٣» القبب والقباب: جمع قبة ، والابطح : هو أبطح مكة . والابطح لغة : مسيل أو واد فيه دقاق الحصى

«٤» بأنا : الباء فيه زائدة وليست باء التعدية لأن «علم» يتعدى بنفسه ، ابتلينا : اختبرنا

«٥» شئنا «٦» غضبنا ، أي ان سخطنا على شيء فتركناه فليس في استطاعة أحد أن يجبرنا على أخذه «٧» ظلمهم وقهرهم «٨» جمع سفينة .

٨ — الحارث بن حلزة

من أهل العراق . ينتهي نسبه الى يشكر بن بكر بن وآئل من العدنانيين ، وكان في بكر مكان ابن كلثوم في تغلب، ولكن التاريخ لم يفض الينا من أخباره بغير موقفه بين يدي عمرو بن هند منشداً معلقته التي لم يصل الينا من شعره سواها وسوى قطع يسيرة لانستطيع أن نعين بها طبقته ومكانته وإن أعجبوا بها قديماً و زعموا أنه أجود الشعرآء طويلة . فقد عرفت غير ما مرة أننا لانرتضي مناهج القوم في التفضيل ولا نطمئن الى أحكامهم في الشعرآء كثيراً ، واننا لانثق بكل ما يقولون أو يروون الا بعد التعمق في البحث وطول الاناة والتفكير في مناحيه . . . وقد كان من أمر هذا الموقف وانشاد المعلقة أن عمرو ابن هند جمع بين بني تغلب و بكر ابني وائل وأصلح بينهم بعد حربهم المشهورة بحرب البسوس : وأخذ من كلا الحيين رهائن من أبنائهم ليكف بعضهم عن بعض وليقيد منها للمعتدى عليه من المعتدي . فتعرضت رهآئن تغلب لبعض الشر وهلكت ، فتجنت تغلب على بكر وادعت أن فتيانها نزلوا على مآء لبكر فأجلوهم عنه وحملوهم على البيداء فماتوا عطشاً . وعارضت بكر بأنهم سقوهم وهدوهم الطريق فضلوا وهلكوا ، فتلاحوا ملاحاة عنيفة كادت تستأنف بها الحرب بين القبيلين، فأسرع عقلاؤهم ودعا بعضهم بعضاً الى الصلح ، وتدافعوا الى عمرو بن هند ليحكم بينهم ... فأحس الحارث ميل الملك الى تغلب فنهض وأنشد معلقته التي يقول في أولها :

آذنتنا ببينها أسماء رب ثاو يمل منه الثواء

قالوا : وكان به وضح ، وكان الملك قد أمر أن يمد دونهما ستار أو أكثر من

ستار، فلما طفق ينشد استولى على مجامع قلبه فصار يدنيه شيئاً فشيئاً حتى أمر برفع الستار وأجلسه الى جانبه وقضى لبكر.

* * *

وأكثر أهل الأدب معجبون بهذه المعلقة. ولعل الأصل في إعجابهم زعم بعض الرواة أنه أرتجلها في موقف واحد وهو متوكئ على عصا حتى ارتزت في جسده وهو لا يشعر من شدة الغضب. فاستكثروا ذلك ونال من اعجابهم حتى عدوه بها أجود الشعراء طويلة، وحتى قال أبو عمرو الشيباني «لو قالها في حول لم يلم». والحق أنه لم يرتجلها في موقفه ذاك وإنما كان أعدها قبل إنشادها كما جاء في رواية نقلها ابن الأنباري في شرح المعلقات، والقصيدة نفسها تنطق أنها مقولة في أناة وتفكير: لاحكام نسجها، وتخير الفاظها، وتنوع فنونها. وقد بدأها الشاعر بالتشبيب، وتخلص منه الى وصف الناقة، ومدح الملك، وافتخر بقومه، وأتى على ذكر كثير من أيام العرب فعير التغلبيين مواقع ظهروا عليهم بها وإغارات كانت عليهم لم يستطيعوا أن ينتصفوا لأنفسهم من أصحابها، فكانت من قبيل الملاحم في وصف الوقائع. ومن جيدها المطلع، ثم قوله في وصف التأهب للارتحال، وهو أوجز ماقيل فيه وأحسنه تصويراً للحقيقة:

أجمعوا أمرهم عشاء فلما ... أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء (١)

من منادومن مجيب ومن تصـ ... ـهال خيل خلال ذاك رغاء (٢)

وقوله:

لا يقيم العزيز بالبلد السهـ ... ـل ولا ينفع الذليل النجاء (٣)

«١» اجماع الامر: عقد القلب وتوطين النفس عليه، والضوضاء: الجلبة واختلاط الاصوات

«٢» الرغاء: صوت البعير «٣» الاسراع في السير، يريد أن الشركان عاماً لم يسلم منه العزيز ولا الذليل

ليس ينجي موائلاً من حذار　　رأس طود وحرة رجلاء [1]

وقوله :

إن إخواننا الاراقم يغلو　　ن علينا في قيلهم إحفاء [2]

يخلطون البريء منا بذي الذ　　نب ولا ينفع الخلي الخلاء [3]

أيها الناطق المرقش عنا　　عند عمرو ، وهل لذاك بقاء؟ [4]

لاتخلنا على غراتك ، إنا　　قبل ما قد وشى بنا الاعداء [5]

فبقينا على الشناءة [6] تنميـ　　ـنا [7] جدود وعزة قعساء [8]

ملك مقسط [9] وأفضل من يمـ　　ـشي ومن دون ماله الثناء

أيما خطة [10] أردتم فأدو　　ها [11] الينا تسعى بها الأملاء [12]

فاتركوا الطيخ والتعاشي وإما　　تتعاشوا ففي التعاشي الداء [13]

واذكروا حلف ذي المجاز وماقـ　　ـدم فيه العهود والكفلاء [14]

حذر الجور والتعدي ، وهل ينـ　　ـقض ما في المهارق الأهواء [15]

واعلموا أننا واياكم فيـ　　ـما اشترطنا يوم اختلفنا سواء

«١» وأل وواءل : هرب وفزع ، والحرة : الارض ذات الحجارة السوداء النخرة والرجلاء : الغليظة الشديدة التي يترجل فيها «٢» الاراقم : بطون من تغلب ، والغلو : مجاوزة الحد ، والاحفاء : الالحاح «٣» الخلي : البريء الخالي من الذنب ، والخلاء : البراءة .

«٤» المرقش : المزين كلامه ليجعل الباطل حقاً والحق باطلا ، وهل لذاك بقاء : يريد لا بقاء لقولك لانه باطل ، وكان الباطل زهوقاً .

«٥» الغراة : اسم بمعنى الاغراء وهو الحض على ايقاع العداوة ، و ما : زائدة

«٦» البغضاء «٧» ترفعنا «٨» منيعة ثابتة «٩» عادل «١٠» أمر وطريقة

«١١» فوضوها «١٢» الجماعات من الاشراف ، مفردها : ملأ «١٣» الطيخ : التكبر ، والتعاشي : التعامي وهما تكلف المشي والعمى عمن ليس بمعشي ولا أعمى «١٤» ذو المجاز : موضع جمع فيه عمرو بن هند بكراً وتغلب وأصلح بينهما وأخذ منهما الوثائق والرهون

«١٥» المهارق : جمع المهرق وهو خرقة يطلونها بشيء ثم يصقلونها ثم يكتبون عليها شيئاً واللفظ فارسي معرب مهركرد

عنناً باطلاً وظلماً كما تعـ ... تر عن حجرة الربيض الظباء[1]

أعلينا جناح كندة أن يغـ ... نم غازيهم ومنا الجزاء[2]

أم علينا جرى[3] إياد كما قيـ ... ل لطسم: أخوكم الأباء[4]

ومن شعره:

من حاكم بيني وبيـ ... ن الدهر مال عليّ عمدا

أودى بسادتنا وقد ... تركوا لنا حلقاً[5] وجردا[6]

فلو ان ما يأوي الـ ... ـي أصاب من ثهلان[7] هدا

فضعي قناعك إن ر ... ب الدهر قد أفنى معدا[8]

فلكم رأيت معاشراً ... قد جمعوا مالاً وولدا

وهم ر باب حائر ... لايسمع الآذان رعدا[9]

فعش بجد لا يضر ... ك النوك مالاقيت جدا[10]

والعيش خير في ظلا ... ل النوك ممن عاش كدا[11]

«١» العنن: الاعتراض، والعتر: ذبح العتيرة وهى ذبيحة كانت تذبح للاصنام فى رجب، والحجرة: الناحية، والربيض: الغنم برعاتها المجتمعة فى مرابضها، وقد كان الرجل ينذر ان بلغ الله غنمه مائة ذبح منها واحدة للاصنام ثم ربما ضنت نفسه بها فأخذ ظبياً وذبحه مكان الشاة الواجبة عليه — يقول: ألزمتمونا ذنب غيرنا عنناً باطلا كما يذبح الظبي لحق وجب فى الغنم

«٢» الجناح: الاثم «٣» ذنب «٤» الشديد الامتناع ويعنى به جديساً يقول: يابنى تغلب هل تحملون علينا ذنوب غيرنا كما قيل لطسم أخوكم جديس فنحن نأخذكم بجريرته. «٥» سلاحا «٦» خيلا «٧» اسم جبل

«٨» القناع: ماتستر به المرأة وجهها «٩» الرباب: السحاب الابيض، الحائر: الذى لايتجه جهة كالحائر لايدرى كيف يصنع «١٠» الجد: الحظ، والنوك: الحمق «١١» يريد أن العيش الناعم الرغد فى ظلال النوك خير من العيش الشاق فى ظلال العقل، وفى البيت اخلال اذ لم تف ألفاظه بمراد الشاعر. أنظر معاهد التنصيص ج ١ ص ١٠٣.

وله عدا هذا مقطوعات أخرى في دواوين الأدب تجد منها مقطوعتين اثنتين في (المفضليات) لأبي العباس المفضل بن محمد الضبي (١٨٩ هـ)، وأبياتاً في أخباره في (الأغاني) وغيره.

٩ — عبيد بن الأبرص

هو من بني أسد من مضر. وجل ما تحدث به الأخباريون من سيرته وتناقله المؤلفون لا يبعث على الاطمئنان بل لا يقبل التصديق، وإنما هو أجدر أن يكون من أحاديث السمر. ولعلك لا تعدم من نبهاء الكاتبين القدماء من نبه على أن أكثر أخباره مصنوع يتبين فيه التوليد. وقد نظرنا فيها النظرة فلم يصح عندنا منها إلا ما ألممنا به في هذا الحديث:

فقد عاش عبيد في الأيام التي حكم فيها حجر أبو امرئ القيس على أسد، واتصل به فكان نديماً له، ونظم فيه قصائد. ثم لما أبت أسد أن تدفع الاتاوة لحجر وقتلوا رسله قبض حجر على عبيد فيمن قبض عليهم من زعمائهم فزج به وبهم في السجن، وعطف على أسد يحاربهم فأباح أموالهم وأخرجهم الى تهامة، فقال عبيد قصيدة يستعطفه بها عليهم، واستأذنه بالدخول عليه، فلما مثل بين يديه اندفع ينشدها، ومنها:

برمت[1] بنو أسد كما ... برمت ببيضتها الحمامه
جعلت لها عودين من ... نشم[2] وآخر من ثمامه[3]
ومنعتهم نجداً فقد ... حلوا على وجل تهامه
إما تركت تركت عفـ ... ـواً أو قتلت فلا ملامه
أنت المليك عليهم ... وهم العبيد إلى القيامه

(١) سئمت وضجرت (٢) شجر للقسي (٣) واحد الثمام وهو نبت ضعيف

ذلوا لسوطك مثلما ذل الأشيقر ذو الخزامه[1]

فرق لهم، وصفح عن جريرتهم، فعادوا الى ديارهم، وأطلق سراح الزعماء[2]. ويروون أن عبيداً عمر طويلاً حتى قتله المنذر بن مآء السماء في يوم بؤسه ![3].

* * *

كان عبيد من الفحول، وعده الجمحي في الطبقة الرابعة وقرنه بابن العبد وأمثاله، وقال: « إنه لم يبق من شعر عبيد وطرفة الا قصائد بقدر عشر ». لكن ديوانه الذي طبعته لجنة تذكار جيب بانكلترة مع ديوان عامر بن الطفيل بعناية المستشرق Charles Lyall يشتمل على أكثر من ذلك، وفيه من الشعر الجيد معنى وأسلوباً ما هو عنوان على تبريزه في البلاغة.

ومعلقته التي يقول في طالعها:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب[4]

وبدلت منهم وحوشاً وغيرت حالها الخطوب

جمعت ضروباً من الحكمة، والموعظة، والوصف، ولكن البحر الذي أفرغها فيه ثم سوء الرواية التي أخلت بوزن بعض أبياتها[5] حتى ضرب باختلالها المثل، فقال المعري:

وقد يخطئ الرأي امرؤ وهو حازم كما اختل في وزن القريض عبيد

حجبا محاسنها، وصرفا عنها الانظار، وهي جديرة بالعناية. على أن له قصائد أجل منها سمو معنى واستقامة وزن، وأكثرها خليق أن يعد بدلها من

«١» الاشيقر: مصغر الاشقر، وأراد به الجمل، والخزامة: حلقة تجعل فى أنف البعير.

«٢» ثم عاد واشتط عليهم بالخراج فثاروا عليه وقتلوه «٣» أنظر الرواية فى ذيل الأمالى للقالى (ص١٩٩ و ٢٠٠) وهى فيما يلوح لنا حقيقة مشوبة بباطل وكذب مبالغة فى تمثيل استبداده.

«٤» ملحوب: ماء لبنى أسد بن خزيمة، والقطبيات: اسم جبل، والذنوب: اسم موضع بعينه «٥» انظر الموشح ص٢٥ و ٨١، وكتاب نقد الشعر لقدامة بن جعفر ص٦٨، و(نقض كتاب فى الشعر الجاهلى) للعلامة الجليل محمد الخضر حسين ص ٣٢٠

المعلقات ، فلا أعلم ما الذى حمل القوم على ايثارها ، وعدها من المعلقات تارةً ومن المجمهرات تارة أخرى ـ دون غيرها من شعره الذي تكثر فيه الحكمة البارعة ، والفخر السامي ، والوصف الحسي المادي [1] . . .

ومن أحاسن هذه المعلقة :

تصبو وأنى لك التصابي ؟ أنى وقد راعك المشيب ؟ [2]

فكل ذي نعمة مخلوس [3] وكل ذي أمل مكذوب

وكل ذي غيبة يؤوب وغائب الموت لا يؤوب

أفلح بما شئت فقد يبلغ بالضعـ ـف وقد يخدع الأريب [4]

من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب

لا يعظ الناس من لا يعظ الدهر ولا ينفع التلبيب [5]

ساعد بأرض تكون فيها [6] ولا تقل إنني غريب

قد يوصل النازح النائي وقد يقطع ذو السهمة القريب [7]

والمرء ما عاش في تكذيب طول الحياة له تعذيب

ومن جيده :

ياحار [8] ما طلعت شمس ولا غربت الا تقرب آجالا لميعاد

هل نحن الا كأرواح يمر بها تحت التراب وأجساد كأجساد

«١» أوردنا منه قطعة فى باب النماذج ص ٤٥ وذكرنا أن من الناس من يعزوها الى أوس بن حجر أيضاً «٢» تصبو: تميل الى الصبوة وهى جهلة الفتوة ، راعك : أفزعك «٣» مسلوب «٤» عش كيف شئت ولا تتعب نفسك فقد ينال الضعيف بضعفه مالا يناله القوى بقوته ، والاريب : العاقل «٥» التلبيب : تكلف اللب أى العقل من غير فطرة وغريزة

«٦» أى ساعد على ما فيه صلاحها ونفعها ولا تتنع بدعوى انك غريب عنها «٧» يقول : يعق الناس ذا قرابتهم ويصلون الاباعد فلا يمنعك اذا كنت فى غربة ان تخالط الناس وتساعدهم .

«٨» مرخم حارث .

وقوله و ينسبه بعضهم الى غيره :

الخير يبقى و إن طال الزمان به ‏ ‏ ‏ والشر أخبث ما أوعيت من زاد

وقوله :

اذا أنت لم تعبأ برأي ، ولم تطع ‏ ‏ ‏ انصح ولاتصغي الى قول مرشد
فلم تتقي ذم العشيرة كلها ؟ ‏ ‏ ‏ وتدفع عنها باللسان و باليد ؟
فلست - وان عللت نفسك بالمنى - ‏ ‏ ‏ بذي سؤدد بادو لا كرب سيد [1]
لعمرك ما يخشى الجليس تفحشي ‏ ‏ ‏ عليه ، ولا أنأى عن المتودد [2]
ولا أبتغي ود امرىء قل خيره ‏ ‏ ‏ ولا أنا عن وصل الصديق بأصيد [3]
وإني لأطفى الحرب بعد شبوبها ‏ ‏ ‏ وقد أوقدت للغي في كل موقد
و إني لذو رأي يعاش برأيه ‏ ‏ ‏ وما أنا من علم الأمور بمبتدي :
اذا أنت حملت الخؤون أمانة ‏ ‏ ‏ فانك قد أسندتها شر مسند
ولا تظهرن ود امرىء قبل خبره [4] ‏ ‏ ‏ و بعد بلاء المرء فاذمم أو احمد
ولا تتبعن الرأي منك تقصه [5] ‏ ‏ ‏ ولكن برأي المرء ذي اللب فاقتد
و إن أنت في مجد أصبت غنيمة ‏ ‏ ‏ فعد للذي صادفت من ذاك وازدد
تمنى مرىء القيس [6] موتي، و إن أمت ‏ ‏ ‏ فتلك سبيل لست فيها بأوحد
لعل الذي يرجو رداي وموتي ‏ ‏ ‏ سفاهاً وجبناً أن يكون هو الردي [7]
وللمرء أيام تعد وقد رعت ‏ ‏ ‏ حبال المنايا للفتى كل مرصد [8]

«١» الكرب : القرب ، يقول : لست من ذوي الشرف ولاقريباً من سيد يرفعك

«٢» أنأى : أبعد «٣» الاصيد من يرفع رأسه ويشمخ بانفه تكبراً

«٤» الخبر : الاختبار والامتحان ومثله البلاء «٥» تتبعه «٦» الظاهر أنه أراد به امرأ القيس بن حجر الكندي صاحب المعلقة .

«٧» الهالك «٨» يقول ايام المرء فى الحياة معدودة ، وحبال المنايا منصوبة له في كل مكان فهي ترعاه حتى اذا دنا أجله حالت دونه ودون مايريد

فمن لم يمت في اليوم لابد أنه   سيعلقه حبل المنية في غد

وقوله :

يا أيها السائل عن مجدنا   إنك عن مسعاتنا غافل
إن كنت لم تأتك أيامنا [1]   فسل تنبأ أيها السائل
سائل بنا حجراً غداة الوغى   يوم تولى جمعه الجافل [2]
وعامراً أن كيف نعلوهم   اذا التقينا المرهف الناهل [3]
قومي بنو دودان أهل النهى   يوماً اذا ألقحت الحائل [4]
كم فيهم من سيد أيد [5]   ذي نفحات [6] ، قائل فاعل [7]
من قوله قول ومن فعله   فعل ومن نائله نائل [8]
القائل القول الذي مثله   ينبت منه البلد الماحل [9]
لا يحرم السائل إن جاءه   ولا يعقي سيبه العاذل [10]
الطاعن الطعنة يوم الوغى   يذهل منها البطل الباسل [11]

«١» يريد اخبار ايامنا «٢» سائل بنا: اسأل عنا، والجافل: الهارب المذعور، ويروى بالحاء المهملة
«٣» المرهف: السيف المحدود ، والناهل العطشان «٤» الحائل: التى أتى عليها الحول ولم تحمل ، ولقاح الحائل: كناية عن نشوب الحرب «٥» قوى شديد «٦» عطايا .
«٧» مرفوعان على انهما خبران لمبتدأين محذوفين تقدير كل منهما (هو)
«٨» النائل : العطاء «٩» المجدب «١٠» اى لايحبس عطاءه لائمه على العطاء ويروى (ولا يعفى) بالفاء أى لايمحو «١١» الشجاع الكريه على الاعداء عند اللقاء .

١٠ — لبيد بن ربيعة

هو من بني عامر بن صعصعة من بطون هوازن من مضر. رضع لبان الندى والبأس في بيت رفيع العماد، فشب ثمال أرامل، و مسعر حرب: كان يقال لأبيه « ربيعة المقترين » لجوده وسخائه. وكان عمه ملاعب الأسنة أحد فرسان مضر، فورث منهما صفتيهما. وأول ما اشتهر به انتقامه - وهو حدث - من الربيع بن زياد أحد ذوي المكانة عند النعمان بن المنذر: كان بين قبيلته بني عامر و بين بني عبس أخواله مناجزة وخصومة فاجتمع وفداهما عند النعمان، وعلى العبسيين الربيع، وعلى العامريين ملاعب الاسنة، وكان الربيع قد أوغر صدر النعمان على العامريين وذكرهم بالسوء، فلما دخلوا على النعمان غض منهم وزوى وجهه عنهم، فخرجوا غضاباً يتذاكرون أمر الربيع وما يلقون منه، وكان لبيد يومئذ صغيراً، فسألهم عن خطبهم، فاستصغروه ولم يجيبوه، فألح في المسألة حتى أشركوه، فوعدهم أنه ينتقم لهم منه انتقاماً يحول بينه و بين منادمة النعمان، فكان ذلك إذ هجا الربيع هجاء نفر منه النعمان حتى صرفه عنه، ولم يقبل له عذراً، وأكرم العامريين وقضى حوائجهم فكان هذا أول ما اشتهر به لبيد [1]. ثم مضى يقول الشعر قصاره وطواله، ونظم قصيدته المعلقة ورمز فيها الى أمره مع الربيع فقال:

« ١ » تنبيه:

من غريب اغلاط المؤرخين، القدماء منهم والمحدثين فيما يتحدثون به من حوادث فتك لبيد زعمهم أنه كان على رأس الفتيان الفتاك المائة الذين أرسلهم الحارث الاعرج الغساني لاغتيال المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ... وهذا غلط فاحش حققنا منشأه في رسالة نشرناها في مجلة الزهراء بمصر على أثر بحث نشر فيها وتورط صاحبه فيما تورط فيه غيره، وبينا أن الذي اغتال ملك الحيرة انما هو لبيد بن عمرو لا لبيد بن ربيعة العامري الذي ناظر الربيع في مجلس النعمان حفيد ابن ماء السماء غلاماً، واظهرنا للقوم خطأ آخر أكثر شناعة ذلك هو زعمهم اغتيال المنذر بن ماء السماء غرة والحق أنه لم يقتله أحد وانما قتل في يوم اباغ من أيام العرب بين الغساسنة والمناذرة. اما الذي اغتيل غرة فهو المنذر بن المنذر بن ماء السماء ومغتاله لبيد بن عمرو - انظر مجلة الزهراء م٤ ص ٢٧٥ الى ٢٧٧ و ٤٣٩

وكثيرة [1] غرباؤها مجهولة ... ترجى نوافلها [2] ويخشى ذامها [3]
أنكرت باطلها و بؤت [4] بحقها ... عندي ولم يفخر عليّ كرامها

ثم لما ظهر الاسلام أقبل على الرسول عليه الصلاة والسلام في وفـد من قومه فأسلم و رجع الى بلاد قومه ، فتنسك وشغله القرآن بما فيه من بلاغة تعقد عندها مقاول الأبيناء — عن قول الشعر، فلم يروله في الاسلام إلا أبيات معدودة على الأصح [5] . لذلك عد بين الشعراء جاهليـاً وان عاش في الاسلام طويلاً .
ولما مصرت الأمصار اختار الكوفة دار إقامة له في عهد الفاروق ، ومازال فيها حتى توفي في أوائل خلافة معاوية عام ٤١ هـ [6] وقد عمر نحو ١٣٠ سنة حتي سئم من الحياة وتشكى طولها ، وذلك قوله :

ولقد سئمت من الحياة وطولها ... وسؤآل هذا الناس : كيف لبيد ؟

* * *

امتاز لبيد بحصافة العقل ، و رباطة الجأش ، و كرم النفس ، و وفرة المروءة ، فجرى على سنن أشراف الشعراء ، وكبرت نفسه أن تسف الى مصاف من اتخذ الشعر أداة للكسب ، فشرف شعره بتمثل خصاله النبيلة فيه ، فجاء صادق اللهجة نبيل المقاصد ، رائق الأسلوب ، تروعك حكمته ، و يستهويك فخره ، و يبعث شؤونك رثاؤه الحزين [7] .

«١» أى رب دار كثيرة غرباؤها «٢» عطاياها «٣» عيبها «٤» أقررت «٥» ومن الغريب أن أديباً مصرياً زعم فى كتاب له تقليداً للمتقدمين أن لبيداً لم يقل فى الاسلام الا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله اذ لم يأتنى أجلى ... حتى اكتسيت من الاسلام سربالا

ثم عاد وأورد فيما اختاره له أبياته الاربعة المشهورة التى قالها لابنتيه لما حضرته الوفاة فناقض دعواه وكذب نفسه ، فانظر ماذا يفعل التقليد بالمقلد ؟ «٦» وقد أخطأ من زعم (فى مجلة الزهراء م٤ ص ٤٧) : أن وفاته كانت سنة ٦٠ من الهجرة «٧» طبع ديوانه فى فينا وليدن ، وترجم الى الالمانية، ودون سيرته بيا هوبر (Huber) وكريمر (Kremer) وغيرهما .

أما معلقته فهي مظهر فصاحته وجزالة شعره. ابتدأها بذكر ديار أحبابه وعفائها وما رزقته من أمطار الأنواء الربعية حتى أصبحت مأوى الوحش بعد أن كانت مغنى الانس، ثم وصف شوقه الى ظعائن الحي وقد تحملن وغادرن الديار مجدات في السير، وذكر محبوبته نوار وخلو يده منها واعظاً نفسه بترك حبها جزاء انتكاثها، وبمصانعة المجامل اذا حال عن كرم العهد أو بمفارقته بركوب ناقة عبر أسفار؛ ثم وصف نشاط هذه الناقة في سيرها بالسحابة الصهباء خف مع الجنوب جهامها، ثم أعرض عن ذلك الى تشبيهها بالاتان التي حملت لفحل شديد الغيرة فهو يسوقها سوقاً عنيفاً؛ ثم الى تشبيهها بالبقرة الوحشية التي افترس السبع ولدها حين خذلته وذهبت ترعى مع صواحبها؛ ثم تحدث بأنه اعتاد قضاء وطره بركوب هذه الناقة غير مفرط في طلب بغيته، ووصف نفسه بأنه يصل من استحق الصلة ويقطع من استحق القطيعة؛ ثم وصف الليالي العذاب التي مرت عليه واستلذ فيها لهوه وأحاديث ندمائه، وسخاءه باشتراء خوابي الخمرة لهم عند غلاء السعر، واطعامه للناس، وحمايته للقبيلة مستطرداً الى وصف فرسه؛ ثم افتخر بالمناظرة التي جرت بينه وبين الربيع في مجلس النعمان ملك العرب؛ ثم عاد الى وصف نفسه بالجود بنحر الجزر واطعام الفقراء؛ ثم ختمها بمدح قبيلته، فاستغرقت هذه المواضيع ثمانية وثمانين بيتاً متين السبك شديد الاسر.

ومطلع هذه المعلقة قوله:

عفت الديار محلها فمقامها ... بمنى تأبد غولها فرجامها (١)

ومما مدح به قومه فيها:

«١» منى: اسم لموضع غير الذى بمكة، تأبد: توحش، والغول والرجام: اسمان لموضعين

نا اذا التقت المجـــامع لم يزل   منـا لزاز عظيمة جشامهـا[1]

ومقسم يعطي العشـيرة حقهـــا   ومغذمر لحقوقهـــا هضامهـا[2]

فضلا[3] وذو كرم يعين على الندى   سمح كسوب رغائب[4] غنامها

من معشر سنت لهم آباؤهم[5]   ولكل قـوم سـنة وإمامهـا

لا يطبعون ولا يبور فعـالهم   إذ لا تميل مع الهوى أحلامهـا[6]

فاقنع بمـا قسم المليك فانمـا   قسم الخلائق[7] بيننا علامهـا

واذا الامانة قسمت في معشر   أوفى[8] بأوفر حظنا قسامهـا

فبنى لنا بيتـاً رفيعـاً سمكه[9]   فسما اليه كهلها[10] وغلامهـا

وهم السعاة اذا العشيرة أفظعت[11]   وهم فوارسهـا وهم حكامهـا

وهم ربيـع للمجـاور فيهم   والمرملات[12] اذا تطاول عامها

وهم العشيرة أن يبطئ حاسد   أو أن يميـل مع العدو لئامهـا[13]

ومن غرره قوله يرثي أخاه (أربد):

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع   وتبقى الديار بعدنا والمصانع[14]

«١» لزاز عظيمة: صالح لان يلز أى يقرن بها لتذليلها، والجشام: الذى يتكلف من الامور ما فيه عسر ومشقة «٢» الغذمرة: التغضب، والهضم: الكسر والظلم. يريد أن السيد منا يتغضب عندا ضاعة شيء من حقوق العشيرة، ويوفرها عليهم بالهضم من حقوق نفسه

«٣» أى يفعل ذلك تفضلا «٤» جمع رغيبة وهى مارغب فيه من علق نفيس أو خصلة شريفة «٥» المفعول محذوف تقديره: كسب رغائب المعالى واغتنامها «٦» الطبع: تدنس العرض، والبوار: الفساد والهلاك، والاحلام: العقول «٧» السجايا «٨» وفى ولم ينقص

«٩» سقفه، وأراد أنه رفيع شرفه لان المراد بالبيت هنا المجد «١٠» هو من وخطه الشيب أو تجاوزت سنه الثلاثين الى الخمسين «١١» أصيبت بأمر فظيع «١٢» النساء اللاتى فنى زادهن «١٣» هم متكاتفون كراهية أن يبطئ حاسد بعضهم عن نصر بعض أو أن يميل لئامهم الى الاعداء فيظاهرونهم على الاقارب «١٤» المبانى من القصور والحصون

وقد كنت في أكناف جار مضنة نفارقني جار بأربد نافع (١)

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا فكل امرئ يوماً به الدهر فاجع (٢)

وما الناس الا كالديار وأهلها بها يوم خلوها وراحوا بلاقع (٣)

وما المرء الا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع (٤)

وما المال والأهلون الا ودآئع ولا بد يوماً أن ترد الودآئع

وما الناس الا عاملان : فعامل يتبر (٥) ما يبني ، وآخر رافع

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع

* * *

أليس ورآئي إن تراخت (٦) منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت أدب كأني كلما قمت راكع

فأصبحت مثل السيف أخلق جفنه تقادم عهد القين والنصل قاطع (٧)

فلا تبعدن إن المنية موعد علينا : فدان للطلوع ، وطالع

أعاذل ما يدريك - الا تظنياً - اذا رحل السفار من هو راجع (٨)؟

أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى وأي كريم لم تصبه القوارع ؟

«١» الاكناف : جمع كنف وهو الجانب والظل ، جار مضنة : جار يضن أى يبخل بفراقه ، وأربد : أخو الشاعر ، وقد تصحفت الكلمة على بعض الادباء فظنها «أربة» وذهب فى تفسيرها مذاهب. «٢» فجعه الامر : اذا أوجعه بفقد شيء كريم عليه

«٣» جمع بلقع وهو الارض القفر «٤» الشهاب هنا شعلة من النار ساطعة أى مرتفعة منتشرة ، ويحور : يرجع «٥» يخرب ويهدم «٦» تباعدت وابطأت «٧» أخلق : أبلى ، والجفن : القراب ، والقين : الحداد ، والنصل : حديدة السيف والرمح ،

«٨» التظنى اعمال الظن والتكلم به ، والسفار : المسافرون.

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى   ولا زاجرات الطير ما الله صانع [1]

وقال من قصيدة في رثاء النعمان:

ألا تسألان المرء: ماذا يحاول [2] ؟   أنحب فيقضى أم ضلال وباطل [3] ؟
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم   بلى. كل ذي لب الى الله واسل [4]
ألا كل شيء ما خلا الله باطل [5]   وكل نعيم لا محالة [6] زائل
وكل أناس سوف تدخل بينهم   دويهية تصفر منها الأنامل [7]
وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه   اذا كشفت عند الاله الحصائل [8]
اذا المرء أسرى ليلة خال أنه   قضى عملاً والمرء ما عاش عامل
حبائله مبثوثة في سبيله   ويفنى اذا ما أخطأته الحبائل [9]
فقولا له - إن كان يقسم أمره -:   ألما يعظك الدهر؟ أمك هابل [10] !
فتعلم أن لا أنت مدرك ما مضى   ولا أنت مما تحذر النفس وآئل [11]
فان أنت لم ينفعك علمك فانتسب   لعلك تهديك القرون الأوائل [12]
فان لم تجد من دون عدنان والداً   ودون معد فلتزعك العواذل [13]

«١» الطرق بالحصى: التكهن لادراك الغيب بحصى يطرق الكاهن بعضها ببعض فيلوح الغيب له حينئذ بزعمه، والزجر: الاستدلال بأصوات الحيوانات وحركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام المغيبات - أنظر تفصيل المبحثين في بلوغ الارب ج٣ ص٣٠٧ الى ٣٢٦ الطبعة الثانية «٢» ما الذي يطلبه «٣» النحب: النذر والوقت والمدة «٤» الواسل: الطالب والراغب الى الله بالطاعة والعمل الصالح «٥» أى هالك وهو فى الاصل ضد الحق «٦» لابد «٧» الدويهية: الموت، والتصغير هنا للتعظيم، والانامل: رؤوس الاصابع «٨» جمع حصيلة، والمراد نتائج الاعمال من حسنات وسيئات «٩» جمع حبالة وهى المصيدة، ومعنى يفنى يهرم «١٠» يقسم: يدبر، وهبلته أمه: ثكلته «١١» ناج «١٢» أى لعلك اذا انتسبت الى ابائك ونظرت الى مصارعهم فى القرون الخالية واحداً بعد الآخر حتى لم يبق منهم باق - تهدى وترشد «١٣» يقول: فان لم يبق لك أب حى الى عدنان ومعد فلتكن لك حوادث الزمان وغير الدهر عبرة تعتبر بها، ومعنى تزعك: تكفك.

ومن أمثاله السائرة :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم و بقيت في خلف كجلد الأجرب

وقوله :

اكذب النفس اذا حدثتها إن صدق النفس يزري بالأمل

وقوله :

ماعاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

§ الخط والعلوم §

لهذين الفصلين موضع آخر من الكتاب هو أملك بهما فيما نرى ، لذلك أنسأنا القول فيهما اليه في آخر هذا الجزء .

العصر الاسلامى

عصر صدر الاسلام والدولة الاموية

العصر الاسلامي

عصر صدر الاسلام والدولة الاموية

الفصل الاول

اللغة

خضوع العربية لقوى مؤثرات الاجتماع — توحد فروعها وتمثلها كلها في لغة قريش — اثر الفتوح في ذلك — اتساع اغراضها — ارتقاء معانيها — تلطف اساليبها — توسعها بالتعريب والدلالات والمواضعات — القرآن الكريم، والحديث النبوي واثرهما الخالد .

اللغة — كما يقولون — كائن حي خاضع لقوى المؤثرات التي تعتوره . . . وقد علمت هذه الحقيقة المسلمة مما بسطناه في « العصر الجاهلي » من أمر امتزاج اللغة العربية وتهذيبها ، فقد كانت في أول أمرها متفرعة الى لهجات متمايزة ولغات متباعدة ثم مازالت سائرة الى حظيرة الوحدة رويداً رويداً حتى بلغتها أو كادت بتأثير عوامل الاجتماع التي كان من أهمها خطراً وأبعدها أثراً تلك الأسواق التجارية اللغوية والمجتمعات العامة المتنوعة التي كانت الزعامة فيها لقريش وحدها — فتمثلت لغات العرب ولهجاتها في لغة قريش حتى انتحلها شعراء القبائل وفصحاؤها لصفائها ولمكانتهم الدينية في مكة متوجه العرب الى

الحج الأكبر، ولم يكن يجاذبها رداء التغلب يومئذ إلا الحميرية بالرغم من تغلغل المضرية عليها في مواطنها و إخضاعها لحكمها. فلما انبلج فجر الاسلام ونزل بها القرآن الكريم وكان من بنيها النبي (ص) وعظماء الزعماء القائمين معه بأمر الدعوة وتمثيل سياستها — تم لها الفوز والظفر، فغمرت سائر اللهجات وأصبحت « اللغة الرسمية » في الدين والسياسة والعلوم والآداب. فكان فضل القرآن على توحيد اللغة ونشرها وحفظها من البلبلة عظيما.

لا ريب أن الاسلام أعظم حادث عرفه التاريخ... بدل أساليب الحياة في أقطار الأرض، وكون من العرب المتنابذين أمة كانت خير الناس وأعز الأمم: دينها واحد، ولسانها واحد، وأمرها واحد، فخرجوا من تلك الجزيرة متناصرين ينشرون الهداية الاسلامية و ينيرون بها سدف الآفاق المدلهمة، وهم من عرفت حياتهم الاجتماعية والمعاشية في الجاهلية، فأوغلوا في الأرض يفتحون الأمصار حتى ركزوا أعلامهم الخفاقة شرقاً وغرباً من ضفاف الكنج الهندي الى ضفاف اللوار الفرنسي، وشادوا مجداً عظيماً وملكاً كبيراً كان أساسهما العلم والعدل والتقوى. فكان لذلك الانقلاب وتلك الفتوح أثر — وأي أثر — في الفكر والاخلاق والسياسة والاجتماع، لم يكن للغة بد من الخضوع لحكمه والتأثر به، ولكنه لم يظهر كل الظهور إلا بعد أن استوسق لبني أمية الأمر واستقر لهم الحكم.

ويجمل ذلك في أمور أربعة: في اتساع أغراضها، وارتقاء معانيها، وازدياد ألفاظها وتلطف أساليبها، وتفشي اللحن.

١ — **أما أغراضها** فبعد أن كانت لا تعد وأغراض الحياة البدوية اتسعت في هذا العصر المدني فخضعت للتعبير عن عقائد الدين: من نحو البحث في إثبات

وجود الصانع وتوحيده وتنزيهه ، وفي النبوات وما توجبه من الايمان بالبعث والاعادة ونحو ذلك مما لم يفقه شيئاً منه في الجاهلية إلا بعض المفكرين من خواص العرب كقس بن ساعدة، وورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهم؛ وخضعت للتعبير عن الأحكام العامة أو الفقه المستنبط من أصول الشريعة وقواعدها الكلية مما يلائم المصلحة العامة في كل زمان ومكان؛ ثم لمقتضيات الحضارة والعمران وأنظمة الملك التي استدعاها الفتوح والانتشار؛ ولمصطلحات العلوم اللسانية والكونية التي دون بعضها في أواخر العهد الأموي أو نقلت الى العربية بعد ذلك .

ب — **وأما معانيها** فقد اتسعت باتساع الأغراض وتنوع المناظر الجديدة ، ولطفت بارتقاء الفكر وثقافة الطباع والأخلاق بتدبر آي الكتاب، ومواعظ الرسول ، والاقتباس الحكيم من حضارات الأمم .

ج — **وأما الألفاظ والأساليب** فقد لطفت وتهذبت بتلطف الطباع وتدمث الأخلاق ، وبمجانبة ماينبو عنه السمع ولا تستمرئه الحاسة الفنية أو الذوق من حوشي الألفاظ ونوافر الكلم ، وبمحاكاة أساليب التنزيل وبيان الرسول وهما ما هما في بشاشة المعاني وجمال الألفاظ وجلال البلاغة وإعجاز الاعجاز مما يملأ القلوب روعة ويملكها إعجابا . ثم اتسعت مادة الألفاظ بتعريب الأعجمي بسبب الاختلاط واقتباس مرافق الحضارة وأسباب العمران ، وبدلالاتها باخراجها من معانيها الى معان أخرى كما فعل القرآن والحديث في ألفاظ كثيرة لسنا بسبيل احصائها في هذا المقام . وانما نضرب لك أمثالا تتبين منها ماركب في طبع هذه اللغة من المطاوعة في تنوع الصور وتحول المعاني ، ومبلغ مرونتها وخضوعها لما يجد من الحاجة ووسائل الحياة، وان جهل ذلك من جهل، فرماها

بالاطلاق، وضيق العطن والنطاق. من أمثلة ذلك لفظ « المؤمن » فان العرب إنما عرفته من الأمان والايمان وهو التصديق، فاستخدمته الشريعة و زادت شرائط وأوصافاً بها سمي المؤمن بالاطلاق مؤمناً . و « الاسلام » و « المسلم » إنما عرفت منه إسلام الشيء ثم جاء في الشرع من أوصافه ما جاء . و « الكفر » وكانت لاتعرف منه كذلك الا الغطاء والستر كما قال لبيد « في ليلة كفر النجوم ظلامها » . و « النفاق » كان في الأصل من « نافقاء » اليربوع وهي احدى جحرته يكتمها و يظهر غيرها فاذا أتي من جهة القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج منه ، فأطلق في الشرع على من يستر الكفر و يظهر الايمان . و « الفسق » لم يعرفوا فيه الا قولهم فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرها وجاء الشرع بأن الفسق الافحاش في الخروج عن طاعة الله تعالى لانسلاخ صاحبه عن الخير انسلاخ الرطبة عن قشرها . و « الصلاة » في الأصل الدعاء وقد كانوا يعرفون الركوع والسجود وان لم يكن على هذه الهيأة في الاسلام ، قالوا أسجد الرجل اذا طأطأ رأسه ، وأنشدوا « فقلن له أسجد لليلى فأسجدا » يعني البعير اذا طأطأ رأسه لتركبه . وكذلك « الصيام » و « الحج » و « الزكاة » لم يكن فيها عندهم غير معنى الامساك والقصد والنماء ثم زاد الاسلام فيها ما زاد من الشرائع والاوصاف . وعلى هذا القياس سائر ألفاظ التشريع، وما استحدثه أهل العلوم والفنون والصناعات من الأسماء التي يعسر استيفاؤها كموضوعات التفسير والحديث ، والأصول، والصرف ، والنحو ، والبيان، والعروض ، والقافية، وغيرها مما يكون له اسمان لغوي وصناعي . واذا كان الاسلام قد أمد في عمله هذا اللغة، بل كون من هذه اللغة لغة وخلق منها روحاً كان قوام حياتها وعلة خلودها ـ فقد أمات ألفاظاً حظر الشارع استعمال مدلولاتها أو كره النطق

بها ، ولكن ما أماته ليس بالشيء الكثير . على أنه أعاض من بعضها غيره لمساس الحاجة اليه . فمما أماته « المرباع » لربع الغنيمة الذي كان يأخذه الرئيس في الجاهلية . و « النشيطة » لما كانوا يغنمونه من غير أن يعمدوا له . و « الفضول » لما يفضل من القسمة مما لا يمكن قسمه على الفرسان الغزاة كفرس أو بعير و يكون من نصيب فارس الغارة أيضاً . وقد أبطل الاسلام هذه الاعمال فبطل استعمال هذه الكلمات لزوال معانيها وعدم الحاجة اليها . ومن الممات أيضاً « الاتاوة » للرشوة والخراج أو الرشوة على الماء خاصة . و «المكس» لجباية المال في البيع ولما يؤخذ من بائعي السلع في الاسواق[1] . و « الحلوان » لما يعطى للكاهن أو للمرأة على متعتها . وقولهم في تحية بينهم « أنعم صباحاً » و « أنعم ظلاماً » ، وفي تحية ملوكهم « أبيت اللعن » ، وقول المملوك لمالكه « ربي » ، وخطاب الملوك بالأرباب ، وتسمية من يدع النكاح تبتلا « صرورة » . . . ومما كره النطق به من الألفاظ قول القائل « خبثت نفسي » وأحسن منه لقست نفسي . وقولهم « استأثر الله بفلان » ، ونحو ذلك .

د ــ **وأما اللحن** : فهو من لوازم الاختلاط بمجاورة الأعاجم ومصاهرتهم ، والقول في نشأته وتكونه موضع آخر هو أملك به .

***

و إذ كان هذا الانقلاب الجديد في حياة اللغة إنما يعود أكثره الى (القرآن) و (الحديث) فقد وجب أن نقفك من أمرها على مالا بد منه بايجاز ، ولا يغرب عنك أن ايفاء مطالبهما حقها هو مما تستنفد دونه الجهود ثم لا تنتهي منه الى الى مداه ، ولا تبلغ الوطر الى أخراه .

---

(١) وقد بعثت هذه الكلمة اليوم لرجوع الحالة الى ما كانت عليه في العهد الجاهلي .

١ ـــ القرآن

وصفه ـــ اعجازه ـــ أثره في اللغة ـــ تاريخ نزوله وجمعه

قبس من نوره

القرآن كتاب سماوي، ومعجز إلهي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» أنزل على الرسول العربي العظيم (محمد بن عبد الله القرشي) بلسان عربي مبين هداية عامة للبشر، ورحمة للعالمين بما فيه من قواعد الاجتماع الثابتة، وسنن العمران المحكمة، وآداب الفطرة الانسانية، وأصول الحكم الكلية المبنية على درء المفاسد وحفظ المصالح والموافقة للمنفعة العامة في كل زمان ومكان ... فحير المداره ودله البلغاء وشده فحول البيان، فآمن به من تفتح قلبه من أرباب العقول الحرة والمستقلين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وكفر به من عميت بصيرته من المستكبرين وأولي الحمية والهوى والعناد؛ ثم نبزوا النبي بما شاؤوا وشاء لهم الهوى فقالوا: شاعر وساحر وكذاب ورجل يكتتب أساطير الأولين وانما يعلمه بشر وأمثال ذلك، فتحدى أمراء الكلام وزعماء الحوار منهم أن يأتوا تكذيباً له بمثله، ثم بعشر سور من مثله مفتريات لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة وليس الا النظم والأسلوب فعجزوا. فاستفزهم ـ بعد ـ جملة واحدة لأن يأتوا بسورة من مثله فقال «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» فأحصروا وما استطاعوا أن يأتوا بشيء على شدة

حرصهم على إبطال دعوته ، واخفات صوته ، واجتثاث نبتته . فبانت حجته ، وتحقق إعجازه ، ودل ذلك على عجزهم ، و«العرب يومئذ كما قال الجاحظ أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ، وأحكم ما كانت لغة ، وأشد ما كانت عدة » وهذا هو النهاية في التحدي . أجل : « لقد أعجزتهم [1] مزايا ظهرت في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، و بدائع راعتهم في مبادئ آيه ومقاطعها ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير وترغيب وترهيب ، ومع كل حجة و برهان وصفة وتبيان ، و بهرهم أنهم تأملوه سورة سورة وعشراً عشراً وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى وأخلق ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز الجمهور ، ونظاماً والتئاماً و إتقاناً و إحكاماً لم يدع في نفس بليغ منهم ولو حك بيافوخه السماء موضع طمع حتى خرست الألسن عن أن تدعي وتقول ، وخلدت القروم فلم تملك أن تصول» . فعلا حكمه وغلب سلطانه ، ثم كان له من الأثر الجليل الخالد في جميع صنوف الحياة ، ومنها اللغة ، ما لا يدانيه أثر أي مؤثر غيره . فكان هذا أيضاً معنى آخر من أدق معاني إعجازه ، وأجلها خطرا .

* * *

أما أثره في اللغة ، وهو ما يعنينا ذكره ، فأنه نزل بلغة قريش فجمع العرب عليها ، وصانها بذلك من التبدل بالاختلاط والامتزاج ، ثم نشرها في الاصقاع النائية فانتشر معها العلم والأدب والفن ، ووسع دائرتها وزاد في ثروتها باستحداثه ما أشرنا الى بعضه في مميزات اللغة ، بل ضمن لها حياة الخلود ، فأصبحت به وهي لغة الملايين المؤلفات في مختلف العلوم والفنون والآداب . ومن جملة العلوم

«١» عبدالقاهر الجرجاني في كتابه اعجاز القران .

التي كان أثره في تدوينها أبين، بل لولاه لما اهتدي اليها ـ علوم الأدب، والتأريخ، واللغة، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، ورسم الخط، والتفسير، والحديث، والقرآآت، والفقه، وأصول الفقه، وأصول الحديث، وغير ذلك مما سنقول في نشأة بعضه حيث يكون موضعه.

∴

وقد أنزل هذا القرآن منجماً في بضع وعشرين سنة حسب اقتضاء الوقائع والاحوال التي تجد في المجتمع الاسلامي ليتدرج بتلك الأمة في تحويلها من عاداتها وأخلاقها وطبائعها على السنة الطبيعية. وكان ابتداء نزوله ليلة السابع عشر من شهر رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاد النبي حيث أوحي اليه وهو في غار حراء الذي كان يتحنث فيه بأول آية وهي « بسم الله الرحمن الرحيم * إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق، إقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » الى تاسع ذي الحجة يوم الحج الأكبر للسنة العاشرة من الهجرة والثالثة والستين من ميلاده حيث أوحي اليه بآخر آية وهي « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا ».

ومجموع سور القرآن أربع عشرة ومائة سورة، ونحو ١٩/٣٠ منه مكي وهو ما نزل عليه (ص) بمكة مدة مقامه فيها وهي اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً من ١٧ شهر رمضان سنة ٤١ الى أول شهر ربيع الأول سنة ٥٤ من ميلاده ونحو ١١/٣٠ منه مدني وهو ما نزل عليه ما بعد الهجرة الى المدينة وهي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من ١ شهر ربيع الأول سنة ٥٤ الى ٩ ذي الحجة سنة ٦٣ من ميلاده.

∴

• وكان القرآن ينزل على النبي خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وكان

أمياً لايقرأ ولا يكتب (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون) فكان يتحمل ماينزل عليه ويحفظه ثم يبلغه الناس ، ويأمر كتاب وحيه « كعلي ومعاوية ومعاذ وأبي وزيد بن ثابت وابن مسعود » بكتابته بين يديه ، فكانوا يكتبونه على ما اتفق لهم من العسب [1] والكرانيف [2] واللخاف [3] وعظام الأكتاف وقطع الأديم [4] ، وهو يرشدهم الى مواضع الآي من السور ، فتوفي (ص) والقرآن في الصدور وفيما كتبوه عليه لم يجمع في مصحف واحد . وكان عدد الحفاظ يومئذ كثيراً ومنهم من كان يحفظه كله . فنهض أبو بكر بأمر الاسلام وقاتل أهل الردة ، وكان أكثر المقاتلة من الصحابة والقراء ، فقتل منهم في وقعة اليمامة وحدها سبعون قارئاً وقيل بل سبعمائة ، فهال ذلك عمر بن الخطاب وخشي أن يضيع القرآن بضياع حفظته ، فداور أبا بكر حتى أقنعه بوجوب جمعه في مصحف واحد ، فعهد بذلك الى زيد بن ثابت لأنه حافظ ولأنه من كتاب الوحي ، وأعاناه بغيره في الجمع والاستقصاء ، فجمعه من السطور والصدور ، وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر ، ثم صارت بعده الى عمر ، ثم صارت الى ابنته السيدة حفصة أم المؤمنين وبقيت عندها صدراً من ولاية عثمان ، ويومئذ كثرت الفتوح واتسعت رقعة الدولة وانتشر القراء في الأمصار يقرئون الناس القرآن بلهجاتهم ، وكانت على شيء من الاختلاف في بعض أحرف القرآن لاختلاف لغاتهم ولهجاتهم ، فبلغ ذلك الخليفة عثمان بن عفان سنة ٢٥ هـ ، فاستعظم الأمر وخشي أن يجر ذلك الى الاختلاف في الدلالة والتصرف بالألفاظ ، فأخذ تلك الصحف من السيدة حفصة ، وأمر زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ،

«١» السعف الذي لم ينبت عليه الخوص من الجريد «٢» أصول السعف التي تبقى في جذع النخلة ، الواحدة كرنافة «٣» حجارة بيض رقاق ، واحدها لخفة «٤» الجلد .

وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ،فنسخوها في مصحف واحد مرتب السور واقتصروا فيه على لغة قريش لأنه به انزل . ثم بعث عثمان الى كل أفق (كمكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة) بمصحف مما نسخوا، وأبقى لنفسه مصحفاً عرف بالمصحف الامام، وأمر بما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف أن يحرق،فأحسن بصنيعه هذا إحساناً يذكر مقروناً بالتجلة والأعظام،

* * *

واليك قبساً من نور هذا الكتاب المشرق يضيء لك ما انبهم من سبل الأخلاق، وليس كالقرآن كتاب هداية ومطلع نور ومنجم بلاغة يرشد ويبصر ويثقف، فقلب الطرف في هذه الآيات البينات وانظر أي مدى قد بلغ هذا الفرقان في سداده وايجازه واعجازه .

قال الله تعالى (سورة الاسراء — الجزء الخامس عشر) :

وقضى ربك أن لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريما .واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا . ربكم أعلم بما في نفوسكم ان تكونوا صلحين فانه كان للأوابين [1] غفورا . وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا. إن المبذرين كانوا اخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا . وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا . ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا [2]. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيرا. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق [3]، نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم

(١) الراجعين الى طاعته (٢) منقطعا لاشيء عندك (٣) فقر.

كان خطأ [1] كبيرا . ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل [2] إنه كان منصورا . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا . وأوفوا بالكيل اذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا ، ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا . ولا تمش في الأرض مرحاً [3] إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا . كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها :

ب — الحديث

وصفه ومباينته لاسلوب القرآن — شغف المسلمين بروايته وضبطه — أثره في اللغة — قبس منه .

هو صوب العقل الملهم ، وذوب القلب الملتاع ، وكهربية الروح العلوية : عمره جلال الوحي ، وسكنه نور الحكم ، وصقله لسان النبوة ، فاستبد برداء الحسن وذهب برواء البلاغة ، فأناف على كل كلام حر محقق ما خلا كلام الله الذي لا تنقضي عجائبه ، ولا تخلق على كثرة الترداد جدته ، كما يعرف ذلك كل من خلع من عنقه ربقة العصبية والهوى ثم أوتي حظاً من الذوق ، وجرى على عرق في البلاغة ، وأدرك ما بين لغة ولغة وما بين أسلوب وأسلوب ؛

وحديثه صلى الله عليه وسلم ليس مما كان يتكلف له وإنما هو عفو الخاطر

«١» أثما «٢» بأن يقتل غير القاتل «٣» تبختراً واختيالا

وفيض البديهة مما يجريه في دعوة الى حق ، وتوضيح قرآن ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، بايجاز كلما قلبت النظر في أعطافه ، وأعطيته حقه من التأمل في وجوهه أصبت منه معنى جديداً ، واكتسبت فائدة تستمد منها سدادك ورشادك.

ولهذا شغف المسلمون بحفظه ، وعنوا بتدوينه عناية لم يقع مثلها لأي أمة غيرهم في حفظ كلام رسولها . فقد انتصبوا لحراسته ، ونشطوا لتلقيه وضبطه وشرحه وتصحيح أسانيده واستنباط أحكامه ، ووعى الكثيرون منه الى يومنا هذا مالا يقوم به العد والاحصاء . فكان أحدهم يرحل المراحل ، ويجوب أجواز القفار ، ويقطع متون البحار ، وتطول به بين تلك وهذه الأسفار ، من أجل حديث واحد . وقد كان لهذه العناية بحديث سيد الفصحاء أثرها في الملكات ، وتقويم الألسن وصقل الحواشي ، وللحديث أثره في توسيع دائرة اللغة بما أحدثه من الوضع والاصطلاح بالاشتقاق والمجاز والاستعارة والكناية . وبلغاء العرب ، وان كانت تفعل ذلك ، غير أنها في أكثره إنما تتسع في شيء موجود ولا توجد معدوماً الا نادراً ولا سيما أوضاع التراكيب التي هي مظهر أسرار اللغة وجمال البيان.

ومن جوامع كلمه وروائع حكمه صلى الله عليه وسلم :

علموا ويسروا ، وبشروا ولا تنفروا ، واذا غضب أحدكم فليسكت .
— الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها التقطها . — إياكم والظن فانه أكذب الحديث ، ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً كما أمركم الله . — إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . — استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان . — اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك . — إصنع

المعروف الى من هو أهله والى من ليس أهله، فان أصبت أهله فهو أهله، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله. — من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه. — آية المنافق ثلاث: اذا حدث كذب، واذا وعد أخلف، واذا اؤتمن خان. — المسلم من سلم الناس من يده ولسانه. — لا ضرر ولا ضرار. — شر الناس من أكرمه الناس اتقاء شره. — كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته. — لاخير في صحبة من لا يرى لك مايرى لنفسه. — لايؤمن أحدكم حتي يحب لأخيه ما يحب لنفسه. — دع ما يريبك (١) الى مالا يريبك. — بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. — كرم المرء دينه ومروءته عقله وحسبه خلقه. — من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه. — من كان آمراً بمعروف فليكن أمره ذلك بمعروف. — إن الدين يسر ولن يشاد (٢) أحدهذا الدين الاغلبه فسددوا وقاربوا. — يد الله مع الجماعة. — اليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول (٣). — الفضل في أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك. — الناس كابل مائة لاتجد فيها راحلة واحدة (٤). — الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف. — ماعال من اقتصد. — ما أعز الله بجهل قط ولا أذل بحلم قط. — لايمنعن أحدكم مهابة الناس أن يقوم بالحق اذا علمه. — أفضل الجهاد كلمة حق عند أمير جائر. — مثل المنافق كمثل الشاة العائرة (٥) بين الغنمين. — مثل الجليس الصالح مثل الداري (٦) ان لم يحذك

«١» يجعلك شاكا فيه لست على بينة منه «٢» شاده: غالبه وفى الامر لغ فيه

«٣» عال الرجل عياله: قام بما يحتاجون اليه من قوت وكسوة ونحوهما «٤» يعنى أن المرضى المنتجب من الناس فى عزة وجوده كالنجيب من الابل القوى على الاحمال والاسفار الذى لايوجد فى كثير من الابل «٥» المترددة المتحيرة «٦» بائع الطيب نسبة الى دارين فرضة فى البحرين يجلب اليها المسك

من عطره علقك من ريحه ، ومثل الجليس السوء مثل صاحب الكير [1] إن لم يحرقك من شرره علقك من نتنه . ـ

ومن روائع تمثيله لضرر الحرية الفردية اذا لم تتقيد بالمنفعة العامة مارواه الجاحظ في البيان والتبيين من حديث عبدالله بن المبارك :

أن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ فقال : هو مكاني أصنع فيه ما شئت ، فان أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا .

«٧» المنفاخ

الفصل الثاني

النثر

— لغة التخاطب — الخطابة — الكتابة —

١ — لغة التخاطب

اللحن — أوليته وأثر الفتوح فيه — صدر عاديته — محافظة الأمويين على سلائقهم — تغلب العامية في البدو والحضر.

كانت لغة التخاطب في العصر الجاهلي هي اللغة الفصيحة المعربة، وجاء الاسلام وهي بين عرب البادية على ما كانت عليه الى أواخر القرن الرابع الهجري فبدأت ألسنتهم تزيغ عن نهج الاعراب وتضطرب لملابستهم أهل الأمصار، وقوة سلطان العامية. وقد كانت لها طيرة على عهد النبي (ص) حين انتشر الاسلام واختلط فيه الأحمر بالأسود، فقد روي أن رجلاً لحن بحضرة النبي فقال: «أرشدوا أخاكم فقد ضل» فكان ذلك أول لحن سمع النبي العربي فاستهجنه ونسب صاحبه الى الضلال. ثم لما فتحت الروم وفارس، وكثر الداخلون في دين الله، ولابس العرب الفاتحون الأعاجم بتوطن بلادهم ومصاهرتهم -- نشأت لهم ذرية مختلطة اللغة تتلقاها عن الآباء عربية فصحى، وعن الامهات لغة مشوبة منها ومن الأعجمية، وأقبل الأعاجم على تعلم العربية ليتفهموا القرآن وحديث النبي فمالت بها سلائقهم الى أسلوب لغاتهم ومخارج

حروفها، ففشا اللحن واستفحل أمر التحريف والتصحيف وكثر الدخيل حتى تكونت من ذلك لغة عامية سوقية أصابت من كل لسان، وكادت تعصف بالفصحى فتأخذ مكانها لو لم ينشط أبو الأسود الدؤلي (المتوفى سنة ٦٩ هـ) وغيره لصد عاديتها وعصمة الفصحى بالتدوين ووضع الأصول. على أن كثيراً من سراة العرب ورجالاتهم في هذا العصر تعصبوا لأعراقهم أن يجري فيها غير الدم العربي فتحاموا مصاهرة الأعاجم، وبالغوا في المحافظة على سلائقهم ولغتهم فكانوا يأخذون أولادهم بالاعراب أخذاً شديداً اذ يعتبرون اللحن هجنة لا تجمل بالعربي. وأثر عن الملوك من بني أمية أنهم كانوا يلزمون أولادهم البادية: لتستقيم لهم السلائق، وينطبعوا على فصاحة المنطق، فيخلصوا من هجنة العجمة وسبة اللحن. وقد ندم عبد الملك بن مروان إذ لم يرسل ابنه الوليد الى البادية فقال: « أضر بالوليد حبنا له فلم نوجهه الى البادية ». على أن البادية لم تستطع أن تحتفظ بلغتها وتصد عادية العامية اذ هجمت عليها وتغلغلت في مواطنها أواخر القرن الرابع الهجري حتى أخضعت لحكمها كل لسان عربي الى يومنا هذا..!

ب — الخطابة

موازنة بين الخطابة في هذا العصر وفي العصر الجاهلي — أثر الاسلام والأحزاب السياسية فيها — دواعي العناية بها — كثرة نبوغ الخطباء — مميزاتها في هذا العصر — نماذج منها — أشهر مشاهير الخطباء : الخلفاء الراشدون — سحبان وائل — زياد بن أبيه — الحجاج بن يوسف الثقفي .

تحدثنا اليك في « العصر الجاهلي » عن الخطابة بأنها في العرب سليقة لايعانونها وإنما هي أن يحفز الرجل منهم داع صغير أو كبير فينطلق لسانه بالمنطق الحر ويسترسل في القول الناصع استرسالا ؛ وقلنا : إنهم كانوا يقدمون الشعراء على الخطباء ، وعللنا ذلك بأن حياتهم الاجتماعية لم تكن من القوة والانتظام بحيث تدعو الى الحفل بها ورعاية جانبها . وفي الحق أن كل شيء في هذه الحياة إنما يضؤل اذا قلت الحاجة اليه أو عدمت ، ويعظم اذا مست الداعية اليه ، وكذلك كانت الخطابة لم تشذ عن هذا الناموس العام . كانت في الجاهلية ضئيلة بالقياس الى الشعر ، فلما ظهر الاسلام بالدعوة العظمى اشتدت الحاجة اليها ، أو قل كانت أولى حاجاته لتأييد الدعوة ونشرها والنضح عنها فنبه شأنها وانصرف الناس اليها حتى انقلبت الآية ، فكثر عدد الخطباء وأصبحوا في طليعة الشعراء بعد أن كانوا نفراً يعدون في ساقتهم . وقد كان رسل النبي الى الملوك ودعاته وأمراء سراياه وبعوثه وخلفاؤه وعمالهم : كل أولئك كانوا خطباء منوهين لهم من سلائقهم وبلاغة القرآن وإرشاد النبي مادة لاتنضب وعدلا ينقطع .

ولما حدثت الحرب الاهلية بعد مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وانقسم المسلمون الى عراقيين وشاميين، والى شيعة يؤيدون علياً وأهل بيته، وخوارج يستحلون قتاله، وجماعية كانت ضلعهم الى الخلفاء المعقودة لهم البيعة العامة؛ وغيرهم، ثم اشتدت الخصومات السياسية، والمنازعات المذهبية بكل عنف وهوج، أقول لما نجمت كل هذه الأحداث تقدمت الخطابة تقدماً عظيماً، ووصلت الى منتهى درجاتها قوة وبلاغة وارتقاء، لاعتماد كل حزب عليها في تأييد دعوته، وتوطيد نحلته، وبسط سلطانه، إذ لم تكن لهم يومئذ صحف سيارة تذيع سياسات الأحزاب، ولا مطابع تهيئ كل يوم منشورات لبث دعايات المذاهب. فاعتمدوا على آلة اللسان، وساعدهم على ذلك سلائقهم، وقوة عوارضهم، فشاعت الخطابة، وحفل ذلك العصر بخطباء لم تشاهد عصور العربية نظراء لهم من أمثال الخلفاء الراشدين، ومعاوية، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن مسعود، وسحبان وائل، وزياد ابن ابيه، وعمرو بن سعيد الأشدق، والحجاج بن يوسف الثقفي، وجامع المحاربي، وقتيبة بن مسلم، وخالد ابن صفوان، ومشجور بن غيلان، والقاسم بن عبدالرحمن بن صديقة، وقطري ابن الفجاءة، وعمران بن حطان، وزرعة بن ضمرة، والنعمان بن زرعة بن ضمرة، وعمرو بن الاهتم، وغيرهم...

وأهم ما تمتاز به الخطابة في هذا العصر استهلالها بالثناء على الله وحمده وشكره، وانسجام تراكيبها ودقة معانيها وكرم ألفاظها وبراعة أساليبها، وترصيعها بآي القران، ومحاكاتها لأسلوبه، وانتهاجها سبيله في الدعوة والاقناع، وقوة تأثيرها في النفوس واستيلائها على الحواس، ثم اتباعها مناهج الدين في مثل خطب الجمعة والعيدين والحج الأكبر، وخطط السياسة في استنهاض الهمم

وتأليف الأحزاب وإخماد الثورات وقمع الفتن . . . وهي في ذلك كله تساير مقتضيات الأحوال : إيجاز في غير عجز ، واطناب في غير خطل . وتلك هي البلاغة كل البلاغة . قال أبو عثمان الجاحظ « . . . إن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، والبدو والحضر ، على ضربين : منها الطوال ، ومنها القصار ، ولكل من ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ومشاكلاً في استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ ، وإنما حظها التخليد في بطون الصحف . ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم الى حفظها أسرع »

∴

وبعد فاليك الآن نماذج مختارة من خطب عظماء الخطباء في هذا العصر تتبين منها أساليبهم . . .

خطب النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : (١)

« أيها الناس ! إن لكم معالم فانتهوا الى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم . إن المؤمن بين مخافتين : بين أجل قد مضى لايدري ما الله صانع به ، وبين أجل قد بقي لايدري ما الله قاضٍ فيه ، فليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الموت ، فو الذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار الا الجنة أو النار »

---

(١) البيان والتبيين ١ – ١٦٥ مطبعة الفتوح الادبية ، واعجاز القرآن للباقلاني ج ١ ص ١٧٥ بهامش الاتقان للسيوطي .

وخطب يوم حجة الوداع فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :[1]

أيها الناس ! إسمعوا مني أبين لكم فاني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا . أيها الناس ! إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا . الاهل بلغت، اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبدالمطلب . وإن دماء الجاهلية موضوعة وإن أول ما أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب[2]. وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية . والعمد قود[3] ، وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . أيها الناس ! إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ! انما النسيء[4] زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والارض وإن عدة الشهور

«١» عن سيرة ابن هشام ، والبيان والتبيين ، والعقد الفريد ، واعجاز القرآن .

«٢» كان مسترضعاً في هذيل فقتل في حرب كانت بين قبائل هذيل تقاذفوا فيها بالحجارة من حجر أصابه وهو يحبو بين البيوت «٣» أي القاتل عمداً يقتص منه بالقتل .

«٤» تأخير حرمة شهر الى آخر من نسأت الشي اذا أخرته فقد كان أهل الجاهلية يعتقدون أن من الدين تعظيم الاشهر الحرم فيتحرجون فيها من القتال ، وكانت قبائل منهم يستبيحونها فاذا قاتلوا في شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل. وكان نسؤهم الشهر على ضربين : احدهما ماذكرناه ، والثاني تأخيرهم الحج من وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوما أو أكثر قليلا حتى يدور الدور الى ثلاث وثلاثين سنة فيعود الى وقته ولذلك قال النبي : ان الزمان قد استدار الخ اذ كانت حجة الوداع في السنة التي عاد فيها الحج الى وقته (بلوغ الارب ، والروض الانف ، وأمالي القالي ، وكتاب علم الفلك عند العرب)

عندالله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم : ثلاث متواليات ، وواحد فرد ، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر [١] الذي بين جمادى وشعبان . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد . أيهاالناس! إن لكم على نسائكم حقاً وإن لهن عليكم حقا : لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا بأذنكم ، ولا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غيرمبرح [٢]، فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وانما النسآء عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا ، الا هل بلغت ، اللهم اشهد. أيهاالناس! إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه الا عن طيب نفس منه. الاهل بلغت، اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعده كتاب الله. ألاهل بلغت، اللهم أشهد. أيهاالناس! ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عندالله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى . ألاهل بلغت ، اللهم اشهد . قالوا : نعم ! قال : فليبلغ الشاهد الغائب . أيها الناس ! إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، ومن ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

---

(١) انما قال ذلك لان ربيعة كانت تحرم في شهر رمضان وتسميه رجباً من رجبت الرجل اذا عظمته فبين انه رجب مضر لارجب ربيعة وأكد ذلك بانه الذي بين جمادى وشعبان .

(٢) غير مجهد ومؤذ .

وخطبت عائشة أم المؤمنين يوم الجمل فقالت :[1]

أيها الناس ! صه صه . إن لي عليكم حق الأمومة وحرمة الموعظة ، لا يتهمني الا من عصى ربه . مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سحري ونحري[2] فأنا إحدى نسائه في الجنة له ادخرني ربي ، وخلصني من كل بضاعة ، وبي ميز منافقكم من مؤمنكم ، وبي أرخص الله لكم في صعيد الأبواء[3] ، ثم أبي ثاني اثنين الله ثالثهما ، وأول من سمي صديقاً . مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه ، وطوقه أعباء الامامة ، ثم اضطرب حبل الدين بعده فمسك أبي بطرفيه ، و رتق لكم فتق النفاق ، وأغاض[4] نبع الردة ، وأطفأ ماحش[5] يهود وأنتم يومئذ جحظ[6] العيون : تنظرون الغدرة وتسمعون الصيحة ، فرأب الثأي[7] ، . . . وانتاش[8] من المهوة ، حتى احتجن[9] دفين لدوى[10] ، وأعطى الوارد ، وأورد الصادر ، وعل الناهل ، فقبضه الله اليه واطئاً على هامات النفاق ، مذكياً نار الحرب للمشركين ، فانتظمت طاعتكم بحبله ، فولى أمركم رجلاً مرعياً اذا ركن اليه ، بعيد ما بين اللابتين[11] ... صفوحاً عن أذاة الجاهلين ، يقظان الليل في نصرة الاسلام ، فسلك مسلك السابقة ، ففرق شمل الفتنة ، وجمع أعضاد ما جمع القرآن ، وأنا نصب المسألة عن مسيري هذا لم ألتمس إثماً ولم أونس فتنة أو طؤكموها . أقول قولي هذا صدقاً

«١» العقد الفريد ٢-٣٨٦ «٢» السحر : بفتحتين الرئة ، والنحر : اعلى الصدر

«٣» قرية من اعمال الفرع من المدينة بينها و بين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلا . وقيل : جبل على يمين آرة ويمين الطريق للمصعد الى مكة من المدينة وهناك بلد ينسب الى هذا الجبل . «٤» أنقص «٥» حش الحرب : أسعرها وهيجها «٦» جمع جاحظ , والجحوظ عظم المقلة وتوؤها «٧» أصلح الفساد .

«٨» أنقذ «٩» جذب وأخرج «١٠» الضغن والحقد الشديد ، يقال دوى صدر الرجل دوى اذا ضغن «١١» اللابة في الاصل الارض الملبسة حجارة سوداء .

وعدلاً و إعذاراً و إنذاراً ، وأسأل الله أن يصلي على محمد ، وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين » .

∴

وخطب عبد الله بن الزبير حينما بلغه قتل أخيه مصعب فقال :[1]

الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، يؤتي الملك من يشاء ، و ينزع الملك ممن يشاء ، و يعز من يشاء ، و يذل من يشاء . الا و إنه لم يذل الله من كان الحق معه و إن كان فرداً ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وان كان الناس معه طرا . ألا و إنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا . أتانا قتل مصعب رحمه الله ، فأما الذي أفرحنا فعلمنا أن قتله شهادة ، وأما الذي أحزننا فان لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة يرعوي بعدها ذو الرأي الجميل الى الصبر وكريم العزاء وما مصعب الا عبد من عبيد الله ، وعون من أعواني . ألا و إن أهل العراق أهل الغدر والنفاق أسلموه و باعوه بأقل الثمن فان يقتل فه ؟ والله ماتموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص . والله ماقتل رجل منهم في زحف في الجاهلية ولا في الاسلام ، ولا نموت الا قصاً (؟) بالرماح وتحت ظل السيوف . الا إنما الدنيا عارية من الملك الأعلى الذي لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ، فان تقبل لا آخذها أخذ البطر ، و إن تدبر لم أبك عليها بكاء الضرع المهين . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .

∴

وخطب عتبة بن أبي سفيان متوعداً فقال :[2]

« ياحاملي ألأم أنوف ركبت بين أعين ! إنما قلمت أظفاري عنكم ليلين

«١» تاريخ ابن الاثير ٤-١٤٠ والعقد الفريد ٢-٣٧٦ ، «٢» العقد ٢-٣٩٠

مسي إياكم ، وسألتكم صلاحكم اذ كان فسادكم راجعاً عليكم ، فأما اذا أبيتم الا الطعن على الولاة والتنقص للسلف فوالله لأقطعن على ظهور كم بطون السياط ، فان حسمت دآء كم وإلا فالسيف من ورائكم ، ولست أبخل عليكم بالعقوبة اذا جدتم لنا بالمعصية ، ولا أؤيسكم من مراجعة الحسنى إن صرتم الى التي هي أبر وأتقى » .

وخطب الحسن البصري خطبة املاك (١) فقال بعد حمد الله والثناء عليه :

« أما بعد فان الله جمع بهذا النكاح الأرحام المتقطعة ، والأنساب المتفرقة ، وجعل ذلك في سنة من دينه ، ومنهاج من أمره . وقد خطب اليكم فلان وعليه من الله نعمة ، وهو يبذل من الصداق كذا فاستخيروا الله و ردوا خيراً يرحمكم الله » .

وخطب محمد بن الوليد الى عمر بن عبد العزيز أخته فتكلم بكلام طويل فأجابه عمر : (٢)

الحمد لله ذي الكبرياء ، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء ، أما بعد فان الرغبة منك دعتك الينا ، والرغبة فيك أجابتك منا ، وقد أحسن بك ظناً من أودعك كريمته واختارك ولم يختر عليك ، وقد زوجتكها على كتاب الله : إمساك بمعروف أو تسريح باحسان .

---

(١) البيان والتبيين ٢–٥٠ والعقد ٢–٣٩٧ (٢) العقد ج ٢ ص ٣٩٧

أشهر مشاهير الخطباء

١ـ أبو بكر الصديق

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر، صاحب النبي (ص) وخليفته من بعده ويلتقي هو ورسول الله في مرة بن كعب . ولد بعد مولد النبي بسنتين وأشهر وشب على مكارم الأخلاق ورقة الشمائل وحسن السيرة ، فكان لذلك ولمكانته من الشرف في قريش محترماً من قومه مرعي الجانب . واتجر بالبز بأصيلة (١) تبلغ أربعين ألف درهم . ولما صدع الرسول بالدعوة الى الاسلام كان أول الرجال سبقاً الى الايمان بنبوته، وتصديقاً لدعوته ،وتأييداً له ، فصحبه وأنفق معظم أمواله في مصالح المسلمين ، وحمل من قريش ماتنوء به العصبة أولو القوة وسمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهده الا حضره ولازمه فيه يقيه بنفسه وينضح عنه حتى فارق (ص) الدنيا . وكان أبو بكر حين الوفاة في أهله بالسنح فلما أتاه النعي أقبل مسرعاً فوجد الناس في اختباط عظيم لشدة ماعراهم من الذهول ، فخطب فيهم خطبة قال فيها « . . . إن من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لايموت . ثم تلا : وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ... الآية » ، فما سمع القوم بيانه حتى ثابت العقول الذاهلة الى وعيها ، والأحلام المتدلهة الى رشادها . وبينما كانوا يشتغلون بتجهيز النبي اجتمع الأنصار والمهاجرون في سقيفة بني ساعدة للمفاوضة في شأن الخلافة ، فأسرع أبو بكر ليتدارك الأمر قبل افتراق الكلمة ، فخطبهم خطبة جامعة

---

(١) نريد بها (رأس المال)

استولى بها على مجامع القلوب فلم يلبث الجميع أن بايعوه خليفة . حتى اذا تمت له البيعه اشرأب النفاق بالمدينـة ، وامتنعت العرب عن أداء الزكاة ، فنصب لهم الحرب ،وضرب من أدبر بمن أقبل، حتى استقادوا له فدفعهم الى فتح ممالك كسرى وقيصر ،فانكفأوا عليها ؛ وما توفي رضي اللهعنه الا وجيوشه تركز راية الاسلام ، في مدائن كسرى وبلاد الشام . وكانت وفاته سنة ١٣ هـ ، ومدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال .

⁂

وكان خطيباً مدرداً ، قوي الحجة ، بليغ التأثير ، يشهد بذلك موقفاه يوم وفاة الرسول و يوم السقيفة ، وكان اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه . و روي عن الز بير بن بكار العالم النسابةأنه قال : سمعت بعض أهل العلم يقول « أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعلي بن أبي طالب » .

ومن أحاسن خطبه خطبته بعد أن ولي الخلافة، قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد فاني قد وليت أمركم ولست بخيركم، فان رأيتموني على حق فأعينوني، و إن رأيتموني على باطل فسددوني . أطيعوني ماأطعت الله فيكم، فاذا عصيته فـلا طاعة لي عليكم . ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولـكم » .

وقد عين بهذا الـكلام الموجز حد السلطة العليا في الاسلام؛ فذكر أنه واحد من الأمة وليس بخيرها ، يشعر كشعورها و يعمل للمصلحة العامة عملها ، فاذا أحسن القيام على الحق وجب عليهم أن يعينوه ، والا فعليهم أن يسددوه لايدعونه يذهب بهم بعيداً عن مصلحتهم . وهذا غاية ماينزع اليه طلاب الحرية والعدل

في كل عصر، فلو أن العرب حافظوا على أصول الشورى والحكم «الدمقراطي» واعتمدوا على أنفسهم لايتركون زمام الأمر بيد من يتولى الحكم ويريد أن تفنى إرادة الأمة في إرادته-إذن لما ساء منقلب البلاد، ولما صاروا هم لأحد خَوَلا[1] ..

٢ــ عمر بن الخطاب

[... — ٢٣ هـ]

هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي ثاني الخلفاء الراشدين، وأحد عظماء البشر في الحكم والسياسة والدين. كان في الجاهلية من صناديد قريش وأشدائها على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يهد الى الاسلام الا بعد مضي ست سنين من البعثة، فأعزه الله به بعد أن كان أهله مستضعفين، يعبدون الله مستخفين، فأعلنوا بعد إسلامه دينهم... وصحب رسول الله فأحسن صحبته وحضر معه المشاهد كلها، وبذل في نصرته مهجته إخلاصاً في الايمان وصدقاً في حبه إياه حتى انتقل صلى الله عليه وسلم الى الرفيق الأعلى، فأعان أبا بكر على توليته الخلافة، وآزره في أعماله، حتى اذا حضرت أبا بكر الوفاة عهد بالخلافة اليه علماً منه بكفاءته، وسداً لذرائع الفتنة، وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم، فاتفقوا على بيعته، فقام بهذه الوظيفة السامية قياماً لايجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الدول، وأتم جميع ماشرع به أبو بكر من فتح ممالك كسرى وقيصر، وضبط شؤون الادارة على أصول الدول الراقية يومئذ، فوضع التأريخ ودون الدواوين، وفرض للجند والمجاهدين العطاء، ورتب العمال، وقسم الولايات، وضرب النقود، ووضع البريد، ومصر الأمصار، وحفر الترع، وأقام الجسور، وأقام للمنقطعين دور الضيافات الى غير ذلك من الآثار الجليلة التي

---

(١) وجدت العلامة رفيق العظم رحمه الله قد توسع (في أشهر مشاهير الاسلام) في تحليل هذه الخطبة والتعليق عليها بالمعنى الذي قررناه فمن الخير لك أن تراجعه ج ١ ص ١٢٠-١٢٣.

تمكن من تكوينها و إيجادها على اشتغاله بالفتوح ، وانصرافه الى نشر الهداية الاسلامية بحنكة وحزم وعدل تضرب به الأمثال . حتى قتل وجيوشه تطارد يزدجرد في بلاده : قتله غيلة غلام مجوسي فارسي من نهاوند هو الشقي أبو لؤلؤة عبد المغيرة ابن شعبة ، وكان أسره الروم ، ثم أسره منهم المسلمون ، وكان يحقد على عمر حقداً عظيماً إذ دوخ بلادهم ، وقهر ملكهم ، واستأصل مزدكيتهم ؛ فتآمر هو وجماعة من العلوج عليه ، فنفذ فيه الأمر ، وهو قائم يصلي في المحراب . وذلك بعد مرور عشر سنين و بضعة أشهر من خلافته .

∴

والفاروق في خطبه كأبي بكر فصاحة ، وشدة تأثير ، وقوة حجة . ومن خطبه الجامعة التي تمثل عدله وسياسته وعقيدته ما رواه أبو يوسف القاضي في كتاب الخراج (١) عن طلحة بن معدان قال : خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي (ص) ، وذكر أبا بكر فاستغفر له ، ثم قال:

« أيها الناس ! إنه لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله ، وإني لا أجد هذا المال يصلحه الاخلال ثلاث : أن يؤخذ بالحق ، و يعطى في الحق ، و يمنع من الباطل . و إنما أنا ومالكم كولي اليتيم إن استغنيت استعففت ، و إن افتقرت أكلت بالمعروف ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق . ولكم علي — أيها الناس ! — خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم علي أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ، ولا مما أفاء الله عليكم الا من وجهه ؛ ولكم علي اذا وقع في يدي أن لا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم علي أن أزيد أعطياتكم

« ١ » طبعة السلفية ص ١٤٠

وأرزاقكم إن شاء الله، وأسد ثغوركم؛ ولكم علي أن لا ألقيكم في المهالك ولاأجمركم (١) في ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء، كثير القراء، قليل الفقهاء، كثير الأمل، يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا من أدرك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر. يا أيها الناس! إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من حقه «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» . ألا وإني لم أبعثكم أمراء ولاجبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم، فأدروا على المسلمين حقوقهم، ولاتضربوهم فتذلوهم، ولاتحمدوهم فتفتنوهم، ولاتغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولاتستأثروا عليهم، وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوكم . أيها الناس! ني أشهدكم على أمراء الأمصار إني لم أبعثهم الاليفقهوا الناس في دينهم، ويقسموا عليهم فيئهم، ويحكموا بينهم، فان أشكل عليهم شيء رفعوه الي» .

٣ — عثمان بن عفان
[... — ٣٥هـ]

هو أمير المؤمنين عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي . ولد في السنة السادسة بعد الفيل، وأسلم بدعوة أبي بكر، وكان غنياً كريماً وجيهاً في قومه مأموناً، فحسن بلاؤه في الاسلام إذ بذل ماله في سبيله، وتحمل الأذى في القيام دونه، وشهد مغازي الرسول كلها الا بدراً،

(١) تجمير الجيش جمعهم فى الثغور وحبسهم عن العود الى أهلهم . والثغور : جمع ثغر، وهو الموضع الذى يكون حداً فاصلا بين مملكة ومملكة .

فحباه (ص) كرامة المصاهرة بابنتيه تكريماً له ، وتقديراً لاخلاصه . . . ولما حضرته الوفاة عهد بالخلافة الى ستة هو منهم تختار الأمة أحدهم خليفة . فوقع الاختيار على عثمان فبويع ، و باشر أعماله فأتم فتوح عمر : أتم فتح فارس ، والغربية ، وجزء من السند ، وقسم من تركستان ؛ وفتح إرمينية ، والقوقاز ، وقبرص ، و بلاد المغرب ؛ وعني بتحسين نظام الحكومة ، وتوسيع نطاق العمران ، فاتخذ داراً للقضاء ، وصاحب شرطة ؛ وأقطع الارضين التي جلا عنها أهلها للعرب ليقوموا على عمرانها ضناً بها أن تهمل و يخسر ثمرها الدولة والناس ، وجمع الناس على مصحف واحد بعد أن تعددت القراآت واختلف فيها أهل الأمصار فأحسن بذلك أيما إحسان ، وقضى شطراً كبيراً من خلافته وهو محبوب الى الناس لرأفته بهم و إقبال الدنيا عليهم على عهده وتبسطهم في المعيشة ، لكن غلب عليه بنو أمية فولاهم وأمرهم ، لاعتقاده بكفاءتهم وثقته باخلاصهم له ، فشغب عليه لذلك الأعراب النازلون في أنحاء العواصم كمصر والبصرة والكوفة بدعوة سرية قام بها عبد الله بن سبأ وجماعة من العلوج لتفريق المسلمين بعد أن لم يتوصلوا الى ذلك بقتل عمر ، حتى تأججت نار الشغب في الأطراف ، فتألب عليه السفهاء ، وحاصروه في داره بالمدينة ، فقتلوه - وهو يتلو القرآن - سنة ٣٥ لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة . فكان لقتله من الأثر السيء في تفريق الأمة الى يومنا هذا ما يجب على ذوي الأحلام منها أن يعفوا أبلاده ، ويستأصلوا شأفته . . .

∴

وكان رضي الله عنه من بلغاء الخطباء يميل في خطبه الى الايجاز والسهولة ، ومن خطبه خطبته بعد البيعة العامة له وهي (كما في تأريخ الطبري) بعد الحمد والثناء :

« أما بعد فاني قد حملت وقد قبلت . الا و إني متبع ولست بمبتدع ، ألا و إن لكم علي بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ثلاثاً : اتباع من كان قبلي فيما اجتمعتم عليه وسننتم، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملاٍ ، والكف الا فيما استوجبتم . الا و إن الدنيا خضرة قد شهيت الى الناس ومال اليها كثير منهم ، فلا تركنوا الى الدنيا ولا تثقوا بها ، فانها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركةٍ الا من تركها » .

* * *

٤ ـــ علي بن أبي طالب

[... ـــ ٤٠ هـ]

هو ابن عم رسول الله (ص) ولد قبل الهجرة بأحدى وعشرين سنة، و ربي في بيته ، وتزوج من ابنته . وآمن به مراهقاً ، وكان شجاعاً لايخاطر ، فآزره وأبلى في تأييده البلاء الحسن . وشهد الغزوات كلها الا غزوة تبوك إذ خلفه النبي فيها على أهله . ولما توفي (ص) كان علي يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة وكرامة المصاهرة ، ولكنها تعدته الى أبي بكر ، فعمر ، فعثمان ، ثم أصابته فبايعه الناس في الحجاز ، وامتنع معاوية وأهل الشام غضباً لمقتل عثمان وقعوده عن القتلة و قلة عنايته بالبحث عن معرفتهم حسب معتقدهم ، فكان ما كان من الفتن العمياء التي قطعت الوشائج ، وذهبت بالأواصر ، وفرقت المسلمين الى طائفتين تقاتلتا زمناً طويلا ثم لم يستوسق الأمر لعلي أو معاوية حتى ائتمر ثلاثة من الخوارج بالزعماء الثلاثة : علي ، ومعاوية ، وعمرو بن العاص ؛ ونال سيف أحدهم عبدالرحمن بن ملجم المرادي

من الامام رضي الله عنه غيلة بمسجد الكوفة بعد أن مضى على خلافته أربع سنين وتسعة أشهر .

* * *

وكان رضي الله عنه خطيباً مفوهاً يتفجر حكماً ، و يتدفق بياناً ، لا يريد غرضاً من أغراض الكلام الا لان له أبيه ، وسلس له جامحه ، وأصابه موفقا . . . وقد جمع الشريف الرضي [1] (٣٥٩ — ٤٠٤ ﻫ) مايؤثر عنه من الخطب والرسائل والمواعظ في كتاب دعاه (نهج البلاغة) تعاقب أماثل العلماء على شرحه ، وطبع غير مرة في مصر و بيروت بشرح عبد الحميد بن أبي الحديد (المتوفى سنة ٦٥٥ ﻫ) وتعليق الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ — ١٣٢٢ ﻫ) ، ولكن فيه مايشك الناقد البصير فيه كما يشك في كثير مما يسند الى رسول الله (ص) من الأحاديث والأخبار : لمباينة بعضه لأسلوب الصدر الأول بوفرة أسجاعه ، وتوليد ألفاظه كالأزلية والكيفية . . ولعز والعلماء بعضه قبل أن يكون جامع النهج الى غيره ، ولما فيه مما كان كرم الله وجهه أعلى قدراً وأدق نظراً من أن يفوه به : كبعض المطاعن والمغامز التي كان يذكرها على أصحابه اذا سمعهم يسبون أهل الشام فكيف به [2] ، وكالذي جاء في آخر « القاصعة » ، وفي الخطبة التي يخبر بها عما يكون من أمر التتار ، والخطبة التي يومئ بها الى الحجاج ، ونحو ذلك مما لا يتفق وأسلوبه الحر المحقق وكلامه الحكيم في شيء . هذا وأشير على الطالب المتأدب أن يتوفر على دراسة هذا الكتاب ، فانه كاسمه نهج

« ١ » ذكر ابن خلكان فى ترجمة أخيه المرتضى أن الناس مختلفون فى نهج البلاغة هل هو جمع المرتضى أم جمع الرضي ، قلت : والمشهور أنه جمع الرضى وان زعم جرجى زيدان أنه المرتضى ولم يعرف اختلاف الناس .

« ٢ » انظر نصيحته فى النهج ج ٢ ص ٤٣٦ من طبعة المطبعة الرحمانية .

بلاغة ومنجم لغة ، يسمو بمترسم آثاره الى مراقي البيان، ويتنقل به الى ما يبتغي البليغ من منازل الفصاحة وفنون البلاغة ؛ وأن لا يقف عند كلامي دون أن ينشط لما أشير به عليه . فان الوقوف في العلم عند غاية عجز ، والتقليد في الأدب قبيح ، ودارس الأدب أشد ما يكون حاجة الى الدؤوب على البحث والحرية في التفكير .

فمن كلامه لما بويع بالمدينة :

ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم[1] . إن من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات[2] ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . و إن بليتكم[3] قد عادت كهيأتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله ، والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة[4] ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر[5] حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سباقون كانوا سبقوا . والله ما كتمت وشمة[6] ولا كذبت كذبة ؛ ولقد نبئت بهذا المقام وهذا اليوم . ألا و إن الخطايا خيل شمس[7] حمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم في النار . ألا و إن التقوى مطايا ذلل[8] حمل عليها أهلها وأعطوا أزمتها فأوردتهم الجنة . حق و باطل ، ولكل أهل . فلئن أمر[9] الباطل لقديماً فعل ، ولئن قل الحق فلربما ولعل ،[10] ولقلما أدبر شيء فأقبل .

«١» أى أنه ضامن لصدق ما يقول ، كفيل بانه الحق الذى لا يدافع «٢» العقوبات «٣» بلية البرقة والشتات «٤» البلبلة : الاختلاط «٥» السوط : أن تجعل شيئين فى الاناء وتضربهما بيدك حتى يختلطا «٦» كلمة «٧» جمع شموس وهو الذى يمنع ظهره أن يركب «٨» جمع ذلول وهى المروضة الطائعة السلسلة القياد «٩» كثر بكثرة اعوانه «١٠» أى ربما غلبت قلته كثرة الباطل ولعله يقهر الباطل ويمحقه .

ومن خطبه قوله مستنهضاً للناس وموبخاً لهم لتخاذلهم أمام غارات الضحاك ابن قيس ، وعدم إجابتهم لنصرته :

أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم ! كلامكم يوهي الصم الصلاب (1) ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . تقولون في المجالس كيت وكيت ، فاذا جاء القتال قلتم : «حيدي حياد (2)» ! ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ، أعاليل بأضاليل ، دفاع ذي الدين المطول (3) ، لا يمنع الضيم الذليل ، ولا يدرك الحق الا بالجد ، أي دار بعد داركم تمنعون ؟ ومع أي إمام بعدي تقاتلون ؟ المغرور ـ والله ـ من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز ـ والله ـ بالسهم الأخيب (4) ، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل (5) ! أصبحت والله لا أصدق قولكم ، ولا أطمع في نصركم ، ولا أوعد العدو بكم ! ما بالكم ، مادواؤكم ، ماطبكم ؟ القوم رجال أمثالكم . أقولاً بغير علم ، وغفلة من غير ورع ، وطمعاً في غير حق ؟ ؟

٥ ـ سحبان وائل

[... ـ ٥٤ هـ]

هو سحبان بن زفر بن إياس أو إياد الوائلي . كان خطيباً مفوهاً ، مضروباً به المثل ، ثبت الجنان ، قوي العارضة ، لا يعيد في خطابه ، ولا يتلعثم ، ولا

«١» يوهي : يضعف ويفت ، والصم جمع أصم وهو من الحجارة الصلب المصمت ، والصلاب : جمع صليب وهو الشديد «٢» كلمة يقولها الهارب كأنه يسأل أن تتنحى عنه من الحيدان وهو الميل والانحراف عن الشيء «٣» أي انكم تدافعون الحرب اللازمة لكم كما يدفع المدين المطول غريمه «٤» سهم من سهام الميسر لاحظ له «٥» الأفوق : السهم المكسور الفوق (بضم الفاء) وهو موضع الوتر من السهم ، والناصل : العاري عن النصل وهو حديدته . أي، من رمى بهم فكأنما رمى بسهم لا يثبت في الوتر حتى يرمى وان رمى به لم يصب مقتلا اذ لا نصل له

يتوقف، ولا يفكر؛ بل كان غمر البديهة تتدفق البلاغة على لسانه كما يتدفق السيل منحدراً ، وفي نفسه يقول :

لقد علم الحي اليمانون أنني [1] - اذا قلت: أما بعد - أني خطيبها

وقد نشأ في الجاهلية ، ولما ظهر الاسلام أسلم ، واتصل أخيراً بمعاوية فحسن موقعه لديه ، فكان يعده لأيام الحفل الجامعة ويعتمد عند التعاكظ عليه لامتلاكه ناصية البيان ، وتصرفه في فنون الكلام .

قدم على معاوية يوماً وفد من خراسان فيه سعيد بن عثمان بن عفان ، فطلب سحبان فأتي به ، فأمره بالكلام ، فقال : أنظروا لي عصا ! فقالوا : وما تصنع بها وأنت في حضرة أمير المؤمنين ؟ — قال : وما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه ؟ فضحك معاوية وأمر له بها ، فتكلم من صلاة الظهر الى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقف ، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه وقد بقي عليه شيء ، فما زالت تلك حاله حتى دله الحاضرين ، فأشار اليه معاوية بيده ، فأشار اليه سحبان أن لا تقطع علي كلامي ! فقال معاوية : الصلاة ! فقال : هي أمامك ، ونحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ! فقال معاوية : أنت أخطب العرب ! فقال سحبان : والعجم والانس والجن ! فدهش الناس ولم ينشد شاعر ولم يخطب خطيب .

وفي هذا الحديث دلالة على قوة منته ، وغزارة مادته ، وإدلاله بنفسه ، ووثوقه بقدرته ، ولكنك اذا بحثت عن شيء له يذكر في جانب هذه الشهرة وهذا الحديث لا تكاد تجد شيئاً ، وكل ما روي له كلمة موجزة تدخل في باب الزهد على أنها تعزى الى غيره أيضاً ، فقد أوردها صاحب العقد الفريد

---

(١) ويروى : «وقد علمت قيس بن عيلان أنني» .

(ج ٢ ص٣٩٨) في « خطب الأعراب » على أنها لأعرابي مجهول في صدر العصر العباسي كما أثر ذلك عن الأصمعي . وعدوا من الخطب الممتازة خطبته عند معاوية المشهورة بالشوهاء ثم لم يذكروا منها حرفا ، ولا أكاد أعرف لذلك سبباً وجيهاً أطمئن اليه ، ولعل بعض الكاتبين دونوا له شيئاً فلم يبلغنا...

أما الكلمة التي أشرنا اليها وعزيت الى الأعرابي فهي :

« إن الدنيا دار ممرّ ، والآخرة دار مقر ، فخذوا من ممركم لمقركم ، ولا تهتكوا أستاركم عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ولغيرها خلقتم . اليوم عمل بلا حساب ، وغداً حساب بلا عمل ، إن الرجل اذا هلك ، قال الناس : ماذا ترك ؟ وقالت الملائكة : ماقدم ؟ فقدموا بعضاً يكون لكم قرضاً ، ولا تتركوا كلا فيكون عليكم كلا . . . » (١)

٦ — زياد بن أبيه

[١ — ٥٣ هـ]

هو أحد دهاة العرب الأربعة المشاهير : معاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة .

وكان زياد معلول النسب ، غير معروف الأب ، والمأثور أنه : كان للحارث ابن كلدة الثقفي طبيب العرب أمة تدعى « سمية » وعبد رومي يسمى « عبيداً » فقرن بينهما فولدت زياداً على فراش عبيد في السنة الأولى من الهجرة ، فنشأ

(١) وتمام الكلمة « أقول قولى هذا والمحمود الله ، والمصلى عليه محمد ، و ... له الخليفة ثم امامكم جعفر ، قوموا الى الصلاة » اذن فهى ليست لسحبان .

داهية أديباً ، فتيق اللسان ، صليب الرأي ، عالماً بطرق السياسة ، فما امتدت الفتوح ومصرت الأمصار حتى عرفت كفاءته فاستكتبه أبو موسى الأشعري والي البصرة من قبل عمر ، ثم تقلبت به الأحوال في عهد عمر حتى رأى أن يعزله « لا لخيانة ولا لعجز وإنما كره أن يحمل الناس فضل عقله [1] » على أنه كان يستكفيه مهام أموره فيكفيه مرضياً محمودا . وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار يعلمه بما صنع فأبلغ ما شاء في الكلام حتى دهش منه القوم فقال عمرو بن العاص مقالة المعجب « لله در هذا الغلام ! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه » . وبلغ من إعجاب أبي سفيان به بعد إسلامه أن أسر الى طائفة من سراة قريش ، وفيهم الامام علي بن أبي طالب ، بأن زياداً ابنه اشتملت عليه سمية منه وهو مشرك ، وإنما لم يستلحقه علانية أنفة من العار ، وإن كان الاسلام يجب ما قبله . ولما بويع علي بالخلافة اضطربت عليه فارس ، فأشير عليه أن يولي زياداً ، فسيره في جمع كثير وطئها به ولكنه ركن الى « سياسة التفريق » فأوقع بين رؤسائها الثائرين الشقاق ، ومازال يضرب بعضهم ببعض حتى صفت له فارس ولم يلق منهم جمعاً ولا حرباً . ثم تقدم الى كرمان فدوخها كما دوخ فارس فاستقام له عمودها وسكن الناس ، ونزل اصطخر وسكن قلعة بها تسمى « قلعة زياد » حتى اذا قتل الامام سنة ٤٠ هـ اعتصم بفارس ، فخافه معاوية وأرسل اليه المغيرة بن شعبة – وهو الداهية المحنك – يتلطفه ويستقدمه ، فقدم عليه ، ورأى معاوية أن يستخلص مودته باستلحاقه فادعاه أخاً له بشهادة جماعة على أبي سفيان أن زياداً ابنه ، ثم ولاه العراقين ، لم يجمعا قبله لغيره ، وأقام في ذلك الى وفاته سنة ٥٣ ، وقد أكد لمعاوية

---

(١) هكذا قال عمر حين عزله .

الملك ، وجرد سيفـه وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهـة فخـافه النـاس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً ، وحتّى كان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، ولا يغلق أحد بابه ؛ وأدر العطاء، واستكثر من الشرط حتى بلغوا أربعة آلاف ، وسئل في إصلاح السابلة فقال : حتى أصلح المصر . فلما ضبطه أصلح ما وراءه . وكان يستعين بعدة من الصحابة. وأخباره وأقواله كثيرة .

وأشهر خطبه «البتراء» . وهي التي خطبهـا في البصرة ولم يفتتحهـا بالحمد والثناء ، وقد حذر فيهـا القوم ما كانوا عليه : من الانهماك بالشهوات، والاسترسال في الفسق والضـلال ، وانطلاق أيدي السفهـاء على الجنايات وانتهاك الحرم ؛ وعنفهم وعرفهم مايجب عليهم في الطاعة من المناصحة والانقياد لأولي الأمر حتى بلغ منهم ببيانه مراده. فلما فرغ قام اليه بعض القوم فقال له وقد امتلكه الاعجاب « أشهد أنك أوتيت الحكمة وفصل الخطاب» قال : « كذبت ذاك نبي الله داود » ! وقد رويت هذه الخطبة في تاريخ الكامل ١٩٣/٣ وغيره بروايات يختلف بعضها عن بعض شيئاً يسيرا . وهي :

« أما بعد فأن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغي الموفي بأهله على النار مافيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور التي ينبت فيها الصغير ولا يتحاشى عنها الكبير . كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ولم تعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب العظيم لاهل معصيته في الزمن السرمدي الذي لايزول. إنه ليس منكم الا من طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الاسلام الحدث الذي لم تسبقوا اليه من ترككم الضعيف يقهر ، والضعيفة المسلوبة في

النهار لاتنصر، والعدد غير قليل والجمع غير مفترق .ألم تكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل [1] وغارة النهار ! قربتم القرابة و باعدتم الدين تعتذرون بغير العذر ،وتغضون على النكر ، وتعطفون على المختلس ، كل امرئ منكم يذب عن سفيهه صنع من لايخاف عقاباً ولا يرجو معاداً . ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء، فلم يزل بهم ماترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرم الاسلام ، ثم أطرقوا [2] و راءكم كنوساً [3] في مكانس الريب [4] ، حرام عليّ الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير [5] بالأرض هدماً و إحراقاً ! إني رأيت آخر هذا الأمر لايصلح الا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، رشدة في غير جبرية وعنف ،وإني لأقسم بالله لآخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن [6] والمقبل بالمدبر ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول « أنج سعد فقد هلك سعيد» [7] أو تستقيم لي قناتكم . إن كذبة الأمير بلقاء مشهورة ، فاذا تعلقتم علي بكذبة فقد حلت لكم معصيتي . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب له ، إياي ودلج الليل فاني لاأوتى بمدلج الا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر مايأتي الخبر الكوفة و يرجع اليكم ؛ و إياي ودعوى الجاهلية فاني لاأجد أحداً دعابها الا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن وقد أحدثنا لكل عقوبة : فمن غرق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا عني أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم لساني و يدي . ولايظهر من أحد منكم خلاف ماعليه عامتكم الا ضربت عنقه.

«١» السير آخر الليل للغارة.

«٢» تتابعوا «٣» كنس كنوساً : تغيب واستتر «٤» محال المنكر «٥» جمع ماخور وهو بيت الريبة ومجمع اهل الفسق والفساد «٦» السائر المرتحل «٧» هما ابناضبة بن أد. وهذا مثل يضرب في النجاح والخيبة ، انظر قصته في فرائد اللآل ١ — ١٦٣ .

وقد كانت بيني و بين أقوام إحن [1] فجعلت ذلك دبر أذني [2] وتحت قدمي فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن إساءته . إني لو علمت أن أحدكم قتله السل من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدي لي صفحته ، فاذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس ! .

أيها الناس ! إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ؛ فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا ، واعلموا أني مهما قصرت عنه فاني لاأقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء عن إبانه ، ولا مجمراً [3] لكم بعثاً . فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم ، فانهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم [4] الذي اليه تأوون ؛ ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولاتشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ، و يطول له حزنكم ، ولاتدركوا حاجتكم مع أنه لو استجيب لكم لكان شراً لكم . أسأل الله أن يعين كلا على كل فاذا رأيتموني أنفذ فيكم الأمر فأنفذوه على أذلاله [5] ، وإن لي فيكم لصرعى كثيرة فليحذر كل امرىء منكم أن يكون من صرعاي » .

٧ — الحجاج بن يوسف الثقفي

[٤١ — ٩٥]

بطل جبار ، وقائد عربي عظيم ، دمر خلقاً كثيراً ، وأسس ملكا كبيرا .

«١» أحقاد ، والمفرد : إحنة «٢» خلف أذني ، أي أنه لم يصغ اليه ولم يحفل به .
«٣» انظر ص ١٥٦ «٤» الكهف : الملجأ «٥» أي على حاله ومجراه

ولد في الكوثر من أعمال الطائف بالحجاز. وكان أبوه يوسف يزاول تعليم الصبية القرآن فتأسى به، ثم انتظم في سلك الشرطة فظهر من دهائه وتدبيره مالفت اليه نظر روح بن زنباع الجذامي أحد أعوان عبد الملك بن مروان فذكره لعبد الملك — وقد شكا روح انحلال الجند — فقلده إمرة الجند، فسلكهم في النظام؛ وأخلص للملك الأموي، فأسند اليه قيادة الحملة الحجازية لقتال عبدالله بن الزبير - وقد دعا الى نفسه بالحجاز — فسار اليه وحاصره بمكة؛ ثم قتله وأزال ملكه، فأقام بالمدينة عاملا عليها وعلى مكة والطائف ثلاث سنين. ثم سيره الى العراق — وهو يموج بالفتن — فحكم السيف وأراق الدماء وأذل الأعناق وطامن النفوس حتى تم له أمره واستقر الملك لعبد الملك؛ و بقي طول حياته بالعراق عضداً لعبد الملك وابنيه الوليد وسليمان يخلص لهم في السر والعلن و يبذل جهده في ضبط الملك و بسط نفوذهم في الشرق حتى خفقت ألوية بني أمية بفضله على ضفاف بردى وتخوم الصين؛ ومات في مدينة واسط التي بناها بالعراق (٨٣ — ٨٦).

و يروي المؤرخون له في سفك الدماء والعقوبات غرائب، وكان يقال «إن زياداً ابن أبيه أراد أن يتشبه بعمر بن الخطاب في ضبط الأمور والحزم والصرامة فأسرف وتجاوز الحدود، وأراد الحجاج أن يتشبه بزياد فهلك ودمر» وليته؛ إذأرادجمع المسلمين تحت لواء واحد؛ وفق لغرضه من غير هذه السبيل سبيل الشدة والارهاب. ولكن هكذا اقتضت الحال وذلك ما كان، ولله في خلقه شؤون.

ومن أجل مآثر الحجاج حمله نصر بن عاصم على وضع النقط والشكل للمصحف لتستقيم الألسن بالقراءة ولا تزيغ الى التصحيف الذي انتشر يومئذ بالعراق. وأخباره كثيرة عني بتمحيصها الفرنجة قبل العرب، وللمستشرق

جان يريير كتاب بالفرنسية سماه (حياة الحجاج بن يوسف الثقفي).

وكما كان الحجاج من أمراء السيف — كان من أمراء البيان، ناصع الحجة، قوي المعارضة، شديد التأثير. ولقد قال مالك بن دينار يصف بلاغته وقوة حجته «ما رأيت أحداً أبين من الحجاج: إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه الى أهل العراق وصفحه عنهم وإساءتهم اليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين» والخطب المأثورة عنه كثيرة أورد طائفة منها أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه القرطبي (٣٢٨ هـ) في العقد الفريد. وأشهرها خطبته يوم قدم أميراً على العراق: دخل المسجد معتماً بعمامة قد غطى بها أكثر وجهه، وصعد المنبر، وهو متقلد سيفاً متنكب قوساً، ومكث ساعة لا يتكلم، فقال الناس بعضهم لبعض: قبح الله بني أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق، وهم عمير بن ضابئ البرجمي (١) أن يحصبه، فقالوا: أمهل حتى ننظر، فلما رأى الحجاج عيون الناس اليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال:

أنا ابن جلا، وطلاع الثنايا (٢) ... متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة! أما والله إني لأحمل الشر بحمله، وأحذوه بنعله، وأجزيه بمثله، وإني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها. وكأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى!

هذا أوان الشد فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم

ليس براعي إبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضم (٣)

«١» ضرب الحجاج عنقه بعد ئذ، أنظر تاريخ ابن الاثير ٤-١٥٧

«٢» جمع ثنية وهى العقبة أو الجبل أو الطريقة فيه أو اليه. وهو طلاع الثنايا: أى جلد يركب الامور العظام

«٣» زيم: قيل اسم للحرب، وقيل اسم فرس أو ناقة. لفها: جمعها. الحطم: الذى يحطم كل ما مر به. الوضم: كل ماقطع عليه اللحم.

قد لفها الليل بعصلبي (١) أروع (٢) خراج من الدوي (٣)

مهاجر ليس بأعرابي

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدت الحرب بكم فجدوا

والقوس فيها وتر عرد (٤) مثل ذراع البكر (٥) أو أشد

لا بد مما ليس منه بد !

إني والله يا أهل العراق ! ... ما يقعقع لي بالشنان (٦)، ولا يغمز جانبي كتغماز التين، ولقد فررت عن ذكاء (٧) وفتشت عن تجربة، وإن أمير المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ نثر كنانته (٨) بين يديه، فعجم عيدانها (٩) فوجدني أمرها (١٠) عوداً، وأصلبها مكسراً، فرماكم بي لأنكم طالما أوضعتم (١١) في الفتنة، واضطجعتم في مراقد الضلال. والله لألحونكم لحو العصا (١٢) ولأقرعنكم قرع المروة (١٣)، ولأعصبنكم عصب السلمة (١٤)، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل (١٥)، فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون. واني و الله ما

«١» شديد «٢» ذكي «٣» الفلاة، والخروج منها كناية عن الخبرة والصبر والجلاد

«٤» شديد «٥» الفتى من الابل «٦» جمع شن وهو الجلد اليابس.

«٧» أي اختبرت فوجدت ذكياً، وأصل الفر الكشف عن اسنان الدابة لينظر ماسنها

«٨» الكنانة : جعبة السهام من جلد «٩» عضها لينظر أيها أشد وأصلب

«١٠» أي أقواها من المرة بكسر الميم وهي القوة «١١» الايضاع : نوع من السير.

«١٢» لحا العود : قشره «١٣» الحجارة البيضاء البراقة تورى النار أو أصلب الحجارة

«١٤» عصب الشجرة : ضم ماتفرق من أغصانها اليها ثم خبطها ليسقط ورقها، والسلمة : نوع من الشجر «١٥» وهي تضرب أشد الضرب عند الهرب وعند الخلاط

أقول الا وفيت، ولا أهم الا أمضيت، ولا أخاق[1] الا فريت[2]. وإياي وهذه الزرافات والجماعات، وقال وقيل، وما يقولون، وفيم أنتم! والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلاً في جسده. من وجدته بعد ثلاثة من بعث المهلب بن أبي صفرة[3] سفكت دمه، وانتهبت ماله، وهدمت منزله!».

وخطب لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد فقال:

«أيها الناس! محمدان في يوم واحد، أما والله لقد كنت أحب أنهما معي في الدنيا مع ما أرجو لهما من ثواب الله في الآخرة. وأيم الله ليوشكن الباقي منا ومنكم أن يفنى، والجديد منا ومنكم أن يبلى، والحي منا ومنكم أن يموت، وأن تدال الأرض منا كما أدلنا منها فتأكل من لحومنا، وتشرب من دمائنا، كما مشينا على ظهرها، وأكلنا من ثمارها، وشربنا من مائها، ثم يكون كما قال الله «ونفخ في الصور فاذاهم من الأجداث الى ربهم ينسلون». ثم تمثل بهذين البيتين:

عزائي نبي الله من كل ميت ... وحسبي ثواب الله من كل هالك
اذا ما لقيت الله عني راضياً ... فان سرور النفس فيما هنالك

«١» أى لاأقدر ولاأفعل «٢» قطعت «٣» زعيم قادة الامويين. وهو بصرى مولداً ومنشأ، ظهر فى قتال الخوارج وأبادهم وأخلى البصرة منهم، وولاه الحجاج خراسان فاقام بها حتى أدركته الوفاة سنة ٨٢ هـ

ج ــ الكتابة

الكتابة الانشائية : الكتابة في الصدر الاول ــ كتاب النبي والخلفاء ــ مميزاتها في هذا العصر ــ تطوراتها ــ كتابة الدواوين: كتاب النبي ــ وضع الدواوين ــ أثرها في اللغة العربية ــ نماذج من رسائل أهل العصر في أغراض مختلفة.

يراد بالكتابة كتابة الانشاء ، وكتابة الدواوين .

أما كتابة الانشاء فهي كل مارجع من صناعة الكتابة الى تأليف الكلام وترتيب المعانى : من المكاتبات ، والولايات ، وبيعات الخلفاء ، وعهود الملوك ، والمسامحات ،والاطلاقات ، والهدن ،والأمانات ، والايمان . . الى غير ذلك مما لا يأخذه الحصر من الاغراض . وقد كان أولياء العرب في الصدر الأول كتاباً بالسليقة كما كانوا خطباء بالسليقة : يملون ما يريدون على كتابهم بأسلوب خطابي بليغ يصل الى قرارة النفوس فيؤثر أثره ، وربما كان بعضهم يخط بيده ولا يملي على كاتب . وكان للنبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكر بعض أهل السير نيف وثلاثون كاتباً منهم الخلفاء الأربعة ؛ وكتب لأبي بكر عثمان بن عفان وزيد بن ثابت ؛ ولعمر عبد الله بن خلف ، وزيد بن ثابت ؛ ولعثمان مروان ابن الحكم ؛ ولعلي عبد الله بن أبي رافع ، وسعيد بن نجران الهمداني .

ولما امتدت الفتوح وثقلت أعباء الدولة اتخذ الخلفاء كتاب أسرار مفوضين يصرفون بأقلامهم ما يرد عليهم من توقيعاتهم ، وكان في هؤلاء من اضطلع بمعرفة أنظمة الدول كالفرس والروم ، وحذق لغات الامم المتحضرة ؛ فأدخلوا الكتابة

في طور جديد إذ تفننوا في تنويع الأساليب التي دعا اليها اقتراب الدولة من الحضارة، وتغير أصول الحياة العامة عقلية كانت أم شعورية، سياسية كانت أم اجتماعية؛ ولم ينقض عصر الدولة الاموية حتى كاد الانشاء يكون فناً محرر الأصول له صفة معينة وطريقة مبينة القواعد وضعها أو أتمها عبدالحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم.

أما أسلوبها فهو جامع مانع، ومطمع ممتنع، متسق النظام، واضح المقاصد، تخف مؤونته، ويشهد ظاهره على باطنه. تعمره الألفاظ الكريمة والتراكيب الفخمة، ويغلب عليه الايجاز والقصد للحجة والوقوف عند الغرض من غير مبالغة أوتهويل، ولا حشر نعوت وأوصاف، ولا تفنن في البدء والتخلص والختام، ونحو ذلك من أمارات التصنع والتكلف. وكان النبي يفتتح أكثر كتبه بلفظ «من محمد رسول الله الى فلان» وربما افتتحها بلفظ «سلم أنت» أو «هذا كتاب» أو «أما بعد»، وكان يصرح في الغالب باسم المكتوب اليه في أول المكاتبات أو يكتفي بما اشتهر به كالقيصر ونحوه، فان كان ملكاً كتب بعد ذكر اسمه «عظيم القوم الفلانيين» أو «ملك القوم الفلانيين» أو «صاحب مملكة كذا»... الى غير ذلك من تعابيره المشهورة، ويتخلص الى المقصود تارة بأما بعد وتارة بغيرها مع إجراء الضمائر على قانون الوضع، واجتناب الحوشي البدوي الا يسيراً جواباً لمن يخاطبه بمثله من أهل نجد وتهامة وقبائل اليمن [1]. وكذلك كانت كتب الصحابة والتابعين حتى اذا ولي الخلافة الوليد بن عبدالملك الأموي [٨٦ – ٩٦ هـ] عظم الكتاب وأمر أن لايكاتبه الناس بمثل مايكاتب به بعضهم بعضاً فجرى العمل على ذلك

(١) سنورد أمثلة من ذلك.

حتى استخلف عمر بن عبد العزيز [٩٩ — ١٠١هـ] ، ثم يزيد بن عبد الملك [١٠١ — ١٠٥] فرجعا الى أسلوب النبي وأصحابه والتابعين ، ثم عاد الأمر الى ما سنه الوليد ، وجاء عبد الحميد الكاتب فأدخل الكتابة في طور جديد كما ذكرنا قريباً .

∴

وأما كتابة الدواوين فهي كل مارجع من صناعة الكتابة الى ما يجبى من أموال الخراج وما في معناها ، وصرف ما يصرف منها من الجاري والنفقات ونحوها . . .

وقد كان للنبي صلى الله عليه وسلم كتاب يكتبون له أموال الصدقات وخرص النخل والمداينات والمعاملات ، ثم لما انبسطت رقعة المملكة وفاضت موارد الفيء من الخراج ونحوه فيضاً لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطه ولا قبل لهم باحصاء مستحقيه وتوزيع المرتبات على أربابها بالعدل إلا بتنظيمها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة - أنشأ عمر رضي الله عنه دواوين على مثال دواوين الروم والفرس [١] ، وعهد بها الى بعض شباب قريش ، وكتبت في الأقاليم بلغة أهل المصر : كتبت في الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية ، وفي فارس والعراق بالفارسية ، وذلك لندرة من يحسن إداة شؤونها والاضطلاع بأعبائها على أصول الدول الراقية في الحضارة من العرب يومئذ . حتى اذا حذقها طائفة منهم وتأهلوا لادارتها حولها عبد الملك بن مروان الى العربية فصان بذلك أموال الدولة التي هي قوامها من تلاعب الكتاب الأعاجم . ولا ريب أن إنشاء الدواوين يعد

«١» أنظر أدب الكتاب لابي بكر الصولي ، وصبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٦

من مصادر ثراء اللغة يومئذ بما استحدث لها من المصطلحات الجمة : كالحكومة والوظيفة ، والعاصمة، والولاية ، والضيعة، والخراج، والسكة ، والتوقيع، والجباية؛ والمراصد ، والجرائد ، والدفاتر ، والوقف ، والمستغلات ، والراتب ، والجاري ، وغير ذالك مما لا يأخذه الاحصاء .

نماذج الكتب والرسائل

كتب النبي صلى الله عليه وسلم الى هرقل[1] :

من محمد رسول الله — الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى

أما بعد، فاني أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين، فان توليت فان عليك إثم الأريسيين ، و ياأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون .

وكتب الى المنذر بن ساوى[2]

سلم أنت ، فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو .

أما بعد فان من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم له ذمة الله وذمة الرسول ؛ فمن أحب ذلك من المجوس فانه آمن ، ومن أبى فان عليه الجزية .

وكتب الى طهفة النهدي وقومه[3]

من محمد رسول الله الى بني نهد .

السلام على من آمن بالله و رسوله . لكم يابني نهد في الوظيفة[4] الفريضة[5]

«١» عن الصحيحين «٢» عن الصبح ٦-٣٧٦

«٣» المثل السائر والصبح «٤» النصاب فى الزكاة وتطلق على الشئ الراتب

«٥» الهرمة المسنة . والمراد أنها لا تؤخذ منهم فى الزكاة بل تكون لهم

ولكم الفارض [1] والفريش [2]، وذو العنان الركوب [3] والفلو الضبيس [4]، لا يمنع سرحكم [5]، ولا يعضد طلحكم [6]، ولا يحبس دركم [7] مالم تضمر الاماق [8]، وتأكلوا الرباق. [9] من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهود والذمة، ومن أبى فعليه الربوة [10].

وكتب عمر بن الخطاب الى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء وتدبير الحكم [11]

بسم الله الرحمن الرحيم * أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة. فافهم اذا أدلي اليك، فانه لا ينتفع تكلم بحق لا نفاذ له: آس الناس في مجلسك وفي وجهك وقضائك حتى لا يطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك. البينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ومن ادعى حقاً غائباً أو بينة فاضرب له أمداً ينتهي اليه فان بينه أعطيته بحقه، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية فان ذلك أبلغ في العذر وأجلى للعماء. ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه

«١» المريض أو المسن من الابل «٢» ما انبسط من النبات على وجه الارض ولم يقم على ساق، وقد يطلق على الفرس اذا حمل عليها بعد النتاج ايضا «٣» الفرس الذلول «٤» المسر الصعب الذى لم يرض «٥» السارحة وهى المواشى.

«٦» العضد: القطع، والطلح: شجر عظام من شجر العضاه «٧» الدر: اللبن، والمراد ذوات الدر من المواشى «٨» النكث والغدر «٩» جمع ربقة وهى فى الاصل اسم لعروة تجعل فى الحبل وتكون فى عنق البهيمة أو يدها تمسكها، والمراد هنا نقض العهد، واستعار الاكل لذلك لان البهيمة اذا أكلت الربقة خلصت من الشد «١٠» الزيادة فى الفريضة الواجبة تكون كالعقوبة لمن ينقض العهود.

«١١» اعلام الموقعين للامام ابن القيم ١ – ٩٩ – ١٠٠ طبعة الذكير، والبيان والتبيين ٢ – ٢٣ – ٢٤ طبعة (الفتوح الادبية) وقد اقتصرنا على رواية الاعلام

رأيك فهديت فيه الى رشدك أن تراجع فيه الحق ، فان الحق قديم لا يبطله شيء ، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . والمسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجرباً عليه شهادة زور ، أو مجلوداً في حد ، أو ظنيناً[1] في ولاء أو قرابة ، فان الله تعالى تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود الا بالبينات والأيمان . ثم الفهم الفهم فيما أدلي اليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق . وإياك والغضب والقلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر عند الخصومة ، فان القضاء في مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر ، فمن خلصت نيته في الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن يزين بما ليس في نفسه شانه الله . فان الله تعالى لا يقبل من العباد الا ما كان خالصاً ، فما ظنك بثواب عند الله في عاجل رزقه ، وخزائن رحمته . والسلام عليك ورحمة الله » .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى أهل الأمصار في الأنبذة[2] :

« أما بعد ، فان الناس كان منهم في هذا الشراب المحرم أمر ساءت فيه رغبة كثير منهم حتى سفه أحلامهم وأذهب عقولهم ، فاستحل به الدم الحرام وفروج الحرائر . وإن رجالاً منهم ممن يصيب ذلك الشراب يقولون : شربنا طلاء[3] فلا بأس علينا في شربه . ولعمري إن فيما قرأت مما حرم الله بأساً ، وإن في الأشربة التي أحل الله من العسل والسويق والنبيذ من الزبيب والتمر لمندوحة[4] عن الأشربة الحرام . غير أن كل ما كان من نبيذ العسل والتمر والزبيب فلا ينبذ

---

(١) متهماً (٢) العقد الفريد ٤ — ٣٣٣ (٣) بكسر الطاء ماطبخ من عصير العنب حتى ذهب ثلثاه (٤) المندوحة : السعة

الا في أسقية الأدم التي لازفت فيها ، ولا يشرب منها ما يسكر. فانه بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن شرب ماجعل في الجرار والدباء[1] والظروف المزفتة ، وقال : كل مسكر حرام . فاستغنوا بما أحل لكم عما حرم عليكم . وقد أردت بالذي نهيت عنه من شرب الخمر من الطلاء وماجعل في الدباء والجرار والظروف المزفتة وكل مسكر إقامة الحجة عليكم . فمن يطع منكم فهو خير له، ومن يخالف الى مانهي عنه نعاقبه على العلانية ، ويكفنا الله ما أسر فانه على كل شيء رقيب ؛ ومن استخفى بذلك عنا فان الله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الى بعض اخوانه يعاتبه[2] :

« أما بعد ، فقد عاقني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك . إبتدأتني بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبتني جفاء من غير ذنب ، فأطمعني أولك في إخائك، وأيأسني آخرك من وفائك . فلا أنا اليوم مجمع لك اطراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بايضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فأقمنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام » .

وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن أرطاة ، وهو عامله على البحرين:[3]

«أما بعد ، فاذا أمكنتك القدرة على المخلوق ، فاذكر قدرة الخالق عليك ! واعلم أن مالك عند الله مثل ما للرعية عندك» .

وكتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص الى مروان بن محمد — وقد بلغه عنه تلكؤ في بيعته — :

«أما بعد ، فاني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاذا أتاك كتابي فاعتمد على أيهما شئت والسلام » .

١، ١لفرع ٢، البيان والتبيين ٢-٤١ ٣، صبح الأعشى ٦-٣٩١

الكتاب

الكتاب في هذا العصر كثير عديدُهم لأن ملكة الفصاحة والبلاغة يومئذٍ صفة راسخة في العرب فكانوا ينشئون بالسليقة كما يخطبون و يتحادثون ، لذلك تجد في رسائلهم وعهودهم من الطلاوة والسلاسة المطمعة الممتنعة والجمال الطبيعي ما يفتن اللب ، و يصبي المشاعر . ولما أصبحت الكتابة صناعة عتيدة زاولها المتعربون من الفرس وغيرهم فضربوا منها بالسهم الوافر ؛ ونبغ فيهم غير واحد ، وواتى الجد رجلاً بلغ من البلاغة مبلغاً يضرب به المثل ،فاستطاع أن ينهج فيها طرقاً جديدة و يستخلص لنفسه أسلوباً ممتازاً ، فطبع على غراره كل من أتى بعده ، وذهب هو من بين الكتاب بالشهرة الخالدة على كر الغداة ومرّ العشي . ذلك هو :

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

[٠٠٠ — ١٣٢هـ]

من أهل الأنبار . نشأ بالشام ونسب الى بني عامر نسبة ولاء ، وتخرج في الكتابة على سالم مولى هشام بن عبدالملك وكاتب سره . فكان في أول أمره معلم صبيان يتنقل في البلدان ، فلما نبه شأنه وعرف نبوغه في الكتابة استكتبه عبد الملك بن مروان ثم سليمان و يزيد ابنا عبد الملك . ولم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية حتى أفلت شمسهم . وقيل : بل مروان بن محمد آخر ملوكهم هو أول من علم بمكانته فاستكتبه أيام ولايته على إرمينية ، فكتب له وأنقطع اليه حتى اذا جاء البشير بمبايعة أهل الشام له بالخلافة سجد مروان لله شكراً ، وسجد أصحابه إلا عبد الحميد ، فقال له مروان : لمَ لاسجدت ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلى أن

كنت معنا فطرت عنا ؟ يعني بالخلافة . فقال : إذن تطير معي ! قال : الآن طاب السجود ، وسجد ! فاتخذه كاتب دولته ، ولازمه عبد الحميد في أشد أيامه العصيبة . فانه — لما نشأت الدعوة العباسية ، وانهالت ألويتها السود على الأمويين للادالة منهم لبني العبـاس ، واشتد الطلب على مروان ، وتتابعت هزائمـه المشهورة — قال له مروان : « قد احتجت أن تصير مع عدوي وتظهر الغـدر بي فان إعجـابهم بأدبك وحاجتهم الى كتابتك تحوجهم الى حسن الظن بك ، فان استطعت أن تنفعني في حياتي والا لم تعجز عن حرمي بعد وفاتي » فقال له « إن الذي أشرت به علي أنفع الأمرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي الا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل معك » وأنشد :

أسر وفاءً ثم أظهر غدرة ! فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره [1]

و بقي معه حتى قتل مروان بمصر ، فلجأ الى صديقـه عبـــد الله بن المقفع (١٠٦ — ١٤٢) أحد فحول البلاغة ففاجأه الطلب وهو في بيته ، فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال كل منهما « أنا » خوفاً على صاحبـه أن يناله مكروه ، وخاف عبد الحميد أن يسرعوا الى ابن المقفع فقال : ترفقوا بنا فان كلاً منا له علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض بعض آخر ويذكر تلك العـلامات لمن وجهكم ، ففعلوا وأخذ عبد الحميد الى السفاح فسلمه الى عبـد الجبار صاحب شرطته فكان يحمي له طشتاً ويضعه على رأسه الى أن مات ، وقيل : إنه قتل مع مروان بمصر .

∴

«١» عن وفيات الاعيان للقاضي ابن خلكان . وأورد أبو منصور الثعالبي في (المضاف والمنسوب) ص ١٥٧ هذا البيت في مكانه :

وذنبي ظاهر لاشك فيه لبصره وعذرى بالمغيب

وقد ذهبت آثاره بدداً فلم ينته الينا منها الا شئ يسير كرسالته عن مروان الى عبدالله بن مروان حين أرسله لقتال بعض الخوارج، فى أدب الأمراء وتعبئة الحروب. ووصيته للكتاب، ورسالة الشطرنج[1]، ورسالة الصيد، وتحميدات ورسائل أخرى قصار تجد فيها من دقة النظر، وشرف الأغراض، وجمال المعاني، وسلاسة الأسلوب، وأخذ الجمل بعضها برقاب بعض مالا يتيسر الا لمن خصه الله بمزايا التفكير العميق، وصفاء الذهن، وغزارة العقل، ووفرة المادة... وقد توفرت هذه الخلال في عبدالحميد، وزادها قوة تخرجه على ختنه سالم مولى هشام بن عبدالملك أحد البلغاء والنقله من اليونانية، ثم مثافنته للملوك واضطلاعه بأعباء الدولة، وأسفاره في البلاد، ونظره في طبائع الأمم وأحوال الاجتماع، ومعرفته اللسان الفارسي — فوفق لاستحداث ذلك النمط الجديد الذي رسمه لمن بعده وصار به أستاذ الكتاب الأوائل على الاطلاق. وعندي أن ميزة كتابته ليست بتنويع الخطاب وتحكيك الألفاظ، ولا بالايجاز والاطناب موافقة لمقتضى الحال، ولا باطالة التحميدات في صدور الرسائل والتفنن في البدء والختام ليست بهذه الصفات العامة وحدها كما ينطقون. وإنما بها، وبما فيها من آثار العقل الراجح، والشعور الفياض وثروة التجارب الحكيمة، وانطباعات الروح السامي المثقف بتفهم كتاب الكون بما فيه من عجائب وأسرار، وذلك هو سر بلاغة عبد الحميد التي كان يفرغها في رسائله الطوال والقصار، وذلك هو سر كتابه الذي يقولون: كتبه عن مروان الى أبي مسلم الخراساني يستجلبه به ويستميله فأحرقه خوفاً على نفسه من تأثيره وكتب على جذاذة[2] منه الى مروان:

محا السيف أسطار البلاغة وانتحى عليك[3] ليوث الغاب من كل جانب

(١) نشر العلامة محمد كرد على هذه الرسائل الثلاث وقطعاً اخرى فى (رسائل البلغاء)

(٢) قطعة (٣) اقبل عليك

فأسطار البلاغة تلك لم تكن إطالة تحميدات ولاتفنناً في بدء وختام ، و إنما هي المعاني الخطابية الساحرة ، وتدبير العقل الحصيف ، وسياسة التعبير والتبيين . . . مفرغة في قوالب البيان العربي الأخاذ .

وانظر ما أبلغه في هذا الكتاب الوجيز كتبه في التوصية بشخص :[1]

« حق موصل كتابي عليك كحقه علي ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ؛ وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله ! » .

وهذا الكتاب ، وقد بعث به الى أهله وهو منهزم مع مروان[1]

« أما بعد ، فان الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن اليها ، ومن عضته بنابها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ؛ وقد كانت أذاقتنا أفاويق[2] استحليناها ، ثم جمحت[3] بنا نافرة ، و رمحتنا[4] مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الاوطان ، وفرقتنا عن الاخوان ، فالدار نازحة[5] ، والطير بارحة[6] ، وقد كتبت - والأيام تزيدنا منكم بعداً ، واليكم وجداً - فان تتم البلية الى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم و بنا ، و إن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع اليكم بذل الاسار ، والذل شر جار . نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء و يذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فانه رب العالمين وأرحم الراحمين » .

« ١ » هاتان الرسالتان من شرح رسالة ابن زيدون .

« ٢ » جمع فيقة بكسر الفاء : اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين « ٣ » جمح الفرس : ركب رأسه لايثنيه شيء ، وبراكبه : غلب عليه « ٤ » رمحه الفرس : رفسه

« ٥ » بعيدة « ٦ » البارح من الطير ما مر من ميامنك الى مياسرك وكانوا قبل الاسلام يتشاءمون منه.

ومن رسالة له في وصف الصيد كتب بها الى مروان فيما يظهر [1]

« . . . خرجنا الى الصيد بأعدى الجوارح [2] وأثقف الضواري ؛ أكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساماً ، وأحسنها ألواناً ، وأحدها أطرافاً ، وأطولها أعضاءً ، قد ثقفت بحسن الأدب ، وعودت شدة الطلب ، وسبرت [3] أعلام المواقف ، وخبرت المجاثم [4] ، مجبولةً على ما عودت ، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة [5] ، من الشهرية [6] الموصوفة بالنجابة ، والجري والصلابة . فلم نزل بأخفض سـير وأثقف طلب ، وقد أمطرتنا السماء مطراً متداركاً [7] فربت [8] منه الأرض ، وزهر البقل ، وسكن القتام [9] من مثار السنابك [10] ، ومتشعبات [11] الأعاصير [12] ، مهلة أن سرنا غلوات [13] ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت « من » السحاب مسفرة ، فتلألأت الاشجار ، وضحك النوار [14] ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظراً أحسن حسناً ، ولا مرموقاً أشبه شكلاً من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض. والخيل تمرح بنا نشاطاً ، وتجتذبنا أعنتها انبساطاً ، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر [15] طرف الناظر [16] وتخفي سبل السلام ، تغشانا تارةً وتنكشف أخرى ،

«١» من كتاب (اختيار المنظوم والمنثور) لابن طيفور وقد رأيت بعض اجزائه في دار الكتب المصرية . رقم «٥٨١ أدب» .

«٢» ذوات الصيد من السباع والطير

«٣» اختبرت «٤» جمع مجثم : مكان الجثوم وهو أن يبرك الطائر على رجليه ويلزم مكانه «٥» النشاط والقوة . والفراهة ـ على أقوال اللغويين ـ توصف بها البراذين دون الخيل العراب فلا يقال فرس فاره ولكن رائع وجواد «٦» بكسر الشين ، ضرب من البراذين

«٧» متتابعاً «٨» انتفخت «٩» الغبار الضارب الى السواد «١٠» جمع سنبك وهو طرف مقدم الحافر «١١» في الاصل «متسمات» «١٢» جمع اعصار وهو الريح تثير الغبار الشديد

«١٣» الغلوة : مقدار رمية سهم من ثلاثمائة ذراع الى اربعمائة «١٤» الزهر أو الابيض منه «١٥» في الاصل تقتصر «١٦» الاصل : ويحيى

ونحن بأرض دمثة [1] التراب، أشبة [2] الأطراف ، مغدقة الفجاج ، مملوءة صيداً من الظباء والثعالب والأرانب، فأدانا المسير الى غابة دونها مألف الصيد، ومجتمع الوحش، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكل حرة جونة [3] متفرقون ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد انجلت الضبابة ،وامتد النظر،فاذا نحن برعلة [4] من ظباء ، وخلفة آرام [5] يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن استماع حسنا ،فلم نعج [6] الا والضواري لاُحا لهن من بعد الغاية،ومنتهى نظر الشاخص، ثم مدت الجوارح أجنحتها ، واجتذبت الضواري مقاودها ، فأمرت بارسالها على الثقة بحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تسف الأرض سفاً [7] ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ،حارشة [8] بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مفره ، وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد، والله المنعم الوهاب.

ثم ملنا ـ يا أمير المؤمنين ـ بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب [9] ، الى غدير أفيح [10] ، وروضة خضرة، مستأجمة [11] بتلاوين الشجر، ملتفة بصنوف الخمر [12] ، مملوءة من أنواع الطير ، لم يذعرهن صائد، ولا اقتنصهن

«١» لينة «٢» من أشب الشجر اذا التف ، وكانت فى الاصل « اسنة »

«٣» الحرة : الارض ذات الحجارة السوداء النخرة ، والجونة : السوداء «٤» قطعة

«٥» أنظر ص ٧٢ «٦» عاج بالمكان : أقام وعاج رأس فرسه عطفه وأماله . وكان فى الاصل (فلم يفح) «٧» السفيف : المرور على وجه الارض «٨» صائدة «٩» جمع مذنب وهو مسيل الماء فى الحضيض ليس بخدواسع «١٠» واسع «١١» كثيرة الشجر الملتف

«١٢» الشجر المتكاثف .

قانص ، فخفق لها بالطبول ، وصفر بنفير الحتف[1] فثار منها ماملأ الأفق كثرتها وراعت الجوارح خفقات أجنحتها ، ثم انبرت البزاة[2] لها صائدة ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ، يرفعن الطلب لها ، ويخفضن الظفر بها ، حتى سئمنامن الذبح ، وامتلأنا من النضح[3] ، كأنا كتيبة[4] ظفرت ببغيتها ، وسرية[5] نصرت على عدوها ، وألحقت ضعيفها بقويها ، وغلبت[6] محسنها بمسيئها ؛ لانملك أنفسنا مرحاً ، ولانستفيق من الجذل بها فرحاً ، بقية يومنا ، والله المنعم الوهاب .

ثم غدونا -- يا أمير المؤمنين -- إلى أرض وصف لنا صيدها بالكثرة ، ورياضها بالنزهة ، فزل واصفها عن الطريقة ، واعتمد بنا على غير الحقيقة ؛ فأتيناها فلم نر صيداً ولا عشباً ، ولا نزهة ولاحسناً ، فجعلنا نسلك منها حزوناً[7] ووعوراً ، وجدوباً وقفراً ، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب ، وقطع بنا عن الطمع النصب . فبينا نحن كذلك ، إذ بدالنا جأب[8] قد أوفى بنا على حائل دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة ، فأممناها[9] ، فلما تطرفنا مشياً وتقريباً إلى عاناته[10] ، توالى نيقه ، وكثر شهيقه ، فالتفتن اليه ، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه ، واستهولن أمره ، حتى اذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات ، وهربن مسيبات ، فأجهدنا الركض في طلبهن ،

«١» الموت «٢» اعترضت الصقور «٣» البلل والرش الخفيف

«٤» الكتيبة : الطائفة من الجيش وجماعة الفرسان الى نحو الالف

«٥» قطعة من الجيش من عشرة الى أربعمائة «٦» فى الاصل (قلبت)

«٧» جمع حزن بفتح الحاء وسكون الزاى وهو ماغلظ وارتفع من الارض

«٨» حمار غليظ أووحشى «٩» قصدناها «١٠» العانة : الاتان ، والقطيع من حمر الوحش

نتبع آثارهن ، ونستشف بلاء بين أحفار ودكادك[1] وأخاديد[2] ، حتى أشفى بنا[3] الطلب لها على وادٍ هائلٍ سائل ، بجنبتيه غابة أشبة[4] قد سبقن اليها ، واستخفين فيها ، فنظمناها بالخيل نظم الخرز ، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها ، والطبول خافقة ، والأصوات شاهقة ، فكان وكان ؛ والحمد لله على كل حال .

«١» جمع دكدك : أرض فيها غلظ «٢» جمع أخدود وهو حفرة مستطيلة في الارض وكان في الاصل (خناذيذ) «٣» أشرف بنا . «٤» ملتفة الاشجار

الفصل الثالث

الشعر

حالة الشعر في الجاهلية — أثر القرآن فيه — أغراضه في عهد النبي ودولة الخلفاء الراشدين — أثر الأحزاب السياسية فيه — اصطناع الأمويين للشعراء وسبب ذلك — نشأة الهجاء السياسي، وتجدد فن الغزل، وأسباب ذلك — الرجز والافتنان به — تجنب الشعراء وصف الخمرة ورجوعهم اليه — نماذج متنوعة من فنون الشعر في هذا العصر.

كانت حياة العرب في الجاهلية حياة فوضوية اشتدت فيها العصبية اشتداداً أيقظ الأهواء الجامحة، وأثار الشعور الحاد، فعمد القوم الى الشعر يمثلون فيه ميولهم حتى بلغ من حفلهم به أن صارت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها به، وصنعت الأطعمة، وأقامت له المجامع، لأنه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم. وفيما هم سادرون في ذلك يقيمهم الشعر ويقعدهم، إذ خرج اليهم النبي (ص) رسولاً يحاول أن يمحو تلك العصبية الجاهلية، ويذهب بتلك الفوضى؛ ومعه كتاب منزل يسفه هذه الجهالة الموبقة، ويدعو الى شيء جديد مالهم به من علم؛ فذهلوا كمن كان نشوان سادراً في عمايته، ثم صدم صدمة أذهلت لبه؛ وهبوا هبة واحدة يتبينون هذا الأمر، فكان فيهم من يناضلونه حرصاً على قديمهم، وطمعاً في أن يقضوا

عليه قبل أن يقضي عليه ؛ ومن قبلوه ديناً مضوا يعاضدونه ويؤيدونه إعجاباً بهذا الجديد الطريف، وحرصاً على إحلاله محل ذلك الرث الذي أنهج حتى تهرأ وتساقط قطعاً ... فكان ظهور الاسلام الشغل الشاغل لهم عن الشعر والتنافس فيه اللهم إلا ما كان من بعض شعراء قريش إذ اتخذوه أداة لمناجزة النبي وايذائه حتى اضطروه كرهاً أن يرميهم بحسان بن ثابت وغيره قطعاً لألسنتهم، وانتصافاً للاسلام. وقد زرى القرآن على أولئك القوم، إذ اتخذوا الشعر أداة للاغواء فقال « والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون » ثم استثنى المؤمنين ورخص لهم ضمناً أن يقولوه ولكن في الأغراض الشريفة، والمقاصد النبيلة، فقال : « إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا » فقصر الذين أسلموا على صوغ الحكم، وامتداح الرسول، وهجاء المشركين نضحاً عن الاسلام الذي تناولوه بألسنتهم الخبيثة، والتحريض على قتال المنابذين والمهاجمين، وما في معنى هذا مما لا يفصم عقدة، ولا يحيي عصبية، أو يثير جهالة.

حتى اذا انشقت العصا بقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وماجت البلاد بالفتن والخصومات السياسية — رجع القوم بالشعر الى عهده في الجاهلية. ثم آل الأمر الى بني أمية، وكثر الشغب عليهم، وجاذبتهم بردة الملك أيد مختلفة ؛ فعمدوا — في جملة ما عمدوا اليه من عدد الدفاع — الى الشعراء — وكانوا يومئذ بمنزلة الصحف السياسية لعهدنا بل أبلغ منها تأثيراً — يتألفونهم بالجوائز ليضربوا بهم خصومهم، وينضحوا عنهم، ويؤيدوا سياستهم ؛ ثم أوقعوا بين الشعراء أنفسهم التنافس، وأذاقوا بعضهم « هجاء »

بعض [1] ، ليشغلوهم و يشغلوا الناس عن الخصومة في الخلافة بخصوماتهم ، فتهاجى جرير والفرزدق والأخطل وثمانون شاعراً معهم يتقاذفون ، وحل مربد البصرة وسوق الكوفة محل عكاظ للمناشدة والمفاخرة والمنافرة والحكومات وعادت للشعر حياته الأولى في العهد الجاهلي . فعل ذلك بنو أمية رغبة فيه ، واضطراراً اليه : أما رغبة فيه فلأنهم في صميم العرب فيهم هزة للشعر ، وطرب اليه ، وحرص على اللغة وآدبها . . . وأما اضطراراً فلما علمت من تألب الأحزاب عليهم ، ومحاولاتهم سلب الخلافة منهم ، والقضاء عليهم ؛ فلم يروا في جملة وسائل الدفاع وتثبيت دعائم الملك خيراً من اصطناع الشعراء ، والهاء الناس عن شؤون الخلافة بشؤون الشعر ، والاثابة عليه ؛ فتم لهم ما أرادوا و زها الشعر وتجدد تجديداً قوياً في موضوعة إذ نشأ فيه نوعان لم يألفهما العرب في الجاهلية أو لم يحسنوهما ، وهما : الشعر السياسي ، والغزل .

أما الأول فقد نشأ عن استحالة الخلافة الى الملك ، وانقسام القبائل بالعصبية الى أحزاب كما تقدم معك بيانه . . .

وأما الثاني فقد تكون عن الانتقال من البداوة الى الحضارة ، والانغماس في الترف والنعيم أيام بني أمية ، فنبغ في الشعراء بالحجاز خاصة من قصروا حياتهم على الحب والغرام ، فاتخذوا الغزل فناً مختاراً لا يعنون بغيره ، ولا يقصدون الى سواه من فنون الشعر وأغراضه : كابن أبي عتيق ، وابن الطثرية ، وابن أبي ربيعة ، وجميل بن معمر ، وأضرابهم ممن لا نعرف في الجاهليين شاعراً يضارعهم في تكلف هذا الفن لنفسه ، وقصر شعره عليه لا يتعداه الى غيره ؛ وكل ما نعرفه للجاهليين من الغزل والتشبيب و وصف النساء إنما كان يتخذ وسيلة الى غيره من فنون

---

[1] وقد كان الخلفاء من قبل يعاقبون على الهجاء حتى لقد عاقب عمر (رض) شاعراً يدعى الحطيئة بالسجن ، وهدده بقطع لسانه .

الشعر لا فناً يصورون به عواطفهم وأهوآءهم وميولهم، ويصفون به ألم الحب ولذاته وما يستتبع ذلك من مسرات الحياة ونعيمها. لذلك نعد هذا النوع في الشعر فناً جديداً، ولا نذهب الى أن الجاهليين قد عرفوه أو فهموه. وسترى في باب النماذج وتراجم الشعرآء الذين كونوا هذا الفن، المرقص المطرب من مقاطعيه الساحرة التى أستبد بها العصر الأموي دون سآئر العصور.

ولا ننس شيئاً آخر قوي خطره في هذا العصر، وذلك هو الرجز، فقد كان في الجاهلية لا يعتد به، وكانوا لا يقولون منه الا قليلاً جداً حتى اذا جاء الاسلام نبغ أفراد من الرجاز كالأغلب، والعجاج، وأبي النجم، ورؤبة، فانصرفوا الى تجديد هذه الناحية من الشعر، وافتنوا بالرجز في كل غرض، وذهبوا به كل مذهب، وطولوه، وجودوا القول فيه حتى انتصفوا للرجاز من الشعراء، وزاحموهم في مجالس الملوك. ولكنهم قد أكثروا من الغريب فيه، وكذلك فعل من جاء بعدهم في العصر العباسي كأبي نواس والمتنبي فيما نظماه من الرجز، فكأن القوم كانوا يتعمدون أن يجعلوه وعاءً له.

وكان الاسلام قد أمات، في جملة ما أمات من مرذول أغراض الشعر، وصف الخمرة لأنه لما حرم تعاطيها لخبائثها، وتغلب ضررها، تجنبها المسلمون فاستتبع ذلك تنزيه الشعر عن ذكرها احتشاماً ووقاراً، ولم يجرؤ على وصفها الا الأخطل لأنه مسيحي ليس بمكلف. وقد صام المسلمون عن وصفها كما صاموا عن شربها طوال هذا العصر حتى اذا ضعف شأن الدولة، وشغل أولو الأمر بظهور الفتن والأحداث عن مراقبة الاخلاق، وإقامة الحدود ـ جرؤ الشعراء على الجهر بوصفها من غير ما اشفاق ولا حذر. ثم أسرفوا في شربها والتغني بها من غير

احتشام .ولعل أسبقهم الى ذلك هو أبو الهندي من مخضرمى الدولتين : الأموية والعباسية .

نماذج الشعر الاسلامى

هذا ولابد من إيراد (نماذج) من هذه الانواع الثلاثة التي جدت في الشعر أو قوي خطرها : الشعر السياسي ، والغزل ، والرجز ، ثم من سائر أغراض الشعر التي لم تخرج في معانيها وأساليبها عما ألف في العصر الجاهلى الا قليلاً في ترتيب الافكار ، واطراح الحوشي المتنافر بمدارسة القرآن والحديث ، ومشاهدة مشاهد الحضارة.

(ا) الشعر السياسى

قال مسكين الدارمي يقترح على معاوية ترشيح يزيد بعده للملك :

اليك أمير المؤمنين رحلتها ... تثير القطا ليلاً وهن هجود
الاليت شعري مايقول ابن عامر ... ومروان أم ماذا يقول سعيد؟
بني خلفاء الله مهــلا فانما ... يبوؤها الرحمن حيث يريد
اذا المنبر الغربي خلاه ربه ... فان أمير المؤمنين يزيد
على الطائر الميمون والجد صاعد ... لكل أناس طائر وجدود

وقال أعشى ربيعة يخاطب عبد الملك بن مروان ويحرضه على قتال ابن الزبير:

آل الزبير من الخلافة كالتي ... عجل النتاج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت ... مالا تطيق فضيعت أحمالها
قوموا اليهم لاتناموا عنهم ... كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لافيهم ... مازلتم أركانها وثمالها (١)

---

(١) الثمال : بكسر الثاء الملجأ و الغياث الذى يقوم بامر قومه .

أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهض بيمنك فافتتح أقفالها

وقال ابن الزبير[1] الاسدي لابراهيم بن عامر الأسدي[2]

أقول لابراهيم يوم لقيته أرى الأمر أمسى منصباً متشعبا

تخير فاما أن تزور ابن ضابئ عميراً، وإما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حولياً من البلج أشهبا[3]

فما إن أرى الحجاج يغمد سيفه يد الدهر[4] حتى يترك الطفل أشيبا

فأضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هي أقربا

وقال عبيد الراعي في ملحمته:

إني حلفت على يمين برة لا أكذب اليوم الخليفة قيلا

ما زرت آل أبي خبيب[5] طائعاً يوماً أريد لبيعتي تبديلا

ولما أتيت نجيدة بن عويمر[6] أبغي الهدى فيزيدني تضليلا

من نعمة الرحمن لا من حيلتي أني أعد له علي فضولا

وشنئت[7] كل منافق متقلب ترك الزلازل قلبه مدخولا[8]

«١» بفتح الزاى وكسر الباء الموحدة «٢» وذلك بعد أن ضرب الحجاج عنق عمير بن ضابئ البرجمى بحجة تأخره عن الالتحاق بجند المهلب بن أبى صفرة، ونادى المنادى الان ذمة الله بريئة ممن لم يأت الليلة الى جند المهلب . فلقى ابراهيم عبدالله بن الزبير فسأله عن الخبر فقال هذه الايات «٣» الحولى: ما أتى عليه الحول ... والبلج: جمع أبلج وهو المشرق الوضيء، والاشهب: ما كان لونه الشهبة وهى بياض يخالطه شيء من السواد «٤» أى أبداً

«٥» كنية عبدالله بن الزبير أول من ولد من المهاجرين بعد الهجرة، بويع له بالخلافة بمكة سنة ٦٤ بعد موت يزيد بن معاوية، وقتله الحجاج سنة ٧٣ وأزال ملكه وكان قد اجتمعت له العراق واليمن والحجاز ومصر «٦» يريد به نجدة بن عامر الخارجى كان باليمامة واتخذ مذهباً تنسب اليه النجدية من الحرورية «٧» أبغضت «٨» اى فاسداً، والزلازل: الحوادث المزلزلة.

واهي الأمانة لاتزال قلوصه　　بين الخوارج نهزة وذميلا[1]
من كلهم أمسى يهم ببيعة　　مسح الأكف تعاود المنديلا

الى أن يقول :

قتلوا ابن عفان إماماً محرماً　　ودعا فلم أر مثله مخذولا[2]
فتصدعت من يوم ذاك عصاهم　　شققاً وأصبح سيفه مفلولا
حتى إذا نزلت عماية فتنة　　عمياء كان كتابها مفعولا
و زنت أمية أمرها فدعت له　　من لم يكن غمراً[3] ولامجهولا
مروان أحزمهم اذا حلت به　　حدث الأمور وخيرها مسؤولا
أيام قومي والجماعة كالذي　　لزم الرحالة أن تميل مميلا

وقال غيره :

أرى خلل الرماد وميض نار　　و يوشك أن يكون لها ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم　　يكون وقودها جثث وهام
فان النار بالعودين تذكى　　وإن الحرب أولها كلام

«١» القلوص : الناقة الشابة ، والخوارج :هم الذين خرجوا على على بن أبى طالب بعد ما كانوا فى طاعته ، ونهزة منصوب بفعل محذوف أى تنهز نهزة وهى أن تنهض الدابة بصدرها للسير ، والذميل نوع من السير «٢» هذا البيت من أبيات المعانى ، روى العسكرى فى كتاب التصحيف أن الرشيد سأل أهل مجلسه عن هذا البيت فقال : أى احرام هذا ؟ فقال الكسائى : أراد أنه أحرم بالحج ، فقال الاصمعى : والله ما أحرم ولاعنى الشاعر هذا ، ولو قلت : أحرم دخل فى الشهر الحرام لكان أشبه ! قال الكسائى : فما أراد بالاحرام ؟ قال :كل من لم يأت شيئاً يستحل به عقوبته فهو محرم ، خبرنى عن قول عدى بن زيد :

قتلوا كسرى بليل محرماً　　فتولى لم يمتع بكفن

ى احرام كان لكسرى ؟ فسكت الكسائى ، فقال الرشيد : يا أصمعى ما تطاق فى الشعر ، انظر المزهر ج ١ ص ٢٧٨ بولاق

«٣» بضم الغين ، وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الامور

فقلت من التعجب ليت شعري ... أأيقاظ أمية أم نيـــام ؟
فان يقظت فذاك بقاء ملك ... وإن رقدت فاني لا ألام
فان يك أصبحوا وثووا نياماً ... فقل : قوموا فقد حان القيـام

(ب) الغزل والنسيب

قال أبو صخر الهذلي من قصيدة [1] :

أما والذي أبكى وأضحك والذي ... أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركتني أحسد الوحش أن أرى ... أليفين منهـا لا يروعها الذعر [2]
فيا حب ليلى قد بلغت بي المدى ... وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
ويا حبها زدني جوى كل ليلة [3] ... ويا سلوة الأيام موعدك الحشر [4]
عجبت لسعي الدهر بيني وبينهـا ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر [5]
وما هو الا أن أراها فجـاءة ... فأبهت لا عرف لدي ولا نكر [6]

وقال أبو عامر عروة بن أذينة من شعراء المدينة ، ويعد في الفقهاء والمحدثين: [7]

إن التي زعمت فؤادك ملهـا ... خلقت هواك كما خلقت هوى لها
بيضاء باكرها [8] النعيم فصاغها ... بلبقـة [9] فأدقهـا وأجلهـــا [10]
لما عرضت مسلماً لي حاجـة ... أخشى صعوبتهـا وأرجو ذلهـا

«١» تجدها في أمالي القالي ٢ — ١٤٩ — ١٥٠ طبعة ١٣٢٤ ه

«٢» لا يفزعها الخوف «٣» الجوى: حرقة القلب «٤» يريد أنه لا يسلوها أبداً

«٥» سعي الدهر: كناية عن سرعة تقضي أوقات الوصال كما أن سكونه كناية عن استطالة الفراق «٦» يقول : ما حالي في حبي اياها الا أني أراها بغتة فادهش وأتحير حتى لا يكون لي علم بالعرف والنكر

«٧» وقد نسب أبياته بعض أهل الادب الى المجنون خطأ «٨» أتاها مبكراً

«٩» بحذق «١٠» أتى بها دقيقة جليلة فما يستحب دقيقه مثل الخصر صاغه كما يستحب وما تستحب جلالته جعلها فيه جليلة

منعت تحيتها ، فقلت لصاحبي : ما كان أكثرها لنا وأقلها [1]
فدنا فقال : لعلها معذورة في بعض رقبتنا . فقلت : لعلها !
و إذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضمير الى الفؤاد فسلها [2]

وقال أبو بكر بن عبد الرحمن بن المسور القرشي — وقدحن الى زوجه [3] ، وهو في طريقه الى الشام ، وكان شديد الحب لها ، فضرب وجوه رواحله الى المدينة ، وأنشد هذا الشعر :

بينما نحن بالبلاكث فالقا ع سراعاً والعيس تهوي هويا [4]
خطرت خطرة على القلب من ذكـ راك وهناً فما استطعت مضيا [5]
قلت: لبيك ، إذ دعاني لك الشو ق ، وللحادين : حثا المطيا !

وقال عبد الله بن الدمينة [6] :

الا ياصبا نجد ! متى هجت من نجد ؟ لقد زادني مسراك وجداً على وجد [7]
أأن هتفت ورقاء في رونق الضحى على فنن غض النبات من الرند [8]
بكيت كما يبكي الوليد ولم تكن جليداً [9] وأبديت الذي لم تكن تبدي [10]
وقد زعموا أن المحب اذا دنا يمل ، وأن النأي [11] يشفي من الوجد

« ١ » أى ما كان أكثرها لنا حيث كانت مواصلة بالعطف والميل ، وما أقلها لنا الساعة وقد زهدت فينا « ٢ » المعنى أن النفس اذا حدثتنى بالسلو عنها كان ضميرى الشفيع الى اخراج وساوس السلو من قلبي « ٣ » زوجه هى صالحة بنت أبى عبيدة بن المنذر بن الزبير ، ولما رأت رجوعه من أجلها وسمعت الشعر قالت : لاجرم والله لاأستأثر عليك ، فشاطرته مالها ، وكانت قبل ذلك تضن عليه به « ٤ » الهوى : السقوط من أعلى الى أسفل ، ويريد به اسراع الابل فى السير

« ٥ » الوهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه

« ٦ » عده جرجى زيدان من الجاهليين خطأ « ٧ » الوجد : شدة الشوق

« ٨ » الورقاء : جنس من الحمام ، والرونق : الضياء ، والفنن : الغصن الناعم ، والغض : الطرى ، والرند : شجر طيب الرائحة يستاك به وليس بالكبير « ٩ » قويا

« ١٠ » أى من الشوق والغرام « ١١ » البعد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ... اذا كان من تهواه ليس بذي ود

له :

سلي البانة الغيناء بالأجرع الذي ... به البان هل حييت أطلال دارك؟[1]
وهل قمت في أظلالهن عشية ... مقام أخي البأساء[2] واخترت ذلك
وهل هملت[3] عيناي في الدار غدوة ... بدمع كنظم اللؤلؤ المتهالك[4]
أرى الناس يرجون الربيع وإنما ... ربيعي الذي أرجو نوال وصالك
أرى الناس يخشون السنين[5] وإنما ... سنيّ التي أخشى صروف احتمالك[6]
لئن ساءني أن نلتني بمساءة ... لقد سرني أني خطرت ببالك
ليهنك إمساكي بكفي على الحشا ... ورقراق عيني رهبة من زيالك[7]

وقال ذو الرمة :

الا ياسلمي يادار (مي) على البلى ... ولا زال منهلاً بجرعائك القطر
لها بشر مثل الحرير ومنطق ... رخيم الحواشي لا هراء ولا نزر[8]
وعينان قال الله : كونا ، فكانتا . ... فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

وقال قيس بن ذريح :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى اذا بدا ... لي الليل هزتني اليك المضاجع

«١» البانة: واحدة البان وهوشجر يطول فى استواء له هدب كهدب الاثل وثمرته تشبه قرون اللوبياء ، والغيناء: الخضراء المورقة الملتفة الاغصان الواسعة الظل ، والاجرع : المكان السهل المختلط بالرمل «٢» الفقر الشديد «٣» سالت «٤» المتساقط «٥» السنة :الجدب والقحط
«٦» حوادث أرتحالك «٧» الزيال: الفراق. يقول ليهنك أنى وصلت الى حالة أمسك فيها بكفى على حشاى وليسرك بكائى حذراً من فراقك «٨» رخم الصوت وكذلك الكلام : لان ورق ، والهراء: الفاسد الذى لانظام له من المنطق . والنزر : القليل التافه .

لقد رسخت في القلب منك مودة ... كما رسخت في الراحتين الأصابع

أخال علي الهم من كل جانب ... ودامت ،فلم تبرح ، علي الفواجع

الا إنما أبكي لما هو واقع ... فهل جزعي من وشك ذاك نافع[1]

وقد كنت أبكي والنوى مطمئنة ... بنا و بكم من علم ما البين صانع

وأهجركم هجر البغيض وحبكم ... على كبدي منه شؤون صوادع

وأعمد للأرض التي لا أريدها ... لترجعني يوماً اليك الرواجع

وأشفق من هجرانكم وتروعني ... مخافة وشك البين والشمل جامع[2]

فما كل ما منتك نفسك خالياً ... تلاقي ، ولا كل الهوى أنت تابع

لعمري لمن أمسى (ولبنى) ضجيعه ... من الناس ما اختيرت عليه المضاجع

فتلك لبينى قد تراخى[3] مزارها ... وتلك نواها[4] غربةً ماتطاوع

وليس لأمر حاول الله جمعه ... مشت،[5] ولا مافرق الله جامع

فلا تبكين في إثر لبنى ندامةً ... وقد نزعتها من يديك النوازع

وقال يزيد بن الطثرية :

عقيلية أما ملاث إزارها ... فدعص ، وأما خصرها فبتيل[6]

تقيظ أكناف الحمى ويظلها ... بنعمان من وادي الأراك مقيل[7]

أليس قليلا نظرة إن نظرتها ... اليك ؟ وكلا ليس منك قليل !

فياخلة النفس التي ليس دونها ... لنا من أخلاء الصفاء خليل

ويامن كتمنا حبه لم يطع به ... عدو ولم يؤمن عليه دخيل

«١» الوشك : القرب «٢» أشفق : أحذر ، والبين : الفراق

«٣» تباعد «٤» النوى: البعاد ، والوجه الذى ينويه المسافر «٥» مفرق

«٦» ملاث الازار : الموضع الذى يلاث أي يشد عليه الازار ، والدعص : قطعة من الرمل مستديرة ، والخصر البتيل : مادق حتى كأنه انقطع مافوقه عما تحته لدقته

«٧» تقيظ : تصيف ، والاكناف :الاطراف ، والمقيل : مكان القيلولة، ونعمان ووادى الاراك : موضعان مشهوران

أما من مقام أشتكي غربة النوى وخوف العدى فيه اليك سبيل
فديتك! أعدائي كثير، وشقتي بعيد، وأشياعي لديك قليل [1]
وكنت اذا ما جئت جئت بعلة فأفنيت علاتي فكيف أقول؟
فما كل يوم لي بأرضك حاجة ولا كل يوم لي اليك رسول
صحائف عندي للعتاب طويتها ستنشر يوماً، والعتاب طويل
فلا تحملي ذنبي، وأنت ضعيفة فحمل دمي يوم الحساب ثقيل

(ج) الرجز

من أمثلته قول أبي النجم العجلي في أرجوزته «أم الرجز» [2]:

ألحمد لله العلي الأجلل [3] الواهب الفضل الوهوب المجزل
أعطى فلم يبخل ولم يبخل كوم الذرا من خول المخول [4]
تبقلت [5] في أول التبقل بين رماحي مالك [6] ونهشل [7]
يدفع عنها العز جهل الجهل حتى تراعت في النعاج الخذل [8]
تحت أهاضيب [9] الغيوث الهطل منها المطافيل وغير المطفل
وراعت الربداء [10] أم الأرؤل [11] والنغض [12] مثل الاجرب المدجل [13]

«١» الشقة بضم الشين، المسافة. والاشياع: الانصار.

«٢» وهي أرجوزة نادرة عثرنا عليها ونشرناها في (مجلة المجمع العلمي العربي م ٨ ص ٣٨٥ الى ٣٩٤ و٤٧٢ الى ٤٧٩) مع بحث مستفيض في تاريخ نشوء الرجز وتطوره، وترجمة أبي النجم. «٣» يريد الاجل ففك الادغام على غير القياس «٤» بخله: رماه بالبخل والكوم: جمع كوماء وهي الناقة العظيمة السنام. والخول: العطاء، والمخول: المعطي

«٥» رعت البقل «٦» يريد بني مالك بن ضبيعة بن قيس «٧» قبيلة من ربيعة، وسبب ذكره هاتين القبيلتين أن دماء كانت بين بني دارم وبني نهشل وحروبا في بلادهم فتحاموا جميعهم الرعي فيما بين فلج والصمان مخافة ان يغروا بشر حتى طال كلؤه فذكر أن بني عجل جاءت لغزوها الى ذلك الموضع فرعته ولم تخف من هذين الحيين ففخر به أبو النجم

«٨» المتخلفات عن القطيع «٩» جمع هضاب جمع هضبة وهي المطرة.

«١٠» هي السوداء المنقطة بحمرة أو هي الرمداء «١١» جمع رأل وهو فرخ النعام

«١٢» ذكر النعام «١٣» المطلي بالقطران

حدائق الأرض التي لم تحالِ [1]　　حتى تحنى وهو لما يذبلِ

متسأسداً ذبانه في غيطلِ　　يقلن للرائد: أعشبت انزلِ [2]

لعباً كتغريد النشاوى الميلِ　　إذ جاوبوا ذا وتر مشكلِ [3]

يضربه الضارب للتعللِ　　حتى اذا ما ابيض جر والتتفلِ [4]

وبدلت والدهر ذو تبدلِ　　هيفاً دبوراً بالصبا والشمألِ [5]

وقد حملن الشحم كل محملِ　　وقام جني السنام الأميلِ

وامتهد الغارب [6] فعل الدملِ　　يجفلها كل سنام مجفلِ [7]

لأياً بلأي في المراغ المسهلِ [8]　　وقمن بعد النوء والتحلحلِ [9]

. . . .　　. . . .　　. . . .　　. . . .

الى أن يقول:

حتى اذا الشمس اجتلاها المجتلي　　بين سماطي شفق مهولِ [10]

فهي على الأفق كعين الأحولِ　　صغواء [11] قد مالت ولما تفعلِ

نشطها ذو لمة [12] لم تغسلِ　　صلب العصا جاف عن التغزلِ

مختلط المفرق جشب المأكلِ [13]　　الامن القارص [14] والممحلِ [15]

يحلف بالله سوى التحللِ [16]　　ماذاق ثفلاً [17] منذ عام أولِ

يمر بين الغانيات الجهلِ　　كالصقر يجفو عن طراد الدخلِ ... [18]

«١» لم ترع «٢» الغيطل: اختلاط الاصوات، والرائد: المرسل فى طلب الكلا «٣» يعنى العود
«٥» الهيف: ريح حارة تأتى من نحو اليمن نكباء بين الجنوب والدبور تيبس النبات وتنشف المياه، والدبور: ريح تقابل الصبا، والشمأل لغة فى الشمال.

«٦» انبسط السنام «٧» يجفلها: يقلبها، والمجفل كمنبر الثقيل «٨» اللأى: الجهد والمشقة. والمراغ موضع تمرغ الدابة «٩» بعد الثقل والزوال عن الموضع «١٠» يهول منظره، والسماطان: الخافقان
«١١» مائلة «١٢» اللمة بكسر اللام الشعر المجاوز شحمة الاذن «١٣» غليظ المأكل
«١٤» اللبن الحامض يحلب عليه حليب كثير حتى تذهب الحموضة «١٥» الآخذ طعمه حموضة
«١٦» تحلل فى يمينه اذا حلف ثم استثنى استثناء متصلا «١٧» ما استقر تحت الشى من كدرة وطعام أهل القرى من التمر والزبيب ونحوهما «١٨» طير صغير كالعصفور.

(د) سائر أغراض الشعر :

الوصف

قال حميد بن ثور يصف حمامة تسجع على غصن :

وما هاج هذا الشوق الا حمامة ... دعت ساق حر ترحة وترنما [1]
اذا شئت غنتني بأجزاع بيشة ... أو النخل من تثليث أو بيلملما [2]
مطوقة خطباء تسجع كلما ... دنا الصيف وانجال [3] الربيع فأنجما
محلاة طوق لم يكن من تميمة [4] ... ولا ضرب صواغ بكفيه درهما
غنت على غصن عشاء فلم تدع ... لنائحة في شجوها متلوما
اذا حركته الريح أومال ميلة ... تغنت عليه مائلاً ومقوما
عجبت لها أنى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تفغر [5] بمنطقها فما
فلم أر مثلي شاقه صوت مثلها ... ولا عربياً شاقه صوت أعجما [6]

الادب والحكمة

قال القطامي واسمه عمير بن شييم :

الناس من يلق خيراً قائلون له ... ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل [7]
قد يدرك المتأني بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

«١» ساق حر : صوت القماري، ويطلق على ذكرها اسم ساق حر لانه حكاية صوته أوالساق: الحمام. والحر: فرخها، والترحة : الهم «٢» بيشة وتثليث ويلملم : اسماء أماكن والاجزاع: جمع جزع وهو منعطف الوادي ووسطه أو منقطعه أو منحناه .
«٣» أقلع ، ومثله أنجم «٤» معاذة يتعوذ بها وتعلق على الصبي «٥» لم تفتح
«٦» يقول لم أفهم ماقالت ولكني استحسنت صوتها واستحزنته فحننت له ' وقد نظر أبو تمام الى هذا المتنبي حين قال في احدى قصائده وقد سمع بأبر شهر غناء مغنية بالفارسية :
ولم افهم معانيها ولكن ... ورت كبدي فلم أجهل شجاها
«٧» هبلت الام ولدها : ثكلته وفقدته ، ويقال في الدعاء على الرجل : هبلته أمه .

وقال حميد بن ثور :

أرى بصري قد رابني بعد صحة ... وحسبك داءً أن تصح وتسلما
ولا يلبث العصران يوم وليلة ... اذا طلبا أن يدركا ما تيمما [1]

وقال مسكين الدارمي :

أضاحك ضيفي قبل انزال رحله ... ويخصب عندي والمكان جديب
وماالخصب للاضياف أن يكثر والقرى [2] ... ولكنما وجه الكريم خصيب

وقال كثير عزة :

ومن لا يغمض عينه عن صديقه ... وعن بعض مافيه يمت وهو عاتب
ومن يتتبع جاهداً كل عثرة ... يجدها ولايسلم له الدهر صاحب

الفخر والحماسة

قال الطرماح بن حكيم ، وهو من فحول الشعراء الاسلاميين ،وكان على مذهب الأزارقة من الخوارج :

لقد زادني حباً لنفسي أنني ... بغيض الى كل امرئ غير طائل [3]
وإني شقي باللئام ولاترى ... شقياً بهم الا كريم الشمائل
اذا ماراًني قطع الطرف دونه ... ودوني فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض [4] حتى كأنها ... من الضيق في عينيه كفة حابل [5]
أكل امرئ ألفى أباه مقصراً ... معاد لأهل المكرمات الأوائل
اذا ذكرت مسعاة والده اضطنى ... ولايضطني من شتم أهل الفضائل [6]

«١» ماقصدا «٢» طعام الضيافة «٣» غير رفيع «٤» ضيقت عليه الارض
«٥» الحابل : صاحب الحبالة وهى الشبكة ، والكفة : الحفيرة التى تنصب فيها الحبالة
«٦» المسعاة: السعى، واضطنى : افتعل من الضنى وهو المرض اللازم .

وما منعت دار ولا عز أهلها ... من الناس الا بالقنا والقنابل[1]

وقال المتوكل الليثي :

لسنا وإن أحسابنا كرمت ... يوماً على الأحساب نتكل
نبني كما كانت أوائلنا ... تبني ونفعل مثلما فعلوا

وقال مسكين الدارمي :

ورب أمور قد بريت لحاءها ... وقومت من أصلابها ثم رعتها[2]
أقيم بدار الحزم مالم أهن بها ... فان خفت من دار هواناً تركتها
وأصلح جل المال حتى تخالني ... شحيحاً وإن حق عراني أهنتها
ولست بولاج البيوت لفاقة ... ولكن اذا استغنيت عنها ولجتها[3]
أبيت من الادلاج[4] في الحي نائماً ... وأرض بادلاج وهم قطعتها
ألا أيها الجاري سنيحاً وبارحاً[5] ... تعرض نفساً لو أشاء قتلتها
تعارض فخر الفاخرين بعصبة ... ولو وضعت لي في إناء أكلتها
وإن لنا ربعية المجد[6] كلها ... موارث آباء كرام ورثتها
اذا قصرت أيدي الرجال عن العلى ... مددت لها باعاً عليها فنلتها
وداع دعاني للعلى فأجبته ... ودعوة داع للصديق خذلتها
ومكرمة كانت رعاية والدي ... فعلمنيها والدي ففعلتها
وعوراء من قيل امرئ ذى قرابة ... تصاممت عنها بعدما قد سمعتها

«١» القنا : الرماح ، والقنابل : جماعات الخيل ، الواحدة قنبلة .

«٢» اللحاء : القشر «٣» دخلتها «٤» السير من اول الليل أو سير الليل كله .

«٥» السانح والسنيح : من الطير ماجاء عن يمينك ، والبارح : ماجاء عن يسارك والعرب تتيمن بالاول وتتشاءم من الثاني .

«٦» أى أول المجد من قولهم نتج فى ربعية النتاج ، قال الطرماح :

لنا سابقات العز والشمر والحصى ... وربعية المجد المقدم والحمد

رجاء غد أن تعطف الرحم بيننا ومظلمة منه بجنبي عركتها[1]
اذا ما أمور الناس رثت وضيعت وجدت أموري كلها قد زممتها[2]
وإني سألقى الله لم أرم حرة ولم تأتمني يوم سر فخنتها
ولا قاذف نفسي ، ونفسي بريئة ، وكيف اعتذاري بعدما قد قذفتها

وقال العباس بن مرداس ، وهو مخضرم من الشعراء الفرسان ، وأبياته من المنصفات (وانظر ص ٤٢) :

ولم أر مثل الحي حياً مصبحاً[3] ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكر وأحمى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا[4]
اذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا[5]
اذا الخيل جالت[6] عن صريع نكرها[7] عليهم فما يرجعن الا عوابسا

المديح

قال الشماخ ، وهو شاعر مخضرم ، يمدح عرابة :

رأيت عرابة الأوسي يسمو الى الخيرات منقطع القرين
اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين[8]

وقال عبد الله بن الزبير الأسدي يمدح بشر بن مروان الأموي :

كأن بني أمية حول بشر نجوم وسطها قمر منير

«١» المظلمة بكسر اللام والظلامة : ما أخذ من الانسان ظلماً ، وعرك ذنبه بجنبه اذا احتمله ، قال الشاعر :

اذا أنت لم تعرك بجنبك بعض ما يسوء من الادنى جفاك الاباعد

«٢» شددتها وحفظتها من الضياع «٣» أي مغاراً عليه ، ويعنى بالحي بنى أسد

«٤» جمع قونس وهو أعلى الرأس وأعلى بيضة الحديد «٥» الشدة : الحملة ، والمذاكى الخيل التامة السن الكاملة القوة ، والمداعس : من الدعس وهو الدفع والطعن

«٦» دارت «٧» نعطفها «٨» بالقوة

هو الفرع المقدم من قريش ... اذا أخذت مآخذها الأمور
لقد عمت نوافله فأضحى ... غنياً من نوافله الفقير[1]
جبرت مهيضنا وعدلت فينا ... فعاش البائس الكل الفقير[2]
فأنت الغيث قد علمت قريش ... لنا والواكف الجون المطير[3]

وقال أبو العباس الأعمى في بني عبد شمس :

ليت شعري أفاح رائحة المسـ ... ـك ما إن إخال [بالخيف] أنسي
حين غابت بنو أمية عنه ... والبهاليل[4] من بني عبد شمس
خطبـــاء على المنابر فرسا ... ن عليها وقالة غير خرس
لا يعابون صامتين وإن قا ... لوا أصابوا ولم يقولوا بلبس
بحلوم اذا الحلوم استخفت ... ووجوه مثل الدنانير ملس

الرثاء

قال متمم بن نويرة يرثي أخاه مالكا من قصيدة طويلة :

أقول وقد طار السنا في ربابه ... وغيث يسح الماء حتى تريعا[5]
سقى الله أرضاً حلها قبر مالك ... ذهاب الغوادي المدجنات فأمرعا[6]
تحيته مني وإن كان نائياً ... وأضحى تراباً فوقه الأرض بلقعا
فما وجد أظآر ثلاث روائم ... رأين مجراً من حوار ومصرعا[7]
يذكرن ذا البث[8] الحزين ببثه ... اذا حنت الأولى سجعن لها معا

«١» النوافل : العطايا «٢» المهيض : الكسير «٣» الواكف : السحاب اذا سال قليلا قليلا ، والجون : يطلق على الابيض والاسود «٤» جمع بهلول وهو السيد الجامع لصفات الخير
«٥» السنا : الضوء ، والرباب : السحاب دون السحاب كالمتعلق بما فوقه ، ويسح : يصب ، وتريع : كثر حتى جاء وذهب «٦» الذهاب : الامطار اللينة ، والمدجنات : من السحاب السود ، وأمرع الوادي : أخصب «٧» الآظار : جمع ظئر وهي الناقة تعطف على الحوار أي ولدها فتألفه ، وروائم جمع رؤوم وهي التي تعطف على ولدها وتلزمه وتشمه
«٨» البث : أشد الحزن

بأوجع مني يوم فارقت مالكاً ... ونادى به الناعي الرفيع فأسمعا

وكنا كندماني جذيمة[1] حقبة[2] ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

فلما تفرقنا كأني ومالكاً ... لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وعشنا بخير في الحياة وقبلنا ... أصاب المنايا رهط[3] كسرى وتبعا

فان تكن الأيام فرقن بيننا ... فقد بان[4] محموداً أخي يوم ودعا

وقال أيضا :

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف[5] الدموع السوافك[6]

فقال : أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى[7] فالدكادك[8]

فقلت له: إن الشجا يبعث الشجا ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وقال مالك بن الريب المازني يرثي نفسه ويذكر مرضه وغربته ، وكان خرج مع سعيد بن عثمان بن عفان لما ولاه معاوية بن أبي سفيان خراسان :

الا ليت شعري هل أبيتن ليلةً ... بجنب الغضى أزجي القلاص النواجيا[9]

فليت الغضى لم يقطع الركب عرضه ... وليت الغضى ماشى الركاب لياليا[10]

لقد كان في أهل الغضى لو دنا الغضى ... مزار ولكن الغضى ليس دانيا

ألم ترني بعت الضلالة[11] بالهدى ... وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

وأصبحت في أرض الأعادي بعدما ... أراني عن أرض الأعادي قاصيا

دعاني الهوى من أهل أود[12] وصحبتي ... بذي الطبسين[13] فالتفت ورائيا

---

(١) جذيمة الابرش الازدى الملك الذى قتلته الزباء ، ونديماه : يقال لهما مالك وعقيل، وانما ضرب المثل بهما الطول ما نادماه (٢) كسر الحاء من الدهر مدة لا وقت لها (٣) قوم (٤) فارق (٥) انصباب (٦) الجوارى (٧) منقطع الرمل (٨) جمع دكدك أرض فيها غلظ.

«٩» الغضى : شجر ينبت فى الرمل . وأزجى : أسوق . والقلاص : جمع قلوص وهى الناقة الشابة، والنواجى : السراع «١٠» الركب: ركبان الابل، والركاب : الابل «١١» كان قبل ان يستصحبه سعيد من الفتاك وقطاع الطرق «١٢» اسم موضع «١٣» بخراسان أو قريباً منها

أجبت الهوى لما دعاني بزفرة ... تقنعت منها أن ألام ردائيا[1]
أقول وقد حالت قرى الكرد بيننا: ... جزى الله عمراً خير ما كان جازيا
إن الله يرجعني من الغزو لا أرى ... وإن قل مالي طالباً ما ورائيا
تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي: ... سفارك هذا تاركي لا أباليا
لعمري لئن غالت[2] خراسان هامتي ... لقد كنت عن بابي خراسان نائيا
فان أنج من بابي خراسان لا أعد ... اليها وإن منيتموني الأمانيا
فلله دري يوم أترك طائعا ... بني بأعلى «الرقمتين» وماليا[3]
ودر الظباء السانحات عشية ... يخبرن أني هالك من ورائيا[4]
ودر كبيري اللذين كلاهما ... علي شفيق ناصح لو نهانيا
ودر الرجال الشاهدين تفتكي ... بأمري أن لا يقصروا من وثاقيا
ودر الهوى من حيث يدعو صحابتي ... ودر لجاجاتي ودر انتهائيا
تذكرت من يبكي علي فلم أجد ... سوى السيف والرمح الرديني[5] باكيا
وأشقر محبوكاً[6] يجر عنانه ... الى الماء لم يترك له الموت ساقيا
ولكن بأكناف السمينة[7] نسوة ... عزيز عليهن العشية ما بيا
صريع على أيدي الرجال بقفرة ... يسوون لحدي حيث حم[8] قضائيا
ولما تراءت عند (مرو) منيتي ... وخل[9] بها جسمي وحانت وفاتيا
أقول لأصحابي: ارفعوني فانه ... يقر بعيني إن سهيل بداليا[10]

---

(١) يقول: لما ذكرت ذلك الموضع استعبرت فاستحييت فتقنعت بردائي لكي لايرى ذلك مني (٢) أهلكت (٣) تعجب من نفسه كيف اغترب عن ماله وولده

(٤) يريد أنه سنحت له الظباء فتطير منها.

(٥) نسبة إلى ردينة وهي امرأة كانت تثقف الرماح (٦) محكم الخلق (٧) اسم موضع والاكناف: الجوانب (٨) دنا (٩) اختل وهزل (١٠) يريد ان سهيلا (وهو كوكب) لايرى بناحية خراسان فقال ارفعوني لعلي أراه فتقر عيني برؤيته، لانه لايرى الا في بلده

فيا صاحبي [1] رحلي دنا الموت فانزلا ... برابية إني مقيم لياليا
أقيما علي اليوم أو بعض ليلة ... ولا تعجلاني قد تبين شانيا
وقوما اذا ما استل روحي فهيئا ... لي السدر والأكفان عند فنائيا
وخطا [2] بأطراف الأسنة مضجعي ... وردا على عيني فضل ردائيا
ولا تحسداني بارك الله فيكما ... من الأرض ذات العرض أن توسعا ليا
خذاني فجراني بثوبي اليكما ... فقد كنت قبل اليوم صعباً قياديا
وقد كنت عطافاً اذا الخيل أدبرت ... سريعاً لدى الهيجا [3] الى من دعانيا
وقد كنت صباراً على القرن في الوغى ... وعن شتمي ابن العم والجار وانيا
فطوراً تراني في ظلال [4] ونعمة ... وطوراً تراني والعتاق [5] ركابيا
ويوماً تراني في رحى [6] مستديرة ... تخرق أطراف الرماح ثيابيا ،
وقوما على بئر السمينة أسمعا ... بها الغر والبيض الحسان الروانيا [7]
بأنكما خلفتماني بقفرة ... تهيل [8] علي الريح فيها السوافيا [9]
ولا تنسيا عهدي خليلي بعدما ... تقطع أوصالي وتبلى عظاميا
ولن يعدم الوالون بثاً يصيبهم ... ولن يعدم الميراث مني المواليا [10]
يقولون :لا تبعد ، وهم يدفنونني ... وأين مكان البعد الا مكانيا
غداة غد يالهف نفسي على غد ... اذا أدلجوا [11] عني وأصبحت ثاويا [12]
وأصبح مالي من طريف [13] وتالد [14] ... لغيري وكان المال بالأمس ماليا
فياليت شعري هل تغيرت الرحى ... رحى المثل [15] أو أمست بفلج كما هيا

«١» صاحبي قال الكاتب: رجل من قومه من بني تميم (الاغاني) (٢) احفرا (٣) الحرب (٤) جمع ظل وهو الندى والريف والنعمة (٥) كرائم الخيل (٦) في موضع حرب مستديرة ، أي حيث يستدير القوم للقتال (٧) النواظر (٨) تثير (٩) جمع سافية وهي الريح التي تحمل التراب
(١٠) الوالون جمع الوالي ، والموالي : بنو العم والاقربون ، والبث : أشد الحزن.
(١١) ساروا من أول الليل (١٢) مقيماً (١٣) مستحدث (١٤) موروث (١٥) موضع بفلج .

اذا الحي حلوها[1] جميعاً وأنزلوا ... بها بقراً حم[2] العيون سواجيا[3]

رعين وقد كان الظلام يجنها[4] ... يسفن[5] الخزامى[6] مرة والأقاحيا[7]

وهل أترك العيس[8] العوالي بالضحى ... بركبانها تعلو المتون الفيافيا[9]

اذا عصب[10] الركبان بين عنيزة[11] ... وبولان[12] عاجوا المبقيات النواجيا[13]

فياليت شعري هل بكت أم مالك ... كما كنت، لوعالوا نعيك، باكيا

اذا مت فاعتادي القبور وسلمي ... على الرس[14] أسقيت السحاب الغواديا

على جدث قد جرت الريح فوقه ... تراباً كسحق المرناني[15] هابيا[16]

رهينة أحجار وترب تضمنت ... قرارتها مني العظام البواليا

فياصاحبا إما عرضت فبلغا ... بني مازن والريب: أن لاتلاقيا

وعر قلوصي[17] في الركاب فانها ... ستفلق أكباداً وتبكي بواكيا

وأبصرت نار المازنيات موهناً[18] ... بعلياء يثنى دونها الطرف رانيا[19]

بعود ألنجوج[20] أضاء وقودها ... مها[21] في ظلال السدر حوراً جوازيا

غريب بعيد الدار ثاو بقفرة ... يد الدهر[22] معروفاً بأن لاتدانيا

أقلب طرفي حول رحلي فلا أرى ... به من عيون المؤنسات مراعيا

وبالرمل منا نسوة لو شهدنني ... بكين وفدين الطبيب المداويا

فمنهن أمي وابنتاي وخالتي ... وجارية أخرى تهيج البواكيا

---

(١) نزلوها (٢) سوداً (٣) سواكن ويريد بالبقر النساء (٤) يسترها بظلمته
(٥) يشممن (٦) بضم الخاء نبت أوخيرى البر زهرها طيب الازهار نفحة (٧) مفرده الاقحوان وهو البابونج (٨) الابل البيض (٩) المتون: جمع متن وهو ما صلب من الارض وارتفع، والفيافي: الصحارى (١٠) جماعات (١١) قارة سوداء في بطن وادى فلج.
(١٢) اسم موضع (أنظر معجم البلدان) (١٣) وقفوا الابل التي يبقى سيرها، والتي تنجو سيرها أي تسرع (١٤) القبر (١٥) كساء من خز ويقال مطرف من وبر الابل «١٦» الهابي تراب القبر «١٧» ناقتي الشابة «١٨» نحواً من نصف الليل او بعد ساعة منه «١٩» ناظرا
«٢٠» الالنجوج: عود البخور «٢١» جمع مهاة وهي البقرة الوحشية ويكنى بها عن المرأة
«٢٢» أي أبد الدهر.

وما كان عهد الرمل عندي وأهله ذميماً ولا ودعت بالرمل قاليـا [1]

الهجاء

قال الطرماح يهجو بني تميم :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت سبل المكارم ضلت
أرى الليل يجلوه النهار ولا أرى خلال المخازي عن تميم تولت

وقال قعنب بن أم صاحب في ناسٍ :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً مني وما سمعوا من صالح دفنوا
صم اذا سمعوا خيراً ذكرتُ به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا [2]
جهلاً علينا وجبناً عن عدوّهم لبئست الخلتان الجهل والجبن !

وكتب عمران بن حطان الى الحجاج ، وقد بلغه أن غزالة الحرورية دخلت عليه الكوفة فتحصن منها وأغلق عليه قصره ، وقد كان الحجاج لج في طلبه :

أسد علي وفي الحروب نعامة ربداء تجفل من صفير الصافر [3]
هلا برزت الى (غزالة) في الوغى بل كان قلبك في جناحي طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت مدابره كأمس الدابر [4]

«١» الذميم : المذموم ، والقالي المبغض «٢» استمعوا وأنصتوا

«٣» الربداء : السوداء المنقطة بحمرة أو هي الرمداء ، وتجفل : تهرب خوفا .

«٤» الماضي والذاهب ، والمدابر : صاحب الدابر وهو سهم يخرج من الهدف ، والدابر أيضاً التابع .

الفصل الرابع

الشعراء

حفل هذا العصر، ولاسيما في أواسط أيامه وأخرياتها، بشعراء فاقوا شعراء العصر الجاهلي عدداً؛ وكانوا أوسع منهم خيالاً، وأخصب معنى، وأكثر ماءً وأشد أسراً، وأحكم أسلوباً، وأرق ديباجة، وأغزر أغراضاً: إذ وجدوا الطريق معبّدة فساروا على وضحها، واهتدوا بأصوائها وأعلامها، ثم كان لهم من نمير القرآن الصافي، وبيان الرسول الوضيء، وجمال الحضارة وما يستتبع الحضارة من آثار الملك ومقومات الحياة السياسية والعقلية، ما صقل ألسنتهم، وألطف طباعهم، وهذب أخلاقهم، وأحكم حلومهم، ووسع تجاربهم، وأوضح لهم ما انبهم على متقدميهم وغمض من معاني الحياة، وأساليب التفكير، ووسائل المعاش، حتى كان منهم الشعراء الذين أنافوا بالشعر على اليفاع، ونفخوا فيه من روحهم فجاروا به روح عصرهم، بل كونوها به ومثلوا الحياة فيه، وأقاموا لنا دليلاً على أن هذه اللغة المضرية لغة مرنة إن شئتها فبدوية جافة، وإن شئتها فحضرية مرحة تغذي المشاعر، وتمتع القلوب؛ ثم كانوا مرآة أمينة وضاءة تنعكس فيها صورة المجتمع الاسلامي العربي في ذلك الزمن البعيد.

وسينتهي إليك هذا الكتاب الى خمسة عشر شاعراً فحلاً من هؤلاء، وستجد فيهم «الشخصيات» المتشابهة في المنزع والخيال، وأولئك هم المخضرمون[1]

«١» أى الذين عاشوا فى الجاهلية والاسلام. قال ابن برى: أكثر أهل اللغة على أنه مخضرم بكسر الراء لأن أهل الجاهلية لما دخلوا فى الاسلام خضرموا آذان ابلهم أى قطعوا من أطرافها لتكون علامة لاسلامهم ان أغير عليها أو حوربوا، وأما من قال مخضرم بفتح الراء فتأويله عنده أنه قطع عن الكفر الى الاسلام.

وتجد فيهم شخصيات تباين تلك الطبقة بل يباين بعضهـا بعضاً في المنازع والمذاهب والأغراض ، وأولئك هم الشعراء الاسلاميون الذين ولدوا في الاسلام وخلصت نفوسهم مما كان مترسباً في نفوس آبائهم من بقايا آثار البداوة وحياة الصحراء .

أما المخضرمون الذين ستنتهي اليهم فستة : كعب بن زهير ، والخنساء ، وأبو ذؤيب ، وحسان بن ثابت ، والحطيئة ، والنابغة الجعدي .

وأما الاسلاميون فتسعة : ثلاثة منهم (وهم : جرير، والفرزدق، والأخطل) انقطع كل منهم الى حزب سياسي يناضل عنه ، ثم هاجت بينهم المنافسة الشعرية حتى هاج معهم زهاء ثمانين شاعراً يتقاذفون ، وكان لهم شأن نادر عجيب . . . و واحد منهم (وهو الكميت) ذهب مذهب هؤلاء ، وكان لشعره أثر سيء في تأريث العداوة بين العدنانيين والقحطانيين . وأربعة منهم (وهم : عمر بن أبي ربيعة ، وجميل بثينة ، وقيس بن الملوح ، وكثير عزة) يشتركون في فن الغزل وتجديد مذاهبه ، ولكن لكل منهم مسلكاً فيه هو زعيمه . المسلك الأول ما نسميه (الغزل الاباحي القصصي) وهو أن يعمد الشاعر فيه الى وصف المرأة والاستمتاع باللذة ، وموطنه الحجاز ، وأصحابه بعض المترفين من أبناء المهاجرين والأنصار الذين أغدق عليهم الأمويون الأموال والهدايا ليحولوا بينهم وبين شؤون الملك ، وزعيمهم عمر . والمسلك الثاني (الغزل العذري) العفيف : غزل العشق الصادق، والحب البريء ؛ وزعيمه جميل بثينة ، وقيس بن الملوح . والمسلك الثالث (الغزل الصناعي) وهو الغزل الذي يقل حظه من حرارة الحب ، وصدق العاطفة ، يتكلفه من ليس بالعاشق ليعد من الغزلين إذ كان الغزل في ذلك العصر بدعة لا مندوحة للشاعر عنها ، وكان

لابد للشاعر من خليلة يشبب بها حقاً أو باطلا . وزعيم هذا المسلك كثير عزة. هؤلاء ثمانية تاسعهم رجاز كبير عاش أكثر عمره أيام بني أمية ومات في أوائل العصر العباسي ، وهو (رؤبة بن العجاج) . وقد اقتضاه المنهج فذكرناه، وكان أجدر منه أبوه العجاج ، والأغلب ، وأبو النجم ، إذ عاشوا في العصر الأموي وماتوا فيه ، وكانوا أسبق منه الى الافتنان بهذا الفن و إطالته ،والانتصاف لقائليه من الشعراء . . .

الشعراء المخضرمون

١ ـ كعب بن زهير

[. . . ـ ٢٤ هـ]

هو ابن زهير بن أبي سُلمى الشاعر الفحل المشهور . نبغ في الشعر يافعاً ، ولما ظهر الاسلام خرج أخوه بجير الى النبي (ص) وأسلم ، فأرسل اليه كعب ينهاه وآذى النبي بلسانه ، فأهدر النبي دمه إلا أن يُقبل تائباً ؛ فأشفق بجير أن يظفر به و يُطل دمه ، فأرسل ينصح له أن يرعوي عن غوايته و يقصر عن باطله ، فأبى واستكبر . حتى اذا استيأس من المجير، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ـ جاء الى المدينة يسعى ، فتوسل بأبي بكر الى الرسول ، فدخل به أبو بكر عليه ، فتاب و بايعه على الاسلام ، وأنشده قصيدةً من جيد الشعر يمدحه و يمدح المهاجرين ، فعفا عنه ، وأمنه ، ثم خلع عليه بردةً كان لابسها بذل له معاوية فيها عشرة آلاف درهم ، فقال : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله (ص) أحداً . فلما مات كعب بعث معاوية الى ورثته بعشرين ألفاً فأخذها منهم ، ثم توارثها الخلفاء من الأمويين و بني العباس ، ثم فقدت في حروب التتار . و يزعم بعض

المؤرخين أنها آلت مع الخلافة الى السلاطين من أحفاد جنكيز!

هذا كل ما يعرف من أمر كعب، ويصح من أخباره.

***

أما شعره فلا يعرف منه، كذلك، الا قصيدته التي أنشدها رسول الله وبعض مقطوعات [1] لا نستطيع أن نكون منها رأياً نصدره عليه. ولكننا قد رأينا الاقدمين يبالغون به حتى نقل عن بعض الرواة أنه كان يقول «لولا قصائد لزهير ما فضلته على ابنه كعب»، وأن الحطيئة كان يروي شعره كما كان يروي شعر أبيه، وأنه على نباهته في الشعر توسل اليه أن ينوه به ليشتهر ويخلد اسمه لأن الناس كانوا لشعره أروى، واليه أسرع! فقال:

فمن للقوافي شانها من يحوكها　　اذا ماثوى كعب وفوز جرول [2]

كفيتك لاتلقى من الناس واحداً　　تنخل منها مثل ما نتنخل [3]

نقول فلا نعيا بشيء نقوله　　ومن قائليها من يسيء ويجمل [4]

نثقفها حتى تلين كعوبها　　فيقصر عنها كل ما يتمثل [5]

ويدلنا هذا الشعر أن كعباً كان كأبيه شاعراً فنياً معنياً بصناعته يأخذ شعره بالتثقيف حتى يستقيم له عموده، وتلين كعوبه ومتونه. وإن في القليل الباقي من شعره لأثراً من دلالة هذا القول، ومسحة من طابع أبيه وأناته وتفكيره، وأشهره قصيدته في مدح الرسول المعروفة بالبردة وهي عند أبي محمد القرشي

«١» تجدها في الاغاني، وشرح بانت سعاد لابن هشام، وفي حماسة أبي تمام (باب المراثي) «٢» شانها: جاء بها شائنة أي معيبة، وثوى: مات، وكذا فوز، وجرول: اسم الحطيئة «٣» تنخل الشيء: تخيره واستقصى أفضله «٤» يحسن «٥» يضرب مثلا، يقال: تمثل هذا البيت وتمثل به أي ضربه مثلا.

في « الجمهرة » من المشوبات ، وقد تعاقب الناس على شرحها في عصور مختلفة، وأبرع شروحها الواصلة إلينا شرح جمال الدين بن عبد الله بن هشام الانصاري النحوي المشهور [1]. وهي في ٥٧ بيتاً استهلها بالتشبيب فذكر محبوبته (سعاد) وما أصاب قلبه عند ظعنها ، ثم وصف محاسنها وشبهها بالظبي ، وذكر ثغرها وريقتها فشبهها بالراح مشعشعة بالماء ، وانتقل منه الى وصف ذلك الماء ، ثم من هـذا الى وصف الأبطح الذي أخذ منه الماء ، ثم رجع الى ذكر صفاتها فوصفها بالصد، وإخلاف الوعد، والتلون في الود ؛ ثم لام نفسه على التعلق بمواعيدها ، ثم أشار الى بعد ما بينه وبينها وأنه لا يبلغه اليها الا ناقة صفتها كذا وكذا وأطال في وصفهـا حتى استوفى الوصف عشرين بيتاً . وتلك شنشنة غريبة لشعرآء العرب في الدهر الأول ، ولعلك لم تنس طرفة بن العبد في معلقته إذ فعل كذلك وعمـد الى وصف ناقته التي ساعدته على نيل أمانيه فاستوفى خمسة وثلاثين بيتاً حتى ليخيل اليك أنه لا غرض له غير ذلك . ثم استطرد كعب الى ذكر الوشاة وأنهم يسعون بجانبي الناقة ويحذرونه القتل ، وأن أخلاءه رفضوه وصرموا حبل مودته ، وأنه أظهر لهم الجلد ، واستسلم للقدر . . . حتى تخلص الى المقصد، وهو مدح النبي ، فاستعطفه واعتذر اليه ، وتنصل مما قيل عنه ، ثم ختم القصيدة بمدح المهاجرين .

ومن تشبيبها :

بانت [2] سعاد فقلبي اليوم متبول [3] ... متيم [4] إثرها لم يفد [5] مكبول [6]
وما سعاد غـداة البين اذ رحـلوا ... الا أغن [7] غضيض الطرف [8] مكحول

«١» طبع بمصر سنة ١٣٠٤ هـ ، وبهامشه حاشية ابراهيم الباجوري

«٢» فارقت «٣» سقيم اضناه الحب «٤» مستعبد مذال «٥» لم يقم له فداء من أسره «٦» مقيد «٧» هو الذي في صوته غنة وهي صوت لذيذ يخرج من أقصى الانف

«٨» فاتر العين ، وهو من صفات الجمال

تجلو[1] عوارض ذي ظلم[2] اذا ابتسمت   كأنه منهل[3] بالراح معلول[4]

أكرم بها خلة[5] لو أنها صدقت   موعودها أو لو ان النصح مقبول

لكنها خلة قد سيط[6] من دمها[7]   فجع وولع[8] و إخلاف وتبديل

وما تدوم على حال تكون بها   كما تلون في أثوابها الغول[9]

ولا تمسك بالعهد الذي زعمت   الا كما تمسك الماء الغرابيل

فلا يغرنك ما منت[10] وما وعدت   إن الاماني والاحلام تضليل

كانت مواعيد عرقوب[11] لها مثلا   وما مواعيدها الا الأباطيل

ومنها في استعطاف النبي (ص) ومدحه ومدح المهاجرين :

وقال كل خليل كنت آمله :   لا ألهينك إني عنك مشغول

فقلت : خلوا سبيلي لا أبالكم !   فكل ما قدر الرحمن مفعول

كل ابن أنثى وان طالت سلامته   يوماً على آلة حدباء[12] محمول

أنبئت أن رسول الله أوعدني[13]   والعفو عند رسول الله مأمول

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة[14] الـ   قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

لا تأخذني[15] بأقوال الوشاة ولم   أذنب، وقد كثرت في الاقاويل[16]

∴

إن الرسول لنور يستضاء به   وصارم من سيوف الله مسلول

«١» تكشف «٢» العوارض : الاسنان، والظلم: ماؤها وبريقها

«٣» مسقى نهلا ، والنهل الشرب الاول.

«٤» الراح: الخمر، ومعلول: مسقى علا، وهو الشرب الثاني «٥» صديقة «٦» سيط الماء: اذا خلطه بغيره وضربهما حتى اختلطا «٧» من: بمعنى في «٨» الفجع مصدر فجعه اذا اصابه بمكروه ، والولع: الكذب «٩» كل شيء اغتال الانسان واهلكه «١٠» اى ما حملتك على تمنيه .

«١١» انظر ص ١٧ «١٢» يريد النعش «١٣» تهددني بالقتل «١٤» كل عطية تبرع بها معطيها «١٥» سؤال وتضرع لانهي «١٦» يريد الاكاذيب .

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا: زولوا[1]

زالوا فمازال أنكاس[2] ولا كشف[3] ... عند اللقاء ولا ميل[4] معازيل[5]

شم[6] العرانين[7] أبطال لبوسهم[8] ... من نسج داوود[9] في الهيجا سرابيل[10]

لا يفرحون اذا نالت رماحهم ... قوماً وليسوا مجازيعاً اذا نيلوا

يمشون مشي الجمال الزهر[11] يعصمهم[12] ... ضرب اذا عرّد[13] السود التنابيل[14]

لا يقع الطعن الا في نحورهم[15] ... وما لهم عن حياض الموت تهليل[16]

ومما أجاد فيه قوله في مدح النبي، رواه السهيلي في الروض الأنف:

تخدي[17] به الناقة الأدماء[18] معتجراً[19] ... بالبرد كالبدر جلى ليلة الظلم

ففي عطافيه[20] أو أثناء بردته ... ما يعلم الله من دين ومن كرم

وقوله في الحكمة:

مقالة السوء الى أهلها ... أسرع من منحدر سائل

ومن دعا الناس الى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطل

٢ — الخنساء

[... — ٢٤ هـ]

الخنساء لقب غلب على السيدة تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية كبيرة شواعر العرب. كان أبوها عمرو، وأخواها معاوية وصخر، سادات بني سليم من

«١» اذهبوا وانتقلوا «٢» جمع نكس بكسر النون وهو الضعيف المهين
«٣» جمع اكشف وهو الذى لاترس معه فى الحرب
«٤» جمع اميل وهو الذى لاسيف معه، أو الذى لايحسن الركوب ولا يستقر على السرج
«٥» جمع معزال وهو الضعيف الاحمق «٦» جمع اشم وهو الذى فى قصبة أنفه علو مع استواء اعلاه، وهو من الاوصاف الجيدة «٧» جمع عرنين وهو الانف «٨» بفتح اللام اللباس «٩» يريد منسوجه وهو الدروع «١٠» جمع سربال وهو الدرع أو القميص.
«١١» البيض «١٢» يحميهم من أعدائهم «١٣» فر وأعرض «١٤» القصار.
«١٥» صدورهم «١٦» تأخر «١٧» تسرع «١٨» البيضاء، والمشربه سوادا أو بياضا «١٩» الاعتجار: لف العمامة دون التلحي «٢٠» العطاف: الرداء

مضر. وكانت هي ذات أدب غض، وجمال بارع، فخطبها دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد جشم الى أبيها فزهدت فيه، وقالت تخاطب أباها بالهجة العائب الزاري معللة زهدها فيه: «يا أبت! أتراني تاركة بني عمي مثل عوالي الرماح، وناكحة شيخ بني جشم هامة اليوم أوغد؟» . ثم تزوجت من رواحة بن عبد العزيز السلمي، فولدت له أبا شجرة؛ وخلف عليها مرداس بن عامر السلمي، فولدت له يزيد ومعاوية وعمراً . . .

وكانت تقول في شبابها البيتين والثلاثة، فلما فجعت بمقتل أخويها استولى عليها الجزع، وطال أساها، ففاض من عينها دمعاً سخيناً، ومن قلبها شعراً كأنه ذوب الروح: هتفت به أكثر حياتها حتى لذعت به القلوب، وحتى ضرب بها المثل في الحزن والبكاء. وكان أكثر جزعها على صخر لحدبه عليها ومواساته لها يوم سفه زوجها نفسه، وأضاع بالمقامرة نشبه وماله .

ولما ظهر الاسلام وفدت في قومها على رسول الله (ص)، فأسلمت، وأنشدته من شعرها فأعجب به واستزادها منه، وهو يقول «هيه ياخناس!» ويومئ بيده وكان المظنون أن تكفكف بعد إسلامها غرب شؤونها واذا بحزنها يتضاعف، وبكاها يتزايد: لايفيدها تثريب، ولاتنجع فيها نصيحة، حتى مرهت وعميت، إذ كانت في الجاهلية تبكي لهما من الثأر، فأصبحت في الاسلام وهي تبكي لهما من الثأر والنار، كما كانت تقول .

وعاشت حتى شهدت مع أولادها الأربعة حرب القادسية [1] (وهي الحرب العظمى التي نشبت بين العرب والفرس وانتصر فيها المسلمون بقيادة البطل العربي الجليل سعد بن أبي وقاص) فأبدت فيها من الشمم والبطولة

«١» كانت في السنة الخامسة عشرة من الهجرة .

ما كان غرة شادخة في جبين تأريخ المرأة العربية ، فقد حرضت بنيها الأربعة على القتال، ودفعت بهم واحداً بعد الآخر الى حومة النزال ، حتى استشهدوا جميعاً فتقبلت مصارعهم صابرةً محتسبة لا والهة ولا عبرى ، وهي تقول « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته » .

وشتان بين هذا الصبر العجيب على هؤلاء السادة البهاليل ، و بين ذلك الجزع الشديد على أخويها الغابرين . والعلة ظاهرة من كلمتها في سبب طول بكاها « كنت أبكي لهما من الثأر . . . الخ » ، ولماذا تبكي على أولادها وهم شهداء عند ربهم يرزقون ، وهي ترجو أن يجمعها الله بهم في جنته، ومستقر رحمته

* *
*

هذه هي الخنساء عليها رحمة الله . . . فلا بدع اذا قصرت شعرها على نوع واحد من أغراض الشعر ، هو الرثاء ممزوجاً بعضه بغرض آخر يقتضيه الرثاء أحياناً وهو الفخر بشرف قومها ونبالة رجالهم . ومن أراد شاعراً منبعثاً كلامه كله من وحي العاطفة ، وحرارة القلب ، فليس هنالك في شعراء العرب غير الخنساء فيما أعلم . فهي لم تتخذ الشعر أداةً للتفكهة ، ولا لاستدرار الأكف ، ولا لتلب الأعراض ، وانما هي شعرت فعبرت عن شعور . إذ أذكى الحزن فؤآدها ، وغمر الأسى نفسها ، وصادف ذلك منها روحاً حساساً ، وشعوراً رقيقاً يغلب على جنس المرأة ، فانبعثت شاعريتها ، وسالت عاطفتها الحرى شعراً لا يمازجه تصنع ، يرسم صوراً صادقة من نفسها الحزينة المتألمة ، و يمثل صنوفاً من حياتها المملوءة هماً وغماً ، فيشركك معها في آلامها ، و يملك عليك منافذ التسلي فلا تجد اليه سبيلا .

فشعرها ذوب الروح الملتاع ، وحرارة الكبد الحرى ، وزفرة الفؤاد القريح ، وأنة الحزين المكروب ، ودمعة الأم الثكول .

ومن دموعها على صخر :

يؤرقني[1] التذكر حين أمسي ... فيردعني عن الأحزان نكسي[2]
على صخر ، وأيّ فتى كصخر ... ليوم كريهة[3] ، وطعان خلس ![4]
ألا ياصخر لاأنساك حتى ... أفارق مهجتي ويشق رمسي
يذكرني طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس[5]
فلولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
ولكن لاأزال أرى عجولاً[6] ... ونائحة تنوح ليوم نحس
هما كلتاهما تبكي أخاها ... عشية رزئه[7] أو غب أمس
وما يبكين مثل أخي ولكن ... أسلي النفس عنه بالتأسي[8]
فقد ودعت يوم فراق صخر ... أبي حسان[9] لذاتي وأنسي
فيا لهفي عليه ولهف أمي ... أيصبح في الضريح وفيه يمسي

بكت عيني وعادوها قذاها ... بعوار[10] فما تقضي كراها
على صخر وأي فتى كصخر ... اذا ما الناب[11] لم ترأم طلاها[12]
لئن جزعت بنو عمرو عليه ... لقد رزئت بنو عمرو فتاها

«١» يسهرني «٢» النكس بضم النون عود المريض الى مرضه بعد النقه
«٣» نازلة وشدة وحرب «٤» الخلس : الاخذ فى نهزة ومخاتلة «٥» تذكره أول النهار للغارة ، وآخره لقرى الاضياف «٦» ثكلى فاقدة ولدها «٧» مصيبته
«٨» الاقتداء «٩» كنية صخر .
«١٠» مرض «١١» الناقة المسنة «١٢» لم تعطف على ولدها

فتى الفتيان ما بلغوا مداه ولا يكدي اذا بلغت كداها[1]
له كف يشد بها ، وكف تجود فما يجف ثرى نداها

الا يا صخر إن أبكيت عيني لقد أضحكتني دهراً طويلا
دفعت بك الخطوب وأنت حي فمن ذا يدفع الخطب الجليلا ؟
اذا قبح البكاء على قتيل رأيت بكاءك الحسن الجميلا

قذى بعينك أم بالعين عوار أم ذرفت[2] إذ خلت من أهلها الدار
تبكي لصخر هي العبرى[3] وقد ولهت[4] ودونه من جديد الترب أستار
لابد من ميتة في صرفها غير[5] والدهر في صرفه حول وأطوار[6]
يا صخر وراد ماء قد تناذره أهل الموارد ما في ورده عار[7]
مشى السبنتى[8] الى هيجاء معضلة له سلاحان : أنياب وأظفار
وما عجول[9] على بو تطيف به[10] لها حنينان : إعلان وإسرار
ترتع ما غفلت حتى اذا ادكرت فانما هي إقبال وإدبار
يوماً بأوجع مني يوم فارقني صخر ، وللدهر إحلاء وإمرار

«١» اى لايقطع عطاءه ولايمسك عنه اذا قطع غيره وأمسك «٢» قطرت قطراً متتابعا
«٣» عبرت : جرى دمعها
«٤» اشتد حزنها وجزعها مما أصابها «٥» أحداث مغيرة «٦» أى تحول وتقلب وتصرف
«٧» تقول : شربت كاس المنية حين أبى الناس وأنذر بعضهم بعضاً هو لها وصعوبتها وليس بلا حق تاركها عار ، فلك فضيلة الشجاعة وفخر البسالة «٨» الجرى ، والنمر
«٩» ثكول «١٠» البو : ولد الناقة وجلد الحوار يحشى تبناً فيقرب من أم الفصيل فتعطف عليه فتدر ، وتطيف به : تلم به وتقاربه

وإن صخراً لوالينا وسيدنا ... وإن صخراً اذا نشتو لنحار[1]

أغر[2] أبلج[3] تأتم[4] الهداة به ... كأنه علم[5] في رأسه نار

لم تره جارة يمشي بساحتها ... لريبة حين يخلي بيته الجار

ومن رثائها المشوب بالفخر.

تعرقني[6] الدهر نهساً[7] وحزا ... وأوجعني الدهر قرعاً وغمزا[8]

وأفنى رجالي فبادوا[9] معاً ... فأصبح قلبي بهم مستفزا[10]

كأن لم يكونوا حمى يتقى ... إذ الناس إذ ذاك من عز بزا[11]

هم منعوا جارهم والنسآ ... ء يحفز أحشاءها الخوف حفزا

ببيض الصفاح[12]، وسمر الرماح ... فبالبيض ضرباً، وبالسمر وخزا[13]

وخيل تكدس[14] بالدارعين ... وتحت العجاجة يجمزن جمزا[15]

جززنا نواصي فرسانها ... وكانوا يظنون ألا تجزا[16]

ومن ظن ممن يلاقي الحروب ... بأن لا يصاب فقد ظن عجزا[17]

«١» أى جواد ينحر النياق للفقراء فى أيام الشتاء والجدب «٢» سيد كريم الافعال . من المجاز «٣» واضح — تريد أنه مشهور «٤» تقتدى «٥» جبل

«٦» من قولهم تعرق العظم اذا أخذ ماعليه نهشاً بأسنانه

«٧» النهس : كالنهش «٨» الغمز : النخس «٩» هلكوا «١٠» منزعجاً

«١١» أى من غلب الناس سلبهم بجفاء وقهر ، وهذا مثل «١٢» السيوف العراض ، واحدها صفيحة «١٣» طعناً «١٤» تمشى كأنها مثقلة «١٥» الجمز : ضرب من العدو دون الحضر الشديد «١٦» النواصى : جمع ناصية ، وهى شعر مقدم الرأس فوق الجبهة ، وجزها : قطعها ، وكانت العرب تفعل ذلك بالرجل الشريف اذا أسروه وأرادوا اطلاقه ، فتكون الناصية عند الرجل يفخر بها «١٧» أى باطلا ، وسمته عجزاً تجوزاً

نعف [1] ونعرف حق القرى ... ونتخذ الحمد ذخراً وكنزا
ونلبس في الحرب نسج الحديد [2] ... ونلبس في الأمن خزا وبزا [3]

ومن جيدها الرائع :

إن الزمان ومـا يفنى له عجب ... أبقى لنا ذنباً واستؤصل [4] الراس
إن الجديدين [5] في طول اختلافهما [6] ... لا يفسدان ولكن يفسد الناس

وقولها :

وما بلغت كف امرئ متطاول ... من المجد الا والذي نلت أطول
وما بلغ المهدون نحوك مدحة ... وإن أطنبوا الا وما فيك أفضل

وقد أخذ هذين البيتين أبو الجويرية وجمعهما في بيت استوفى فيه معنييهما فقال:

يزيد على سرو الرجال بسروه [7] ... ويقصر عنه قول من يتمدح

وأخذ أبو نواس البيت الثاني منهما فقال :

اذا نحن أثنينا عليك بصالح ... فأنت كما نثني وفوق الذي نثني

وطبع ديوان الخنساء ببيروت في جزء لطيف

٣ ـ أبو ذؤيب الهذلي

[... ـ ٢٦ هـ]

هو خويلد بن خالد بن محرز . نشأ في الجاهلية بين قومه بني هذيل احدى القبائل المشهورة بنوابغ الشعراء، وشب نزوعاً الى الشعر فروى شعر « ساعدة ابن جؤية الهذلي » وأنبطت قريحته فكان أشعر الهذليين غير مدافع . ولما ظهر الاسلام أسلم، ولم ير النبي (ص) حتى بلغه مرضه فأقبل الى المدينة يسعى فوجد لها ضجيجاً كضجيج الحجيج اذا انطوى بالاحرام ، فأتى بيت رسول

«١» ويروى : نضيف «٢» أي الدروع «٣» الخز : الحرير . والبز : الكتان
«٤» قطع من الاصل «٥» الليل والنهار «٦» كرهما وترددهما
«٧» السرو : الشرف في مروءة .

الله (ص) فأصاب بابه مرتجاً ، وقيل له إن القوم قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة ليختاروا خليفة لهم ، فسار اليهم فشهد بيعة أبي بكر الصديق ، و رجع معه فشهد الصلاة على النبي (ص) ومدفنه ، و رثاه و بكاه . ثم انصرف الى باديته فأقام بها الى أيام عثمان . فخرج في جند عبدالله بن أبي سرح الى فتح إفريقية فاتحاً ، فلما تم لابن أبي سرح فتح إفريقية وما والاها بعث عبدالله بن الزبير بشيراً الى عثمان ومعه نفر ، منهم أبو ذؤيب ، حتى اذا بلغوا مصر أدركت أبا ذؤيب الوفاة . فدفن هناك . وقيل في موته غير ذلك .

***

ولا يختلف علماء الشعر في أن أبا ذؤيب « شاعر فحل لاغميزة فيه ولا وهن[1] » ، وأنه « أشعر الهذليين غير مدافع » . ولكن شعره ذاهب لم يبق منه الا شيء يسير كانوا يتغنون ببعضه غير أنه يكثر فيه الغريب الا قليلا منه. وأشهره عينيته التي رثى بها بنيه وكانوا خمسة وقيل سبعة هلكوا في عام واحد بالطاعون ، وكانوا فيمن هاجر الى مصر . وقد نزع فيها منزعاً غريباً لا أعرف في الشعرآء من نزع اليه . فانه بعد أن بكاهم وتفجع عليهم ذهب يسلي نفسه بمشاهد الموت إذ يغتال الانسان وهو مزهو بأفراح الحياة ، وينزل بالحيوان وهو آمن في سربه أو راتع في بحابح الرياض ، فقال: إن الدهر لا يبقى على حدثانه أحد ، وتخلص الى ذكر حمار الوحش الآمن في سربه يصفه ويصف صيده ، وكيف أنه لاينجو من سهام الموت تأتيه من يد القانص ، وهو يرد الماء آمناً مطمئناً ، حتى اذا فرغ من تصوير هذا المنظر عمد الى منظر ثان من مناظر الصيد فوصف مبيت الوحش آمنة وفزعها في الفجر خوفاً من القانص ومطاردة كلاب الصيد لها واستهدافها لسهام القانص

(١) الغميزة : المطعن والعيب ، والوهن : الضعف والركة .

لاتكاد تفلت منها ، فلما انتهى منه ووفاه حقه من الوصف الدقيق انتقل فتخيل فارسين مستشعرين حلق الحديد أتيح أحدهما للآخر فتواقفا ثم تخالسا بالنوافذ حتى خرا صريعين يتخبطان بالدماء .

وهذا نوع من الأسى التي يسلي بها الحزين نفسه ، ولكنه بسيط ساذج لايلائم ذوق هذا العصر الذي بعد بتفكيره ، وتخيله ، ومناحي حياته ، وألفاظ لغته عن تلك العصور كثيراً جداً ، ومع ذلك إننا حين ندرس تأريخ الأدب مضطرون أن نقف عند هذا النوع من الاخيلة والأساليب وقفات : ندرسه ونتفهمه ونتحققه على قدر المستطاع لنستطيع بذلك أن ندرك الادب على وجهه ، ونربط حلقاته بعضها ببعض . أما هذا المدرس فلا يتسع للافاضة في الحديث الا قليلاً مما يعينك على المضي في هذه السبيل .

قال أبو ذؤيب في هذه القصيدة يبكي أولاده :

أمن المنون وريبها تتوجع ... والدهر ليس بمعتب[1] من يجزع
قالت أميمة ما لجسمك شاحباً[2] ... منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك لايلائم مضجعاً ... الا أقض[3] عليك ذاك المضجع
فأجبتها أما لجسمي إنه ... أودى[4] بني من البلاد فودعوا
أودى بني فأعقبوني غصة ... بعد الرقاد ، وعبرة لاتقلع
سبقوا هوي[5] ، وأعنقوا[6] لهواهم ... فتخرموا[7] ، ولكل جنب مصرع
فغبرت[8] بعدهم بعيش ناصب ... وإخال أني لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... فإذا المنية أقبلت لاتدفع

«١» ليس بمرض «٢» صامراً من الهموم والالام «٣» كأن به حجارة صغيرة «٤» هلك «٥» بمعنى هواى وهي لغة هذيل ومكة يقولون في كل مقصور يضاف الى ياء المتكلم «٦» أسرعوا وتقدموا «٧» اخترمتهم المنية واختطفتهم واحداً بعد آخر «٨» بقيت

وإذا المنيــة أنشبت[1] أظفارها ... ألفيت كل تميمــة[2] لا تنفع

فالعين بعدهم كأن حداقها[3] ... سملت[4] بشوك فهي عور تدمع

حتى كأني للحوادث مروة[5] ... بصفا المشقر[6] كل يوم تقرع

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

ومنها ، وهو المشهد الثالث الذي أشرنا إليه :

والدهر لا يبقى على حدثانه ... مستشعر حلق الحديد مقنع[7]

حميت عليه الدرع حتى وجهه ... من حرها يوم الكريهة أسفع[8]

تعدو به خوصاء يفصم جريها ... حلق الرحالة فهي رخو تمزع[9]

قصر الصبوح لها[10] فشرج لحمها[11] ... بالني[12] فهي تتوج[13] فيها الإصبع

متفلق أنساؤها[14] عن قانئ[15] ... كالقرط صاو[16] غبره[17] لا يرضع

تأبى بدرتها[18] إذا ما استكرهت ... إلا الحميم[19] فإنه يتبضع[20]

بينا تعانقه الكماة وروغه ... يوماً أتيح له جريء سلفع[21]

يعدو به نهش المشاش[22] كأنه ... صدع[23] سليم رجعه[24] لا يظلع

«١» أعلقت «٢» تعويذة «٣» ويروى : كأن جفونها «٤» فقئت وطعنت

«٥» صخرة صماء «٦» الصفا : الحجارة الملس العراض ، وهو موضع بالبحرين فيه بنى حصن المشقر ، ويروى : بصفا المشرق «٧» المستشعر : لابس الدرع ، والمقنع : الذى يتغشى بالحديد «٨» أسود «٩» الخوصاء : الفرس التى تنظر بمؤخر عينيها مرحا ونشاطاً . رخو : لينة السير ، تمزع : تسرع «١٠» أى جعل صبوحها اللبن دون الماء «١١» علي بعضه على بعض «١٢» الشحم «١٣» ويروى : تثوخ ، وكلاهما معنى تغيب ، وقد عيب على أبى ذؤيب هذا الوصف «١٤» منشقة عروق فخذيها «١٥» أحمر «١٦» يابس

«١٧» بقية لبنه «١٨» تأبى أن تعطيه الجرى كله «١٩» العرق

«٢٠» يسيل شيئاً فشيئاً «٢١» السلفع : الجرئ الواسع الصدر .

«٢٢» خفيف القوائم ، ويروى : يعدو به عوج المبان ، أى لين الصدر

«٢٣» وعل وهو تيس الجبل «٢٤» خطوه أورده بيديه فى السير وهو مجاز.

فتناديا ، وتواقفت خيلاهما ... وكلاهما بطل اللقاء مخدع[1]
يتحاميان المجد ، كل واثق ... ببلائه ، واليوم يوم أشنع
وعليهما مسرودتان[2] قضاهما[3] ... (داوود) أوصنع السوابغ[4] (تبع)
وكلاهما في كفه يزنية[5] ... فيها سنان[6] كالمنارة أصلع[7]
وكلاهما متوشح ذا رونق ... عضباً[8] اذا مس الضريبة يقطع
فتخالسا[9] نفسيهما بنوافذ ... كنوافذ العبط[10] التي لا ترقع
وكلاهما قد عاش عيشة ماجد ... وجنى العلاء لوان شيئاً ينفع

٤ ـ حسان بن ثابت الانصاري
[... ـ ٥٤ هـ][11]

ولد بالمدينة في الجاهلية ، وكان أبوه ثابت بن المنذر من سراة قومه ؛ ونشأ حسان يقول الشعر حتى اذا استطاع صولة البزل القناعيس ونبه شأنه ، انتجع به المناذرة والغساسنة ، و بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان ، فأجزلوا له العطاء ، وأغدقوا عليه النعم حتى بعد اسلامه وتنصرهم إذ جاءته رسلهم بالهدايا... وأسلم مع قومه الأنصار بعد هجرة النبي (ص) الى المدينة ، فكان شاعر النبي ناضل عنه بلسانه كما ناضل قومه الأنصار بسيوفهم ، وكان النبي ينصب له منبراً بالمسجد و يسمع هجاءه في أعدائه و يقول له « أجب عني، اللهم أيده بروح القدس » فكان لقوله من شدة الوقع على كفار قريش الذين تناولوا النبي بالهجاء

(١) أحكمته خدع الحروب (٢) درعان (٣) أحكمهما (٤) جمع سابغة وهي الدرع الطويلة الواسعة (٥) حربة ، نسبة الى ذي يزن (٦) السنان : حديدة الرمح (٧) أبيض (٨) ذو الرونق العضب : السيف القاطع (٩) تطاعنا (١٠) بضمتين جمع عبيط وهو الشق في الثوب.
(١١) راجع (الاصابة) للعسقلاني ج ٢ ص ٨

ما أخفت أصواتهم وزم ألسنتهم عن النزوان . وعاش بعد النبي حبيباً الى الخلفاء الأكرمين مكفياً من بيت المال الى أن توفي في أيام معاوية ، وقد وهن وكف بصره ، وفي ذلك يقول معزياً نفسه ومفتخراً :

إن يأخذ الله من عيني نورهما ... ففي لساني وقلبي منهما نور
قلب ذكي، وعقل غير ذي خطل ... وفي فمي صارم كالسيف مأثور[1]

. . .

حسب حسان منزلة في عالم الشعر إفحامه شعراء قريش ، وعلوه عليهم من غير أن يلجأ الى الاقذاع ، وينال من الأعراض بالوقيعة بهتاناً وكذباً كما هي خلة الهجائين . وما تجده في شعره من الهجر أحياناً أكاد أجزم أنه منحول : نحله إياه الشعوبية نيلاً من العرب ونكاية بهم . . . يعرف ذلك من عرف طابعه وأثر ديباجته[2] ، وهو فخم الاسلوب قوي التأثير تستثير كحماسته ، ويملكك فخره ، ويروقك مدحه ، ثم لا يبعث فيك النفرة هجاؤه . وذلك ما يغلب في شعره من الأغراض ، وكلها تقتضي شدة الاسر ، وفخامة الالفاظ ، وروعة الديباجة . وكان الاصمعي يرى أن شعره في الاسلام أضعف منه في الجاهلية معللاً ذلك بأن الشعر لا يقوى الا في باب الشر الذي استأصله الاسلام . والحق أن الاسلام لم يضعف شعره ، وإنما لطف حاشيته ، وهذب ألفاظه ، وأجلى

---

(١) من ديوانه المطبوع بمصر . وعزاهما الجاحظ وغيره الى عبدالله بن عباس الصحابي المشهور أنظر نكت الهميان للصفدي . ووفيات الاعيان للقاضي ابن خلكان ج٢ ص ٤١٥ .

(٢) من غريب الاتفاق أنني بعد ان أثبت رأيي هذا بدا لي أن أرجع الى « طبقات الشعراء » لمحمد بن سلام الجمحي . فاذا به قد سبقني الى هذا الرأي منذ قرون ، فقد قال : « . . وأشعرهم حسان بن ثابت وهو كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد لما تعاضدت قريش واستبت وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به » .

معانيه ، وأوضح جادته . و بهذا ـ لا بعنجهية الألفاظ ووعورة المسالك ـ يعد الشعر قوياً بليغاً ، وأغراض حسان في الاسلام هي أغراضه بعينها في الجاهلية لم يغلب عليها الا الهجاء الذي اتخذه سلاحاً يفل به سلاح أعدآء الاسلام فاذا كان المقياس في قوة الشعر وضعفه إنما هو الخير والشر فأحر بشعر حسان أن يكون في الاسلام أقوى منه في الجاهلية .فأن الاسلام ـ وان كان جاء لمحو الشر ـ قد يتخذ الشر أحياناً سلاحاً ماضياً دفعاً لشر أعظم يخشى تغلبه ، فأذن النبي (ص) لحسان أن يهاجي كفار قريش على أن لا يقول الا حقا ، فانتصب لهم مقارعاً حتى علا عليهم ، والهجاء لذاته ليس في شيء من الخير وأسمائه ، إذن فشعر حسان في الاسلام أقوى منه في الجاهلية على مقياس الخير والشر أيضاً ، وما تجده في بعض شعره من الضعف أحياناً إنما هو من أثر شيخوخته و إرساله الكلام على البديهة إرسالا ، و بعضه مما حمل عليه ، وكان حسان نفسه يتخذ « الصدق والكذب » مقياساً لحسن الشعر و رداءته كما قال:

و إنما الشعر عقل المرء يعرضه على المجالس إن كيسا و إن حمقا
و إن أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

والشاعر قد يصدق في باب الشر كما يصدق في باب الخير ، ومن أصدق من حسان حين قال في النبي :

وأحسن منك لم ترقط عيني وأجمل منك لم تلد النساء
خلقت مبرءاً من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

ومن صادق أقواله في عهد الاسلام :

رب حلم أضاعه عدم الما ل ، وجهل غطى عليه النعيم

و إن امرءاً يمسي و يصبح سالماً من الناس الا ماجنى لسعيد

ومن جيده قوله في عدم المبالاة بما يأتي اللئام:

ما أبالي أنب بالحزن تيس ... أم لحاني بظهر غيب لئيم

وقوله في إباء نفسه ونفورها عما لاتهوى:

اذا انصرفت نفسي عن الشيء مرة ... فلست اليه آخر الدهر مقبلا

∴

ومن أمثلة هجائه قوله في (الحماس) قوم من العرب :

أولا دحام فان تلقى لهم شبهاً ... الا التيوس على أكتافها الشعر

إن سابقوا سبقوا، أو نافروا نفروا ... أوكاثروا أحداً من غيرهم كثروا

وقوله في أبي سفيان :

الا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواء (1)

بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الاماء (2)

هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء (3)

أتهجوه ولست له بكفء (4) ... فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركاً براً حنيفاً ... أمين الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء (5)

فان أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء (6)

ولست أعرف في الهجاء أشرف من هذا الهجاء . أرأيت كيف نزهه من هجر القول ثم رضي — وهو يقارع خصماً مبيناً — أن يقول مثل قوله « فشركما لخيركما

«١» المجوف : الجبان الذى لافؤاد له ، وكذلك النخب والهواء

«٢» عبد الدار : قبيلة ، والاماء: جمع أمة وهى المملوكة «٣» المكافأة

«٤» نظير ومثل «٥» لانبالى بكم فان هجوتم أو مدحتم ونصرتم فذلك عندنا على حد سواء اذ لايضيره هجوكم ولايزيده مدحكم ونصركم «٦» العرض : النفس

الفداء » مع علمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير منه وليس في شئ من الشر بلا ريبة . ذلك هو أدب القرآن وأسلوبه في مقارعة خصومه على شدة ما بلغوا من سفه النفس وطيش الحصاة ، وإنما يفعل القرآن ذلك ويسلك هذا الأسلوب من الكلام المنصف ليضطر السامع الى الاذعان للحق وترك العناد حتى لايجد الخصم أو السامع غير ذلك سبيلا. فانظر اليه كيف ساوى بين فريقي الهدى والضلال في قوله (إنا وإيا كم لعلى هدى أو في ضلال مبين) مع أن من المعلوم أن المتكلم ومن معه على هدى وأن المخاطبين على ضلال ، وإنما أبهم الأمر ليكون كلامه أدعى الى الاذعان والخضوع .

ومما هجا به هوازن بن منصور .

أبلغ هوازن أعلاهـا وأسفلهـا أن لست هاجيها الا بمـا فيهـا
قبيلة ألأم الأحيـاء أكرمهـا وأغدر النـاس بالجيران وافيهـا
تفنى عظامهم إماهم دفنـوا تحت التراب ولاتفنى مخـازيهـا

وعندي أن هذا الشعر لايبرأ من الوضع والتوليد . . .

⁂

ومن أمثلة مديحه قوله في عبد الله بن عباس الصحابي المشهور :

اذا قال لم يترك مقالاً لقائـل بملتقطات لاترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوس فلم يدع لذي إربة في القول جداً ولاهزلا
سموت الى العليا بغير مشقـة فنلت ذراها لادنياً ولا وغلا (١)

وقد نظر المتنبي الى البيت الأول فقال :

اذا صلت لم أترك مصالاً لفاتك وإن قلت لم أترك مقـالاً لعالم

---

(١) الوغل : النذل الساقط

ولحسان مفردات في الشعر احتذى الناس عليها ، منها قوله :

اذا ما عصبنا بأسيافنا   جعلنا الجماجم أغمادها

أخذه الحماسي فقال :

منابرهن بطون الأكف   وأغمادهن رؤوس الملوك

وقال المتنبي :

لعلها أنها تصير دماً   وأنه في الرقاب يغمدها

وقوله :

لا بأس بالقوم من طول ومن قصر   جسم البغال وأحلام العصافير

أخذه العباس بن مرداس أو ربيعة الرقي فقال :

وما عظم الرجال لهم بفخر   ولكن فخرهم كرم وخير (1)

ومن رائع فخر حسان قوله من قصيدة ، وقد أمره الرسول أن يجيب وفداً من تميم برئاسة الزبرقان بن بدر أتى يفاخره :

إن الذوائب من (فهر) وأخوتهم   قد بينوا سنناً للناس تتبع (2)
يرضى بها كل من كانت سريرته   تقوى الاله وبالامر الذي شرعوا
قوم اذا حاربوا ضروا عدوهم   أو حاولوا النفع في أشياعهم (3) نفعوا
سجية تلك فيهم غير محدثة   إن الخلائق (4) فاعلم شرها البدع (5)
لا يرقع (6) الناس ما أوهت (7) أكفهم   عند الدفاع ولا يوهون مارقعوا
إن كان في الناس سباقون بعدهم   فكل سبق لأدنى سبقهم تبع

«1» الخير : بكسر الخاء ، الكرم

«2» الذوائب : جمع ذؤابة ، وهى الشعر المنسدل من وسط الرأس الى الظهر ، ومن المجاز قولهم : هم ذؤابة قومهم ، أى رؤساؤهم وسادتهم ، وفهر : قبيلة من قريش

«3» أتباعهم وأنصارهم «4» جمع خليقة وهى الطبيعة «5» جمع بدعة وهى كل شيء مستحدث على غير مثال مسبوق «6» لا يصلح «7» أضعفت وأفسدت

ولا يضنون [1] عن مولى بفضلهم ولا يصيبهم فى مطمع طبع [2]
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم في فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت فى الوحي عفتهم لا يطمعون ولا يزري بهم طمع. [3]
لا يفخرون اذا نالوا [4] عدوهم وان أصيبوا فلا خور [5] ولا جزع
أكرم بقوم رسول الله شيعتهم اذا تفرقت الأهواء والشيع
فانهم أفضل الأحياء كلهم إن جد بالناس جد القول أو سمعوا

وطبع ديوان حسان فى أوربة ومصر.

٥ — الحطيئة

هو جرول بن أوس ، جاهلي إسلامي يندر وجود شبيه له في شواذ المخلوقات : جمع الله فيه الى قبح المنظر ، سوء المخبر ؛ والى ضعة النسب ، سفه النفس ولؤم الغريزة وشرة اللسان ، فامتحن به الناس جاهلية و إسلاماً ولم ينج منه شريف ولا وضيع ولا بعيد ولا قريب حتى هجا امرأته وأمه وأباه وهجا نفسه أيضاً إذ لم يجد من يصيب غيرها بشره [6] وكان اذا نزل مدينة أو نجعاً دب الخوف في أهله ، ورصدوا له العطايا اتقاء نزوات لسانه الخبيث ، وربما أطلق لسانه فيمن

«١» لا يبخلون «٢» دنس «٣» فى رواية أخرى (ولا يرديهم الطمع) «٤» غلبوا «٥» أي ضعف «٦» قال فى امرأته :

أطوف ما أطوف ثم آوى الى بيت قعيدته لكاع

وقال فى أمه :

تنحي فاقعدى منى بعيداً أراح الله منك العالمينا
ألم أوضح لك البغضاء منى ولكن لا اخالك تعقلينا
أغر بالاً اذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثينا
جزاك الله شراً من عجوز ولقاك العقوق من البنينا
حياتك ما علمت حياة سوء وموتك قد يسر الصالحينا!

يحسن اليه ممالأة لمن يطمع منه في خير أكثر لم يصده عن ذلك دين كان يرفع النفوس الوضيعة و يطبعها على المروءة و كرم الأخلاق، بل كان شأنه في اضطراب العقيدة كشأنه في هذا الاضطراب، وفي اضطراب نسبه وانتمائه كل يوم الى قبيلة يرجو منها مصلحة. وقد أسلم ولم تكن له صحبة برسول الله (ص) ثم ارتد بعد وفاته، ثم عاد واهن العقيدة؛ ومثل هذه الأرواح الماردة لا يستطيع أن يستخلصها من الخبث و يستقيم بها على الطريقة الا وازع القوة و رهبة العقوبة كما سترى . . .

كان الزبرقان بن بدر صاحب رسول الله (ص) وعامل عمر بن الخطاب قد ضمن للحطيئة مؤونة عياله وأنزله بجواره قطعاً للسانه، فأصفاه مديحه، واقتصر عليه. ثم استماله بغيض أحد بني أنف الناقة وخصم الزبرقان؛ وحمله على هجائه، فتناسى معروفه وأطال لسانه فيه حتى اضطر أن يستعدي عليه أمير المؤمنين عمر، فسجنه، فصار يستشفع اليه بالناس مرة و بالشعر أخرى حتى سمح باطلاقه على أن لا يهجو أحداً والا قطع لسانه، فقال له وهو يكلمه بلهجة العبد الذليل «اذن يموت عيالي، هذا مكسبي ومنه معاشي» فاضطر عمر رحمة بعياله أن يشتري منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم، فزم بذلك لسانه [1]. فلما

= وقال فى أبيه وعمه وخاله :

لحاك الله ثم لحاك حقاً ... أباً ولحاك من عم وخال

فنعم الشيخ أنت لدى المخازى ... وبئس الشيخ أنت لدى المعالى

جمعت اللؤم لا حياك ربى ... وأسباب السفاهة والضلال

وقال فى نفسه :

أبت شفتاى اليوم الا تكلما ... بشر فما أدرى لمن أنا قائله

أرى لى وجهاً شوه الله خلقه ... فقبح من وجه وقبح حامله

(1) وذلك قول الحطيئة يخاطبه:

ومنعتنى شتم البخيل فلم يخف ... شتمى فأصبح آمناً لا يفزع

وأخذت أطراف الكلام فلم تدع ... شتماً يضر ولا مديحاً ينفع !

توفي عمر رضي الله عنه ، و زال ذلك الوازع ، نكث وعاد الى شنشنته القديمة حتى أخرسه الموت في خلافة معاوية . وقد أبى حتى في ساعة النزع أن يثوب الى حظيرة الفضيلة ، فأوصى بوصية — اذا صحت نسبتها اليه [1] — كانت أخبث من جميع ما قاله في حياته ، واقترفه من الآثام .

* * *

ولعلك — بعد هذا كله — قد علمت أن أغراض الحطيئة لاتعدو أحد أمرين اثنين : فاما مديح يستندي به بطون الراح ، و إما هجاء يروع به الكز الشحاح . أما سائر فنون الشعر كالنسيب ، والفخر ، والرثاء ، فلا إخالك تحسبه حام حولها ، ولكنك اذا علمت أن النسيب كان مما يوطأ به لغرض آخر عادة ، وأن الوصف يستطرد اليه عرضاً غالباً ، وأن الفخر مما يستطيل به أمثاله على الناس ، وأن الرثاء مما يدخل في وسائل الاستجداء : اذا علمت ذلك فلا تستغرب أن يكون رجل كالحطيئة قضى حياته صغير النفس كبير الشر — قد تفنن في هذه الأغراض ، وأجاد في معظمها إجادة الفحول أمثال أستاذه زهير بن أبي سلمى وغيره من المجودين . فقد روى الحطيئة شعر زهير وآل زهير ، وورث فصاحته وديباجته ، وان لم يبزه فلم يقصر عنه في شيء حتى كاد يجمع علماء الأدب الأقدمون على أنه شاعر المخضرمين لولا خسة طبعه ودناءة نفسه وسوء تبذله . لأن شرف الكلام عندهم بشرف قائله ...

ومن خصائص هجاء الحطيئة أنه على مرارته قلما يعثر فيه على تصريح بفحش حتى ليمر الانسان على بعضه ولا يفطن الى موضع الهجاء فيه كقوله :

---

(١) اقرأها في الاغاني ج ٢ ص ١٩٥ طبعة دار الكتب المصرية .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي[1]

وهو من جملة قصيدته التي قالها في الزبرقان بعد أن تحول عنه الى بغيض واستعدى الزبرقان عمر عليه من أجلها ، ومنها :

والله ما معشر لاموا امرءاً أجنباً[2] ... في آل « لأي بن شماس » بأكياس
ما كان ذنب بغيض لا أبا لكم ... في بائس جاء يحدو آخر الناس
لقد مريتكم لو أن درتكم ... يوماً يجيء بها مسحي وإبساسي[3]
وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم ... كيما يكون لكم متحي وإمراسي[4]
لما بدا لي منكم عيب أنفسكم ... ولم يكن لجراحي منكم آسي[5]
أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم ... ولن ترى طارداً للحر كاليأس
أنا ابن بجدتها علماً وتجربة ... فسل بسعد تجدني أعلم الناس[6]
جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيماً بين أرماس[7]
ملوا قراه[8] ، وهرته[9] كلابهم ... وجرحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها ... واقعد فانك أنت الطاعم الكاسي

« ١ » المطعوم المكسو ، وقد زعم بعض المعاصرين في كتاب له أن هذا البيت عمي على أمير المؤمنين عمر فلم يفطن الى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دله عليه حسان بن ثابت . وفاته أن عمر انما حكم حسان لأن القضية أدبية صرفة ، يفصل فيها أهل الصنعة ، والمحاكم في عصرنا هذا اذا ما ترافع اليها خصمان في مثل هذه القضية انما تحيلها غالباً الى من يرتضى من أهل الفن ، وقد انتبه الى ما أردنا الجمحي المتوفى سنة ٢٣٢ هـ حينما قال في معرض الكلام على هذه الخصومة وتحكيم عمر لحسان : (... وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان ولكنه أراد الحجة على الحطيئة ...)

« ٢ » غريباً « ٣ » مريتكم : من مرى الناقة يمريها : أي مسح ضرعها ، والمراد مداراتهم ومدحهم ليدروا عليه بالعطاء ، والدرة : اللبن ، والابساس : تسكين الناقة عند الحلب « ٤ » المتح : هو أن تنزع رشاء الدلو تمد بيد وتأخذ بيد على رأس البئر ، والامراس : أن يقع الحبل في جانب البكرة فيخرجه « ٥ » مداو « ٦ » البجدة : دخلة الامر وباطنه ، ومن الامثال « انا ابن بجدتها » يقال ذلك للعالم بالشيء المتقن له ، والهاء راجعة الى الارض « ٧ » الارماس : القبور وتراب القبور « ٨ » ضيافته « ٩ » نبحته

سيري أمام فإن الأكثرين حصى[1] والأكرمين أباً من آل شماس
من يفعل الخير لا يعدم جوازيه[2] لا يذهب العرف[3] بين الله والناس
ما كان ذنبي إن فلت معاولكم من آل لأى صفاة[4] أصلها راسي
قد ناضلوك فسلوا من كنائنهم مجداً تليداً ونبلاً غير انكاس[5]

فلما سجنه أمير المؤمنين عمر قال يستعطفه :

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ[6] زغب[7] الحواصل لا ماء ولا شجر
ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الامام الذي من بعد صاحبه ألقى اليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الخير
فامنن على صبية بالرمل مسكنهم بين الأباطح تغشاهم بها القرر[8]
أهلي فداؤك كم بيني و بينهم من عرض داوية[9] تعمى بها الخبر

ومن محاسن شعره قوله :

لكل حديد لذة غير أنني وجدت جديد الموت غير لذيذ
له خبطة في الحلق ليس بسكر ولا طعم راح[10] يشتهى ونبيذ

ومن أمثلة مدحه :

يسوسون أحلاماً[11] بعيداً أناتها[12] وإن غضبوا جاء الحفيظة[13] والجد

«١» عدداً «٢» جمع جازية وزن عافية وهى المكافاة على الشيء
«٣» المعروف «٤» الصفاة : الحجر العريض الاملس ، والمراد هنا المجد والعز والراسى: الثابت «٥» جمع نكس وهو أضعف السهام ونقل ابن منظور عن الازهرى فى شرح هذا البيت : أن العرب كانوا اذا اسروا اسيراً خيروه بين التخلية وجز الناصية ، والاسر ، فان اختار جز الناصية جزوها وخلوا سبيله ثم جعلوا ذلك الشعر فى كنائنهم . فاذا افتخروا أخرجوه وأروهم مفاخرهم ، والكنائن : جمع كنانة وهى وعاء النبل .
«٦» واد بالحجاز «٧» الزغب : أول ما يبدو من الشعر والريش .
«٨» الاباطح : جمع أبطح ، وهو مسيل متسع عريض فيه دقاق الحصى «٩» فلاة
«١٠» خمر «١١» عقولا «١٢» حلمها «١٣» الغضب

أقلوا عليهم لا أباً لأبيكم ... من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا ... وان عاهدوا أوفوا، وإن عقدوا اشدوا[1]

فان كانت النعماء فيهم جزوا بها ... وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا[2]

مطاعين في الهيجا ، مكاشيف للدجى ... بنى لهم آباؤهم و بنى الجد

ويعذلني أبنــاء سعد عليهم ... وماقلت الا بالذي علمت سعد

وله يهجو ضيفاً نزل به :

وسلم مرتين ، فقلت : مهلاً ... كفتك المرة الأولى السلاما

ونقنق[3] بطنه ، ودعا « رؤاساً » ... لما قـد نال من شبع وناما[4]

وله :

فخرتم ولم نعلم بحادث مجدكم ... فهاتوا هلموا بعدها للتنافر

ومن أنتم ؟ إنا نسينا : من انتم ! ... وريحكم من أي ريح الاعاصر ؟[5]

ومن جيد شعره هذه القصيدة القصصية في تمثيل الكرم العربي :

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما[6]

أخي جفوة[7] فيه من الانس[8] وحشة[9] ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى[10]

تفرد في شعب عجوزاً ازاءها ... ثلاثة أشخاص تخالهم بهما[11]

« ١ » وثقوا الشد « ٢ » ولا أتعبوا من أعطوهم بالمن والاذى

« ٣ » قرقر « ٤ » يقول : حين شبع بطر و نادى بآل بنى رؤاس من بنى كلاب

« ٥ » الاعاصر والاعاصير : جمع اعصار وهو الريح التى تثير السحاب أو الغبار

« ٦ » الطاوى : الجائع الخميص البطن . ثلاث : ثلاث ليال . عصب بطنه : شده لتخفيف ألم الجوع . والمرمل : المحتاج . لم يعرف بها ساكن رسما : أى لم ينزل بها أحد

« ٧ » بدوى جاف الطباع « ٨ » البشر « ٩ » خوف

« ١٠ » خفضاً ودعة « ١١ » تفرد : اعتزل الناس . الشعب : المنفرج بين الجبلين . عجوزاً : بعجوز ، نصبه باسقاط الباء الخافضة على غير قياس . البهم : أولاد الضأن والمعز

حفاة عراة ما اغتذوا خبز ملة[1] ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه فلما رأى ضيفاً تصور واهتما

تروى قليلا ثم أحجم برهة وإن هو لم يذبح فتاه[2] وقدهما

وقال ابنه لما رآه بحيرة : أيا أبت اذبحني ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم على الذي طرا يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما

فقال : هيا رباه ضيف ولا قرى بحقك لا تحرمه تي الليلة اللحما

فبيناهم ... عنت على البعد عانة قد انتظمت من خلف مسحلها نظما[3]

ظماء تريد الماء ، فانساب نحوها ألا إنه منها الى دمها أظما

فأمهلها حتى تروت عطاشها فأرسل فيها من كنانته سهما[4]

فخرت نحوص ذات جحش فتية قد اكتنزت لحماً ، وقد طبقت شحما[5]

فيا بشره أن جرها نحو أهله ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى

وبات أبوهم من بشاشته أباً لضيفهم ، والأم من بشرها أما

وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم وما غرموا غرماً[6] ، وقد غنموا غنما

∴

وقد طبع ديوان الحطيئة بمصر بشرح أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري.

«١» هو الخبز الذى يخبز فى الرماد الحار

«٢» ابنه «٣» عنت : عرضت ، العانة : الاتان والقطيع من الحمر الوحشية ، المسحل : الحمار الوحشي.

«٤» الكنانة : وعاء النبل تتخذ من الاديم «٥» النحوص : الاتان الوحشية ، الجحش ولدها ، اكتنز اللحم : اجتمع وصار صلباً «٦» الغرم : مايلزم أداؤه ، وما ينوب الانسان فى ماله من ضرر لغير جناية منه

٦ ـ النابغة الجعدي

أبو ليلى حسان بن قيس بن عبدالله الجعدي الشاعر المعمر المشهور - عاش عمراً في الجاهلية لايرى شرب الخمرة، والاستقسام بالازلام [1]، وعبادة الأوثان، وقال الشعر ثم أجبل [2] مدة، يحاوله فيصعب عليه حتى ظهور الإسلام فأنبطت قريحته وتفجرت بالشعر كما يتفجر الصخر عن الماء المعين، فسمي النابغة. و وفد على النبي (ص) وأنشده قصيدة رائعة أجاد فيها ما شاء له الإبداع أن يجيد، فأعجب بها، ودعا له وحسن إسلامه، وأقام مهاجراً الى أيام عثمان بن عفان. فأراد الرجوع الى البادية لضعف أصابه، فظن أنه يريد التعرب، فأنكر عليه، فلما احتج بضعفه أذن له وأجل له أجلا. ثم لما آلت الخلافة الى علي ونازعه معاوية كانت ضلعه مع الأول فظاهره وشهد معه صفين. ونال من معاوية و بني أمية، حتى اذا استوسق لمعاوية الأمر كتب الى مروان أن يأخذ أهل النابغة وماله، ثم أسبغ عليه عفوه و رد عليه كل شيء أخذه. ولما خرج عبدالله ابن الزبير على يزيد ومروان وعبدالملك انضم النابغة اليه وامتدحه، فأجزل صلته. حتى اذا هدأت الفتن عم الأمصار المفتتحة، فتوفي باصبهان، وهو ابن عشرين ومائة سنة، أو أكثر على ماجاء في بعض الروايات! وهو الذي يقول:

فمن يك سائلا عني فاني ... من الشبان أيام الخنان [3]

مضت مائة لعام ولدت فيه ... وعشر بعد ذاك وحجتان

---

(١) جمع زلم بفتحتين وهو قدح لاريش له، والاستقسام: طلب معرفة ماقسم لهم دون مالم يقسم بالازلام، وفى البحث تفصيل أنظره فى بلوغ الارب م ٣ ص ٦٦ الطبعة الثانية

(٢) صعب عليه القول

(٣) بضم الخاء داء يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه. قال الاصمعى: وكانت ايام الخنان على عهد المنذر بن ماء السماء وكانوا يؤرخون بها.

فأبقى الدهر والأيام مني كما أبقى من السيف اليماني
تفلل وهو مأثور[1] جراز[2] اذا اجتمعت بقائمه[3] اليدان

* * *

والنابغة شاعر مطبوع يرسل الشعر فيض القريحة وعفو البديهة ثم لا يتعهده بالصقل ولا يقلب صور ألفاظه بالتنقيح فكان مختلفه : تارة يحلق ممعناً ضارباً بخافيتي عقاب ، وأخرى يسف إسفاف المهيض الى الحضيض ، وقد يسلك بين ذلك سبيلا . وأثر عن الفرزدق ـ وقد سئل عنه ـ أنه قال : « مثله مثل صاحب الخلقان ترى عنده ثوب عصب[4] وثوب خز[5] والى جنبه سمل[6] كساء » . وقال علي بن الطاهر في أماليه وأورد مثالاً من لينه : « . . . لو أن أبا الشمقمق[7] قال هذا كان رديئاً ضعيفاً[8] » . وأكثر النابغة من وصف الخيل ، والفخر ، والمديح ، والرثاء ، والهجاء ، ولكنه كان مغلباً ماهاجى شاعراً الا غلبه : هاجى ليلى الأخيلية ، وأوس بن مغراء القريعي ، وعقال بن خالد العقيلي ، وسوار بن أوفى القشيري ، والأخطل أخرة ، فغلبوه جميعاً وفيهم من لم يكن اليه ولا قريباً منه .

وأمير شعره مشوبته التي أنشدها النبي (ص)

خليلي عوجا[9] ساعة وتهجرا[10] ولوما[11] على ماأحدث الدهر أوذرا
ولا تجزعا إن الحياة ذميمة فخفا لروعات الحوادث أوقرا[12]

«١» في متنه أثر «٢» قاطع

«٣» مقبضه (٤) نوع من البرود (٥) حرير (٦) بفتحتين الثوب الخلق (٧) مروان بن محمد شاعر عاش في أوائل العصر العباسي وكان معاصراً لبشار وله معه أحاديث أنظرها في الاغاني.

(٨) الموشح للمرزباني ص ٦٤ و٦٥ وأمالي المرتضى م ١ ص١٩٥ .

«٩» قفا «١٠» سيرا في الهاجرة وهي وقت اشتداد حرارة الشمس «١١» في رواية : ونوحا «١٢» وقر : رزن أو جلس بوقار

وان كان أمر لاتطيقان دفعه   فلا تجزعا مما قضى الله واصبرا
ألم تعلما أن الملامة نفعها   قليل اذا ما الشيء ولى وأدبرا
تهيج البكاء والندامة ثم لا   تغير شيئاً غير ما كان قدرا
أتيت رسول الله إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً كالمجرة[1] نيرا

...

خليليّ قد لاقيت ما لم تلاقيا   وسيرت في الأحياء ما لم تسيرا
تذكرت والذكرى تهيج للفتى الهوى   ومن حاجة المحزون أن يتذكرا
نداماي عند المنذر بن محرق   أرى اليوم منهم ظاهر الأرض مقفرا
كهولاً وشباناً كأن وجوههم   دنانير مما شيف[2] في أرض قيصرا
وما زلت أسعى بين باب وداره   بنجران[3] حتى خفت أن أتنصرا

وفيها يقول مفتخراً :

ونحن أناس لانعود خيلنا   اذا ما التقينا أن تحيد[4] وتنفرا
وننكر يوم الروع[5] ألوان خيلنا   من الطعن حتى نحسب الجون[6] أشقرا[7]
وما كان معروفاً لنا أن نردها   صحاحاً، ولا مستنكراً أن تعقرا
بلغنا السماء مجدنا وجدودنا   وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا[8]
ولا خير في حلم اذا لم تكن له   بوادر[9] تحمي صفوه أن يكدرا

«١» نجوم كثيرة لاتدرك بمجرد البصر وانما ينتشر ضوؤها فيرى كالسحاب الرقيق معترضاً في السماء «٢» جلي «٣» موضع باليمن فتح سنة عشر «٤» تميل وتعدل عن الطريق «٥» الفزع والمراد الحرب «٦» الاسود «٧» أحمر

«٨» لما سمع النبي هذا البيت قال له : فاين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة ، قال له: ان شاء الله

«٩» جمع بادرة وهي ما يبدر من حدتك في الغضب من قول أو فعل

ولا خير في جهل اذا لم يكن له حليم اذا ما أورد الأمر أصدرا

ومن شعره ، وقد عزاه بعضهم الى النابغة الذبياني خطأ ، قوله:

المرء يهوى أن يعيـ ش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبـ قى بعد حلو العيش مره
وتتابع الأيام حتـ ـى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي إن هلكـ ـت ، وقائل : لله دره !

وله في رثاء ابنه محارب ، وأخيه وحوح :

بدت فعل ذي ود فلما تبعتها تولت وأبقت حاجتي في فؤاديا
وحلت سواد القلب لا أنا باغياً سواها ، ولا عن حبها متقاليا
أتيحت له والهم يختضر الفتى[1] ومن حاجة الانسان ما ليس لاقيا

∴

تلوم على هلك البعير ظعينتي[2] وكنت على لوم العواذل زاريا
ألم تعلمي أني رزئت « محارباً » فمالك منه اليوم شيء ولاليا
ومن قبله ما قد رزئت « بوحوح » وكان ابن أمي والخليل المصافيا
فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقي من المال باقيا
فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسوء الأعاديا
أشم طويل الساعدين سميذع[3] اذا لم يرح للمجد أصبح غاديا

ومما يروى له أيضاً :

عقيلية أو من هلال بن عامر بذي الرمث من وادي المياه خيامها

«١» اختضر النبات أخذ طرياً غضاً ، والشاب مات فتياً من المجاز «٢» زوجي «٣» سيد

اذا ابتسمت في الليل والليل دونها أضاء دحى الليل البهيم ابتسامها

وقوله في كلمة فخر :

فان يكن حاجب ممن فخرت به فلم يكن حاجب عماً ولاخالا

هلافخرت بيومي رحرحان[1] وقد ظنت هوازن أن العز قد زالا

تلك المكارم لاقعبان من لبن شيبا[2] بماء فعادا بعد أبوالا

وقد روته بنو عامر له، والرواة مجمعون أنه لأبي الصلت أبي أمية بن أبي الصلت الشاعر الثقفي المشهور . قاله في سيف بن ذي يزن .

الشعراء الاسلاميون

٧ — جميل بثينة
[... — ٨٢ هـ]

هو جميل بن عبد الله بن معمر من بني عذرة . كان راوية هدبة بن خشرم يسكن في وادي القرى بالحجاز . و بثينة هي ابنة عمه ، كانت من حسان العذارى ، فعلقها وهو صغير حتى اذا كبر خطبها فرد عنها وحيل بينه و بينها فكاد يجن جنونه ، ومضى يشبب بها حتى اشتهر بها وأضيف اسمه الى اسمها ، وكان لا يصبر عنها ساعة فيأتيها الى منزلها خلسة يجتمع بها ، ولكنه لم يكن ليخلو من ارقباء ، ولا رمي يوماً بريبة ؛ ومع ذلك جمع له أهلها جمعاً ليأخذوه ، فأحس واستخفى ؛ ثم هجاهم ، فاستعدوا عليه مروان بن الحكم ، وهو على المدينة من قبل معاوية ، فنذر ليقطعن لسانه . ففر الى اليمن حتى عزل مروان ، ثم انصرف الى بلده فوجد أهل بثينة قد انتجعوا الشام ، فرحل في أثرهم ،

«١» من أيام العرب في الجاهلية — انظر ابن الاثير والعقد الفريد «٢» خلطا

فترصدوه وشكوه الى عشيرته ، فمنعه أهله وهددوه ، فانقطع عنها . ثم قدم مصر على عاملها عبد العزيز بن مروان فأكرم وفادته، وأحسن جائزته ،وأمر له بمنزل وما يصلحه ، ووعده في بثينة خيراً . غير أن الحب كان قد برح به وأذاب فؤاده فما أقام الا قليلاً حتى مات كئيباً كما عاش كئيبا .

∴

« أتاه الهوى من قبل أن يعرف الهوى * فصادف قلباً خالياً فتمكنا » حتى اذا نمى فيه ، وحاول أن يدرك وطره ، حيل بينه وبين هوى نفسه حتى أدركه اليأس يخامره حزن عميق ووجد متقد مقيم ، وناهيك بالحب واليأس اذا اجتمعا في قلب ! فهاجت هذه العوامل شاعريته ، فتفجرت كما يتفجر الينبوع عن شعر لا أكاد أستطيع تحديد ما فيه من عذوبة وجمال، وما يترك في النفس من أثر، تلمح فيه قلب العاشق الخفاق ، يوم التلاق أو غداة الفراق ، وتسمع منه أنين الآلام ، من برح الغرام وفتك لواحظ الآرام ، فيملك عليك سمعك وقلبك حتى لا تسمع الا بسمعه ولا تشعر الا بقلبه . وقد شغل جميـــلاً الحب حتى قصر شعره على هـذا الغزل العفيف فلم يجاوزه الى غيره من فنون الشعر كالمـدح والهجاء والفخر الا حيث اضطر ، وغزله يمثل سذاجة البداوة وعفة الاعراب، ولكنه اختلط أكثره على الرواة فأضافوا اليه شعر المجنون وغيره كما أضافوا الى المجنون وغيره شعره لقرب مذاهبهم في الشعر، وتشابه حياتهم في الحب : الحب البريء العفيف .

وديوان شعره كبير كان متداولاً في أيام ابن خلكان كما ذكر في « الوفيات ج ١ ص ١١٥ » ولكننا لم نقف على خبره اليوم الا طائفة منه في مجموعة ذُكر أن نسخة منها في « مكتبة برلين » . وفي دواوين الأدب جملة صالحة منه

نروي لك بعضها، ويحسن بالمتأدب استقصاؤها ليعلم أن الشعر العربي ما كان ليخلو يوماً من الجمال الذي يجحده شعوبية اليوم إما جهلاً وإما تجاهلا . . . فمن أوائل شعره في بثينة :

وأول ما قاد المودة بيننا　　بوادي بغيض يابثين سباب
وقلت لها قولاً فجاءت بمثله　　لكل كلام يابثين جواب

ومن رقيق شعره قوله يصف يأسه من لقاء بثينة ، ولوم نساء الحي إياه وتعريضهن له بحبهن ووصلهن :

أبثين إنك قد ملكت فأسجحي[1]　　وخذي بحظك من كريم واصل
فلرب عارضة علينا وصلها　　بالجد تخلطه بقول الهازل
فأجبتها بالقول بعد تستر :　　حبي بثينة عن وصالك شاغلي
لو كان في صدري كقدر قلامة[2]　　فضلاً وصلتك أو أتتك رسائلي
ويقلن إنك قد رضيت بباطل　　منها. فهل لك في اجتناب الباطل؟
ولباطل ممن أحب حديثه　　أشهى الي من البغيض الباذل
ليزلن عنك هواي ثم يصلنني　　واذا هويت فما هواي بزائل
صادت فؤادي يابثين حبالكم　　يوم الحجون[3] وأخطأتك حبائلي[4]
منيتني[5] فلويت[6] ما منيتني　　وجعلت عاجل ماوعدت كآجل
وتثاقلت لما رأت كلفي[7] بها　　أحبب الي بذاك من متثاقل!

«١» أحسني «٢» ماسقط من الظفر المقلوم
«٣» اسم موضع «٤» جمع حبالة وهى المصيدة «٥» جملت لى أمنية «٦» مطلت
«٧» حبي الشديد

وأطعت في عواذلاً فهجرتني — وعصيت فيك وقد جهدن عواذلي
حاولنني لأبت [1] حبل وصالكم — مني ، ولست وإن جهدن بفاعل
فرددتهن - وقد سعين بهجركم — لما سعين له - بأفوق ناصل [2]
يعضضن من غيظهن على أناملا — ووددت لو يعضضن صم جنادل
ويقلن : إنك يابثين بخيلة — نفسي فداؤك من ضنين باخل !

فلله أبوه ما أرق عاطفته ، وأوفاه لمن علقه ، وأبره بالعهود ؟ وكم لجميل آيات بينات تشهد على شرف عاطفته ، وتمثل شعوره الرقيق كقوله أيضاً من قصيدة :

وكأن طارقها على علل الكرى — والنجم وهناً قد دنا لتغور [3]
يستاف [4] ريح مدامة معجونة — بذكي مسك أوسحيق العنبر

∴

إني لأحفظ غيبكم ويسرني — ، إذ تذكرين بصالح،أن تذكري
ويكون يوماً لا أرى لك مرسلاً — أو نلتقي فيه علي كأشهر
ياليتني ألقى المنية بغتة — إن كان يوم لقائكم لم يقدر
أو أستطيع تجلداً عن ذكركم — فيفيق بعض صبابتي وتفكري
لو قد تجن كما أجن من الهوى — لعذرت أو لظلمت إن لم تعذر
والله ما للقلب من علم بها — غير الظنون وغير قول المخبر
لاتحسبي أني هجرتك طائعاً — حدث لعمرك رائع أن تهجري!
فلتبكيني الباكيات وإن أبح — يوماً بسرك معلناً لم أعذر
يهواك،ماعشت،الفؤادفان أمت — يتبع صداي صداك بين الأقبر [5]

«١» أقطع «٢» أنظر ص ١٦١ «٣» الطارق :الزائر ليلا ، والوهن : نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه ، والتغور :الافول «٤» يشم «٥» الصدى: جثة الانسان بعد موته

وقوله :

لها في سواد القلب بالحب منعة ... هي الموت أو كادت على الموت تشرف

وما ذكرتك النفس يابثن مرة ... من الدهر الا كادت النفس تتلف

وما استطرفت نفسي حديثاً لخلة ... أسر به الا حديثك أطرف

وقوله :

وما زلتم يابثن حتى لو انني ... من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا

اذا خدرت رجلي وقيل شفاؤها ... دعاء حبيب كنت أنت دعائيا

وما زادني النأي المفرق بعدكم ... سلواً ولا طول التلاقي تقاليا

ولا زادني الواشون الا صبابة ... ولا كثرة الناهين الا تماديا

لقد خفت أن يغتالني الموت عنوة ... وفي النفس حاجات اليك كما هيا

وإني لتثنيني الحفيظة كلما ... لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا

ألم تعلمي ياعذبة الريق أنني ... أظل اذا لم أسق ريقك صاديا

وقوله :

الا ليت ريعان الشباب[1] جديد ... ودهراً تولى يابثين يعود

فنغنى كما كنا نكون ، وأنتم ... صديق ، وإذ ماتبذلين زهيد

وما أنس ملأشياء[2] لا أنس قولها ... ، وقد قربت نضوي[3] : أمصر تريد؟

ولا قولها : لولا العيون التي ترى ... أتيتك فاعذرني فدتك جدود!

خليلي ! ما أخفي من الوجد ظاهر ... ودمعي بما أخفي الغداة شهيد

«١» أول الشباب «٢» من الاشياء «٣» بكسر النون المهزول من الابل وغيرها

الا قد أرى والله أن رب عبرة … اذا الدار شطت[1] بيننا ستزيد

اذا قلت : مابي يابثينة قاتلي … من الحب . قالت : ثابت ويزيد!

وإن قلت : ردي بعض عقلي أعش به … مع الناس . قالت : ذاك منك بعيد!

فلا أنا مردود بما جئت طالباً … ولا حبها فيما يبيد يبيد[2]

جزتك الجوازى[3] يابثين ملامة … اذا ما خليل بان[4] وهو حميد

وقلت لها : بيني و بينك فاعلمي … من الله ميثاق له وعهود

وقد كان حبيكم طريفاً وتالداً … وما الحب الا طارف وتليد[5]

و إن عروض[6] الوصل بيني و بينها ، وان سهلته بالمنى ، لصعود[7]

فأفنيت عيشي بانتظاري نوالها … وأبليت ذاك الدهر وهو جديد

فليت وشاة الناس بيني و بينها … يدوف[8] لهم سماً طماطم[9] سود

وليت لهم في كل ممسى وشارق … تضاعف أكبال لهم وقيود

وتحسب نسوان من الجهل أنني … اذا جئت إياهن كنت أريد

فأقسم طرفي بينهن فيستوي … وفي الصدر بون[10] بينهن بعيد

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة … بوادي القرى ! إني اذن لسعيد!

وهل أهبطن أرضاً تظل رياحها … لها بالثنايا القاويات[11] وئيد[12]؟

وهل ألقين سعدى من الدهر مرة … وما رث من حبل الصفاء جديد؟

وقد تلتقي الاهواء من بعد يأسة … وقد تطلب الحاجات وهي بعيد

«١» بعدت «٢» يفنى وينقطع «٣» أى أفعالك «٤» فارق «٥» جديد مستحدث وقديم موروث «٦» طريق «٧» بفتح الصاد أى صعبة «٨» الدوف : الخلط بماء ونحوه «٩» جمع طمطم وهو من فى لسانه عجمة «١٠» مسافة «١١» الخاليات «١٢» صوت عال

وهل أزجرن حرفاً علاة شملة — بخرق تباريها سواهم سود[1]
على ظهر مرهوب كأن نشوزه[2] — اذا جاز هلاك الطريق رقود
سبتني بعيني جؤذر[3] وسط ربرب[4] — وصدر كفاثور اللاجين[5] وجيد[6]
تزيف[7] كما زافت الى سلفاتها[8] — مباهية طي الوشاح ميود[9]
اذا جئتها يوماً من الدهر زائراً — تعرض منقوض اليدين صدود
يصد ويغضي عن هواي و يجتني — ذنوباً عليها إنه لعنود
فأصرمها[10] خوفاً كأني مجانب — و يغفل عنا مرة فنعود
فمن يعط في الدنيا قريناً كمثلها — فذلك عيش في الحياة رشيد
يموت الهوى مني اذا ما لقيتها — ويحيا اذا فارقتها فيعود
يقولون : جاهد يا جميل بغزوة — وأي جهاد غيرهن أريد !
لكل حديث بينهن بشاشة — وكل قتيل بينهن شهيد
ومن كان في حبي بثينة يمتري[11] — فبرقاء ذي ضال[12] عليّ شهيد
ألم تعلمي يا أم ذي الودع أنني — أضاحك ذكراكم وأنت صلود[13]

«١» الحرف : الناقة الضامرة أو المهزولة أو العظيمة ، والعلاة :الناقة المشرفة،والشملة: السريعة، والخرق : القفر ، والسواهم :جمع ساهمة وهى الناقة الضامرة «٢» نهوضه
«٣» ولد البقرة الوحشية تشبه به الحسان لجمال عينيه «٤» قطيع من بقر الوحش
«٥» الفاثور : الخوان من رخام أو فضة أو ذهب ، واللجين : الفضة
«٦» فيه أقواء لانه حركه بالكسر والقافية مضمومة ، وهو من العيوب فى الشعر
«٧» تتبختر فى مشيتها «٨» المتقدمات عليها «٩» كثيرة التمايل لقوتها ونشاطها
«١٠» أهجرها وأقطع الكلام معها «١١» يشك «١٢» اسم مكان ،والبرقاء كالابرق غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة «١٣» قليلة الخير، وقيل : صلود هنا صلبة لا رحمة فى فؤادها

٨ـ عمر بن أبي ربيعة

[٢٣ – ٩٣ هـ]

هو من بني مخزوم من قريش . ولد ليلة وفاة عمر بن الخطاب في أسرة عظيمة المجد ضخمة الثروة ، وكان أبوه عبد الله بن أبي ربيعة من أهل الذكاء والدهاء في قومه . عمل لرسول الله (ص) ثم للخلفاء الثلاثة من بعده ، فتقلب عمر في أعطاف النعيم ، وشب على قول الشعر يصف ربات الحجال ، ومضى ينفق حياته في اللهو واللذات المادية غير آبه لشؤون السياسة ، ولا مصطنع شعره في غير وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض ، حتى برع في الغزل القصصي فلم يدع امرأة يعرفها أو لا يعرفها الا تعرض لها في شعره . وكان فوق ذلك يترصد الحواج في المواسم ، ويترقب خروجهن للطواف ، فيصفهن طائفات محرمات بشعر يسبقهن الى مواطنهن لشغف الناس به وكثرة روايتهم له حتى زهدت سريات العقائل في فريضة الحج ، وضج أهل الورع والنسك ؛ ورجالات قريش تستر هذا الجهل بالحلم رعاية لنسبه منهم وطمعاً في إقلاعه من نفسه عن الغواية والرجوع الى التوبة ؛ فلم يزده ذلك الا مضياً في هذه السبيل وإيغالاً في شعابها ، وإسرافاً في التشبيب بكرائم الأسر ، وإن كان ذيله طاهراً كل الطهر من الاثم ، حتى أحفظ «عمر بن عبد العزيز» — فيما ذكر ابن قتيبة — فنفاه الى دهلك إحدى جزر البحر الأحمر ، فأخلص هناك الى الله بالتوبة وتجرد للطاعة ، ثم غزا في البحر فاحترقت السفينة فاحترق هو ومن كان معه فيها . وفي بعض الروايات — وكم للرواة من اختلاف فيما يتحدثون وينقلون — أنه مات حتف أنفه ، وأنه لما مرض مرض الموت جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً ، فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي ، والله ! ما أعلم أني ركبت

فاحشة قط ! فقال : ما كنت أشفق عليك الامن ذلك وقد سريت عني !

...

قصر عمر شعره على الغزل كما قصر حياته على اللهو والعبث والاستمتاع باللذات في ميادين الحب ، وملاعب الجمال ؛ فافتن فيه وجعله فناً خالصاً بعد أن كان وسيلة لغيره من أغراض الشعر تفتتح به القصيدة عادةً ، وتغلغل في جميع مناحيه حتى أحيا الطريقة القصصية التي انتحاها امرؤ القيس في معلقته و بعض قصائده ؛ فأرادتها الشعراء بعده فأخطأتها وتعللت بوصف الديار ، حتى جاء عمر فترسم آثاره ، وأفاض في هذا النحو من القصص الغرامي ، وجعل ذلك وكده ، وتفنن فيه ما شاء له التفنن والابداع حتى كان زعيم الغزلين فيه حقاً غير أن حظ شعره من حرارة الحب ليس بالكثير ذلك لأنه لم يكن عذرياً يحب بقلبه وإنما كان « امرأ مولعاً بالحسن لاحظ له منه الا لذة النظر[1] » فلم يستطع في حياته أن يفتح قلبه لواحدة من اللواتي أكثر من التشبيب بهن اللهم الا للثريا بنت علي فيما يظهر مما يرويه صاحب الأغاني من أحاديثها العذبة . وإنما كان يرى المظهر من مظاهر الجمال ، وهو صنع اللسان ، فيعمد الى تصويره ، ثم لا يكاد يعرض له مظهر آخر حتى يدعه وينصرف اليه ، وهو في كل ذلك أو أكثره صادق لأنه إنما يصف تأثره ولكنه تأثر خال من حرارة الحب ، لأن مصدره الحس لا القلب .

وقد كان إعجاب القدماء بشعره الى غير حد لا أكاد أستثني منهم الا المفضل فان رأيه يكاد يتفق ورأينا لولا أنه كان يضع منه ، وقد أورد رأيه المرزباني في كتابه القيم « الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء » فقال : « كان المفضل يضع

(1) من قوله :

اني امرؤ مولع بالحسن أتبعه | لاحظ لي منه الا لذة النظر

من شعر عمر في الغزل ، و يقول : إنه لم يرق كما رق الشعرآء لأنه ما شكا قط من حبيب هجراً ، ولا تألم لصد ؛ وأكثر أوصافه لنفسه ، وتشبيبه بها ، و إن أحبابه يجدون به أكثر مما يجد بهم ، و يتحسرون عليه أكثر مما يتحسر عليهم ؛ ألا تراه في هذا الشعر :

عاود القلب بعض ماقد شجاه[1] من حبيب أمسى هواه هواه
ماضراري نفسي بهجرة من ليـ ـس مسيئاً ولا بعيداً نواه
واجتنابي بيت الحبيب وما الخلـ ـد بأشهى اليّ من أن أراه

قد ابتدأه بذكر حبيب هواه هواه ، ووصف أنه هو هجره من غير إساءة واجتنب بيته مع قربه ؟ وفي غير ذلك يقول عمر «قدعرفناه وهل يخفى القمر» يصف وصفهن إياه بالحسن . . . » .

هذا رأي عالم من القدماء تخالفه منهم الأكثرية التي يكاد يمثلها حديث مصعب الزبيري الذي أتى عليه أبو الفرج في الأغاني « ج ١ ص٦١ ـ٢٤٨[2] » . وهو حديث مسهب يصف مذاهب عمر، وما ابتكره من نادر المعاني ، وابتدعه من طريف الأغراض ، ولكنه على حسنه لا يبرأ من الغموض والابهام ، ولا يسلم من الاعتساف في تحديد شخصية عمر وشرح مذاهبه .

وقد طبع ديوان عمر في ليبسك وفي مصر مشروحاً .ومن شعره في الثريا وقد تزوجت من سهيل :

أيها المنكح الثريا سهيلاً عمرك الله كيف يلتقيان
هي شامية اذا ما استقلت وسهيل اذا استقل يماني

«١» أحزنه «٢» طبعة دار الكتب المصرية

ومن جيد غزله القصصي :

ألم تسأل الأطلال[1] والمتربعا[2] ... ببطن خليات[3] دوارس بلقعا
فيبخلن أو يخبرن بالعلم بعدما ... نكأن[4] فؤاداً كان قدماً مفجعا
بهند وأتراب[5] لهند إذ الهوى ... جميع[6] وإذ لم نخش أن يتصدعا[7]
وإذ نحن مثل الماء كان مزاجه ... كما صفق الساقي الرحيق المشعشعا[8]
وإذ لا نطيع العاذلين ولا نرى ... لواش لدينا يطلب الصرم[9] مطمعا
تنوعتن[10] حتى عاود القلب سقمه ... وحتى تذكرت الحديث المودعا[11]
فقلت لمطريهن[12] بالحسن : إنما ... ضررت فهل تسطيع نفعاً فتنفعا
وأشريت فاستشرى وقد كان قد صحا ... فؤاد بأمثال المها كان موزعا[13]
وهيجت قلباً كان قد ودع الصبا ... وأشياعه[14] فاشفع عسى أن تشفعا
لئن كان ماقد قلت حقاً لما أرى ... كمثل الألى أطريت في الناس أربعا
فقال: تعال انظر، فقلت: وكيف لي؟ ... أخاف مقاماً أن يشيع فيشنعا[15]
فقال: اكتفل[16] ثم التثم وأت باغياً[17] ... فسلم ولا تكثر بأن تتورعا
فإني سأخفي العين عنك فلا ترى ... مخافة أن يفشو الحديث فيسمعا
فأقبلت أهوي[18] مثلما قال صاحبي ... لموعده أزجي[19] قعوداً موقعا[20]

«١» جمع طلل وهو الشاخص من آثار الديار «٢» المتربع : منزل القوم فى الربيع «٣» اسم موضع قرب مكة «٤» نكأ الجرح: أدماه من جديد ، ونكأ القلب :أضرمه بالحب قبل أن يخبو به الوجد «٥» جمع ترب بكسر التاء وهو القرين فى السن «٦» مجتمع «٧» يتفرق

«٨» صفق الشراب : حوله من اناء الى اناء ليصفو ، والرحيق :الخالص من الخمر ، والمشعشع : الممزوج «٩» القطيعة «١٠» بالبناء للمجهول ، من النعت وهو الوصف

«١١» المصون «١٢» من الإطراء : وهو المبالغة فى الوصف

«١٣» أشراه فاستشرى :أغراه فهاج ، وموزع : مولع «١٤» أشياع الصبا: هم اخوانه وأولياء ما فيه النزق والجنون «١٥» يقبح «١٦» اكتفل البعير: اذا أخذ كساء فعقد طرفيه ثم ألقى مقدمه على كاهله ومؤخره على عجزه ثم ركب بين العقدة والسنام ، واسم ذلك الكساء (الكفل) بالكسر «١٧» طالباً «١٨» انحدر وأعدو «١٩» اسوق «٢٠» بعيراً مذللا نهكه الركوب فكثرت آثار الدبر عليه

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت ... وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبالهن بالعرفان لما رأينني ... وقلن: امرؤ باغ أكل [1] وأوضعا [2]
وقربن أسباب الهوى لمتيم ... يقيس ذراعاً كلما قسن إصبعا
فلما تنازعنا الاحاديث قلن لي: ... أخفت علينا أن نغر ونخدعا؟
فبالأمس أرسلنا بذلك خالداً ... اليك، وبينا له الشأن أجمعا
فما جئتنا الا على وفق موعد ... على ملاءٍ منا خرجنا له معا
رأينا خلاء من عيون ومجلساً ... دميث الربا سهل المحلة ممرعا [3]
وقلنا: كريم نال وصل كرائم ... فحق له في اليوم أن يتمتعا

ومن روائعه:

أمن آل (نعم) أنت غاد فمبكر [4] ... غداة غد أم رائح فمهجر [5]
تهيم الى نعم فلا الشمل جامع ... ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر
ولا قرب نعم إن دنت لك نافع ... ولا نأيها يسلي ولا أنت تصبر
ألكني اليها [6] بالسلام فانه ... يشهر [7] الممامي بها وينكر
بآية ما قالت غداة لقيتها ... بمدفع أكنان [8]: أهذا المشهر؟
قفي فانظري أسماء هل تعرفينه ... أهذا المغيري الذي كان يذكر
فقالت: نعم لاشك غير لونه ... سرى الليل يحيي نصه والتهجر [9]

«١» أعيا تعب «٢» أسرع

«٣» الدميث: السهل اللين الموطئ، والربا: جمع ربوة وهى ما ارتفع من الارض والمرع: المخصب «٤» من الغدوة والبكرة وهما اوقت بين ظهور الفجر وطلوع الشمس

«٥» الرائح: الذى يسير فى الرواح وهو المشى، والمهجر: الذى يسير فى الهاجرة وهى وقت شدة الحر (٦) احمل اليها ألوكتى أومألكتى وهى الرسالة (٧) يذاع (٨) اسم موضع

(٩) نص السرى: اسراعه، والتهجر: السير فى الهاجرة

لئن كان إياه لقد حال بعدنا ... عن العهد ، والانسان قد يتغير

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت ... فيضحي[1] ، وأما بالعشي فيخصر[2]

أخا سفر جواب[3] أرض تقاذفت ... به فلوات ، فهو أشعث[4] أغبر

قليل على ظهر المطية ظله ... سوى ما نفى عنه الرداء المحبر[5]

وأعجبها من عيشها ظل غرفة ... وريان ملتف الحدائق أخضر

ووال كفاها كل شيء يهمها ... فليست لشيء آخر الليل تسهر

∴

وليلة ذي دوران[6] جشمني السرى ... وقد يجشم[7] الهول المحب المغرر

فبت رقيباً للرفاق على شفا[8] ... ولي مجلس لولا اللبانة[9] أوعر[10]

وبت أناجي النفس : أين خباؤها ... وكيف لما آتي من الأمر مصدر

فدل عليها القلب ريا[11] عرفتها ... لها وهوى النفس الذي كاد يظهر

فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت ... مصابيح شبت بالعشاء وأنور[12]

وغاب قمير[13] كنت أرجو غيوبه ... وروح رعيان ونوم سمر[14]

ونفضت عني النوم أقبلت مشية الـ ... حباب[15] وركني خيفة القوم أزور[16]

فحييت إذ فاجأتها فتولهت[17] ... وكادت بمكنون التحية تجهر

وقالت ، وعضت بالبنان : فضحتني ... وأنت امرؤ ميسور أمرك أعسر

«١» تصيبه الشمس «٢» يصيبه الخصر بالتحريك وهو البرد «٣» من الجوب وهو القطع «٤» مغبر الرأس «٥» المحسن الجميل «٦» موضع بين قديد والجحفة «٧» يتكلف «٨» على حذر «٩» الحاجة «١٠» من الوعورة وهي الخشونة «١١» ريح طيبة «١٢» جمع نار «١٣» عيب على عمر تصغيره للقمر «١٤» روح الرعيان : عادوا الى بيوتهم ، والسمر : الذين يتحدثون بالليل «١٥» الحية «١٦» مائل «١٧» من الوله وهو الحزن أو ذهاب العقل حزناً ، والحيرة ، والخوف .

أرَيتك إذ هنا [1] عليك ألم تخف ... رقيباً وحولي من عدوك حضر
فو الله ما أدري أتعجيل حاجة ... سرت بك أم قد نام من كنت تحذر؟
فقلت لها: بل قادني الشوق والهوى ... اليك وما عين من الناس تنظرُ
فقالت، وقد لانت وأفرخ رُوعها [2]: ... كلاك [3] بحفظ ربك المتكبر
فأنت «أبا الخطاب» غير منازع ... علي أمير ما مكثت مؤمر . . .

...

فلما تقضى الليل إلا أقله ... وكادت توالي نجمه تتغور [4]
أشارت بأن الحي قد حان منهم ... هبوب، ولكن موعدلك عزور [5]
فما راعني الامناد برحلة ... وقد لاح مفتوق من الصبح أشقر
فلما رأت من قد تثور [6] منهم ... وأيقاظهم، قالت: أشر كيف تأمر؟
فقلت: أباديهم [7] فاما أفوتهم ... وإما ينال السيف ثأراً فيثأر
فقالت: أتحقيقاً لما قال كاشح [8] ... علينا، وتصديقاً لما كان يؤثر [9]؟
فان كان مالا بد منه فغيره ... من الأمر أدنى للخفاء وأستر:
أقص على أختي بدء حديثنا ... ومالي من أن تعلما متأخر [10]
لعلهما أن تبغيا لك مخرجاً ... وأن ترحبا سرباً [11] بما كنت أحصر [12]
فقامت كئيباً ليس في وجهها دم ... من الحزن تذري عبرة تتحدر
فقامت اليها حرتان عليهما ... كساآن من خز: دمقس [13]، وأخضر
فقالت لأختيها: أعينا على فتى ... أتى زائراً والأمر للأمر يقدر

«١» بتشديد النون «٢» هدأ قلبها وخلا من الهم «٣» حفظك «٤» تغيب «٥» ثنية بين مكة والمدينة، وقيل: جبل مقابل رضوى «٦» نهض من مضجعه «٧» أجاهرهم بالعدوان «٨» مبغض «٩» ينقل «١٠» أى تأخر فهو مصدر جاء على وزن اسم المفعول «١١» تتسعا صدراً ورأياً في العمل للخلاص «١٢» من الحصر وهو الضيق.
«١٣» ديباج

فأقبلتا فارتاعتا ، ثم قالتا : أقلي عليك اللوم فالخطب أيسر
فقالت لها الصغرى: سأعطيه مطرفي ودرعي وهذا البرد إن كان يحذر [1]
يقوم فيمشي بيننا متنكراً فلا سرنا يفشو ولا هو يظهر
فكان مجني دون من كنت أتقي ثلاث شخوص: كاعبان، ومعصر [2]
هنيئاً لأهل العامرية نشرها الـ لذيذ ورياها الذى أتذكر [3]

والقصيدة طويلة اقتصرنا على شطر منها . وأكثر شعر عمر من هذا النوع وهو ذو أسلوب طريف في الأدب العربي تلذه النفس ويهواه القلب ، وإن كان قليلاً حظه من حرارة الحب ، والشعور العميق الذي نجده في شعر جميل بثينة والمجنون وغيرهما . كان عمر أبا عذرته به بدئ في هذا العصر وبه ختم ، فلم نر بعده من وفق لسلوك طريقه . وفي أيامنا هذه نزعة الى الشعر القصصي ولكن في الاجتماع لا في الغزل غير أن الاجادة ليست بميسورة والموفق نادر .

٩ ـــ الاخطل

[... ـ ٩٥ هـ]

هو غياث بن غوث بن الصلت التغلبي، ويكنى بأبي مالك. نشأ بأرض الجزيرة على النصرانية كأكثر تغلب ، وشب سليط اللسان سفيه النفس ، فهاجى وهو غلام كعب بن جعيل شاعر تغلب حتى ظهر عليه وأخمله. ولما تقاول عبد الرحمن بن حسان بن ثابت الأنصاري ويزيد بن معاوية، واستعلى الأول الثاني ـ طلب يزيد من كعب بن جعيل أن يجيبه عنه شعراً ويهجوه وقومه ، فأبى أن تلتقي شفتاه بهجاء الانصار ، ولكنه دله على الأخطل كأنه أراد أن يعرضه لفتك الانصار ، فكان

«١» المطرف : رداء من خز مربع ذو اعلام ، والدرع : من المرأة قميصها
«٢» المجن : الترس ، والكاعب : هى التى نهد ثديها ، والمعصر: التى بلغت تمام الشباب وادركت «٣» النشر : الرائحة الطيبة ومثله الريا

ذلك سبباً في سعادته واستطارة شهرته ، فان يزيد استقدمه وأمره بهجاء الأنصار على أن يصد عنه عاديتهم ، ففعل ، فغضبوا وشكوه الى معاوية ، فحكمهم فيه ، فاستوهبوه لسانه ليقطعوه ، فوهبه لهم ، ولكن يزيد توسط له وحفظ له لسانه ، وفي ذلك يقول الأخطل :

أبا خالد دافعت عني عظيمة وأدركت لحمي قبل أن يتبددا

ثم جعله في خلافته من بطانته . وعرف له الأمويون يده في نصرتهم على الأنصار وانحيازه اليهم ، فأكرموه ، ولا سيما عبد الملك بن مروان فأنه لما أفضت اليه الخلافة استعان به على قبائل قيس وشعرائها لانضوائهم الى أعدائه في السياسة من آل الزبير وغيرهم ، وزاد في إكرامه وأعلن أنه « شاعره » و« شاعر العرب » ليزداد قوة في النضح عنه ، وشدة على خصومه . ومن هنا كانت دالة الأخطل عليه ، وكان ما رووا من أنه يدخل عليه من غير إذن وعليه جبة خز ، وفي عنقه صليب ذهب ، ولحيته تنفض خمراً ، مع أن ابن مروان خليفة المسلمين ، والدين على جلاله ، والناس عليه حراص . ولكن السياسة ، وحاجة الملك الى أشياع ودعاة من ذوي اللسن والبلاغة ـ حملت عبد الملك على المناداة بأن الأخطل شاعره وشاعر العرب ، واضطرته الى قبول دالته الى ذلك الحد والى حد أن جهر بتحقير شعائر الاسلام . . .

وبينما كان عبد الملك يتظاهر بالتعصب للأخطل ويستغله لنفسه كان أخوه بشر يرى من السياسة أن يضرب الشعراء بعضهم ببعض فأغرى الأخطل ، وقد وفد عليه في العراق ، على القضاء بين جرير والفرزدق ، فعرض بتفضيل الفرزدق متأثراً برشوة بني مجاشع أيضاً ، فغضب جرير وشد عليه يهجوه فاستطار في الهجاء فقصر الأخطل عن لحاقه ، ولكنه استمر على هجائه وثبت له حتى

هلك وقد أربت سنه على السبعين .

وكان الاخطل يقيم أحياناً في دمشق عاصمة الأمويين ، وأحياناً في بلاده بالجزيرة .

وكان من غواة الخمرة ، وشديد الخضوع « لحكم الكنيسة » حتى لقد سجنته مرة لخوضه في أعراض الناس ، فدخل بعض السراة يشفع له ، فرأى أسقفاً يوعده و يرفع عليه العصا ، وهو يتضرع اليه : فقال له : يا أبا مالك ! تهابك الملوك ، وتكرمك الخلفاء ، وذكرك في الناس عظيم أمره ! فأجابه : إنه الدين ، إنه الدين !

***

وهو معدود من جبابرة شعرآء العرب ، وأحد الذين تنازعوا أمارة الشعر في العصر الأموي ، وشغل الناس بهاجاتهم والتفاضل بينهم دهراً ، وهم : جرير ، والفرزدق ، وهو ، ولكل منهم خصائص ليست في الآخر . والأخطل ماهر بمدح الملوك لملابسته لهم ، و بوصف الخمر لنصرانيته ، و بالهجاء الممتاز بقلة الهجر والبذاءة بالقياس الى هجاء صاحبيه وأمثالهما . أما سائر ضروب الشعر فليس بالمبرز فيها ، ولاسيما الرثاء فانه ليس من طبيعته حتى لقد مات يزيد بن معاوية ؛ وهو من عرفت مبلغ يده عليه ؛ فلم يستطع أن يقول في رثائه أكثر من بضعة أبيات فاترة لم يؤثر عنه في الرثاء غيرها . وقد تعثر له على شيء من النسيب والحكمة يروق كقوله :

إن الغواني إن رأينك طاوياً   برد الشباب طوين عنك وصالا

واذا دعونك عمهن فانه   نسب يزيدك عندهن خبالا

واذا وزنت حلومهن الى الصبا   رجح الصبا بحلومهن فمالا

وقوله :

النـاس همهم الحياة ولا أرى طـول الحياة يزيد غير خبـال
واذا افتقرت الى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصـالح الأعمال

على أنه مع مهارته كان يسقط أحياناً يريد الهجاء فينقلب مدحاً وبالعكس. قال يهجو رجلا:

وماجذع سوءٍ خرق السوس جوفه لما حملتـــه (وآئل) بمطيق !

فاعترضه المهجو وقال : هجوتني بزعمك فمدحتني لأنك جعلت وآئلاً حملتني أمرها وما طمعت في بني تغلب فضلاً عن بكر ، وقال يمدح رجلا :

نعم المجير « سماك » من بني أسد بالطف [1] إذ قتلت جيرانها مضر
قد كنت أحسبه قيناً [2] وأخبره فاليوم طير عن أثوابك الشرر

وهذا مدح كهجاء فان القينونة نبز كان ينبز به هذا الرجل وقومه فأراد الأخطل نفيه عنهم فأثبته عليهم . . . وما أخذ عليه من هذا النوع لا يكاد يسلم من الوقوع فيه شاعر ، وما هو بالشيء الكثير فيسقطه . والمأثور عنه أنه كثير الأناة في النظم فربما لبث في بعض مدائحه حولاً كاملا، وربما بلغت قصيدته تسعين بيتاً ثم لا يبقي منها بعد التنقيح الا نحو ثلثها ، وأثر التهذيب والصنعة واضح في شعره وضوحه في شعر زهير والنابغة وكعب والحطيئة وغيرهم من الشعراء الفنيين الذين اشتهر عنهم التأني في عمل الشعر وتنقيحه وتشذيبه قبل اذاعته ليشتد أسره ، وتستوي أجزاؤه ، و يسلم من الاضطراب .

وكان الاخطل مدلاً بنفسه تياهـاً لا يرى أحداً فوقه الا الأعشى ، وكان بشار بن برد كبير شعراء العصر العباسي يرى أنه ليس بذلك وإنما ربيعة تعصبت له وأفرطت فيه . . .

و يستجاد للأخطل قوله من قصيدة في عبدالملك بن مروان :

«١» موضع قرب الكوفة «٢» حداداً

نفسي فداء أمير المؤمنين اذا ... أبدى النواجذ يوماً عارم ذكر (١)
الخائض الغمرة (٢) الميمون طائره ... خليفة الله يستسقى به المطر
في نبعة من قريش يعصمون بها ... ما إن يوازى بأعلى بيتها الشجر
حشد على الحق (٣) عيافو الخنا (٤) أنف (٥) اذا ألمت (٦) بهم مكروهة صبروا
لا يستقل ذو والأضغان (٧) حربهم ... ولا يبين في عيدانهم خور (٨)
شمس (٩) العداوة حتى يستقادلهم ... وأعظم الناس أحلاماً اذا قدروا
هم الذين يبارون الرياح اذا ... قل الطعام على العافين (١٠) أو قتروا
بني أميــة نعماكم مجللة ... تمت فلا منة فيها ولا كدر

وقوله في يزيد :

وترى عليه ـ اذا العيون شزرنه ـ ... سيما الحليم ، وهيبة الجبار

∴

ومن هجائه قوله في جرير :

إنا نعجل بالعبيط (١١) لضيفنا ... قبل العيال ونقتل الأبطالا
يا ابن المراغة (١٢) إن عمي اللذا (١٣) ... قتلا الملوك وفككا الاغلالا (١٤)
واذا سما للمجد فرعا وائل ... واستجمع الوادي عليك فسالا

«١» النواجذ : أقصى الاضراس ، والعارم : الشديد ، والذكر : الشديد القتال
«٢» غمرة الشيء : شدته ومزدحمه «٣» سراع الاجابة لمنادى الحق
«٤» كارهون للفحش «٥» أباة ضيم «٦» نزلت «٧» الاحقاد «٨» ضعف
«٩» جمع شموس وهو الرجل الصعب الخلق
«١٠» الفقراء «١١» لحم عبيط : بين العبطة (بالضم) طرى «١٢» كنية جرير ، ويروى أبنى كليب ... وهم قوم جرير «١٣» اللذا : أصله اللذان حذفت منه النون تخفيفاً ، وهو لغة بني الحارث وبعض بني ربيعة ، وعماه هما عمرو بن كلثوم قاتل عمرو بن هند ملك الحيرة ، وعصم بن النعمان قاتل شرحبيل بن عمرو ، وقيل يعني بعميه عمراً ومرة ابني كلثوم
«١٤» القيود

كنت القذى[1] في موج أكدر مزبد ... قذف الأتي[2] به فضل ضلالا

فانعق بضأنك[3] ياجرير فانما ... منتك نفسك في الخلاء ضلالا[4]

منتك نفسك أن تسامي (دارماً) ... أو أن توازن (حاجباً) و(عقالا)

واذا وضعت أباك في ميزانهم ... قفزت حديدته اليك فشالا[5]

وقد أعاد معنى البيت الاخير فقال فى قصيدة أخرى :

قوم اذا خطرت عليك فحولهم ... جعلوك بين كلاكل وجران[6]

واذا وضعت أباك فى ميزانهم ... رجحوا وشال أبوك فى الميزان

∴

ومن وصفه للخمرة وتأثيرها في العقول :

وكأس مثل عين الديك صرف ... تنسي الشار بين لها العقولا

اذا شرب الفتى منها ثلاثاً ... بغير الماء حاول أن يطولا

مشى قرشية لاشك فيها ... وأرخى من مآزره الفضولا

وقوله في السكران :

صريع مدام يرفع الشرب[7] رأسه ... ليحيا وقد ماتت عظام ومفصل

نهاديه أحياناً وحيناً نجره ... وما كاد الا بالحشاشة[8] يعقل

ومنها في دبيبها :

تدب دبيباً في العظام كأنها ... دبيب نمال في نقا[9] يتهيل

∴

«١» مايقع فى العين وفى الشراب «٢» السيل «٣» جمع ضائن وهو خلاف المعز من الغنم

«٤» فى البيت ايطاء وهو اعادة القافية بلفظ واحد ومعنى واحد

«٥» ارتفع «٦» الكلاكل : جمع كلكل وهو الصدر ، والجران : بكسر الجيم مقدم عنق البعير من مذبحه الى منحره

«٧» بفتح الشين ' القوم يجتمعون على الشرب (بالضم)

«٨» بضم الحاء بقية الروح «٩» النقا : من الرمل القطعة تنقاد محدودبة

والأخطل ديوان مطبوع في بيروت عن نسخة عثروا عليها في بطرسبرج وذكر أن بعضهم طبعه (بالفوتغراف) عن نسخة وجدوها في بغداد ، وأن الدكتور غريفيني طبعه بالحجر عن نسخة وجدها في اليمن .

١٠ ـ كثير عزة

[... — ١٠٥ هـ]

هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن من خزاعة . ولد في الحجاز وشب في حجر عم له صالح فلما بلغ الحلم أشفق عليه أن يسفه نفسه ، إذ كان غير جيد الرأي ، فاشترى له قطيعاً من الابل ، وأنزله في جوار قوم ، فساءت عشرتهم له ، فانتقل عنهم وذمهم بشعر جرى على لسانه فمضى من يومه ذلك فيه ، وروى شعر جميل حتى اذا استحكم في النظم صار يتردد بين البادية والحاضرة : يعاشر سراة الناس ويمتدحهم فيأخذ ما يتاح له من جائزة وعطاء . وكان من البدع في أيامه أن تكون لكل شاعر خليلة يشبب بها فأراد أن تكون له خليلة فشبب بعزة بنت حميد ، وكانت فتاة بارعة في الجمال وحسن الخلق ، حتى اشتهر بها وأضيف اسمه الى اسمها ، وصار لا يعرف الا بها ، وان كان كاذباً في ادعائه حبها [1] كذبه في مذهبه السياسي . فقد شب كثير متشيعاً غالياً في تشيعه يذهب مذهب الكيسانية ، ويقدم محمد ابن الحنفية ، ويؤمن بالرجعة وتناسخ الأرواح ، ومع ذلك اتصل بالأمويين في دمشق يمدحهم ويفاخر بعشيرتهم ويتملقهم جهده

«١» ذكروا أنه مشت أمامه امرأة ظريفة المشية ، فتبعتها عينه ، فالتفتت اليه ، فعرض عليها حبه ، فقالت : كيف ذلك وقد شاع شعرك في عزة ؟ فقال : ياسيدتي ! قد كان ذلك تصنعاً ورياء ولئن أبحتني حبك ، ومنحتني حسنك ، لاصيرن في ذكراك الشعر ، ولاضربن بحسنك الامثال . فكشفت عن وجهها فاذا هي عزة . ثم قالت له : حسبك ياغادر ! فبهت كثير وانصرف وهو خزيان نادم

فينال جوائزهم وأعطياتهم ، فلم ينكر عليه بنو هاشم مدحه لبني أمية الا قليلا ، ولااستغنى الأمويون يوماً عن مدحه على علمهم بمذقه وكذبه ، بل حرصوا على استغلاله ، وغضوا الطرف عن نفاقه ، واستزادوه وأجازوه ، وأذاعوا شعره فيهم في الشام وفي العراق : لحاجتهم الى من يشيد بذكرهم ويؤيد سياستهم . . . وحين كان كثير يمدح أولئك وهؤلاء كان يخاصم الزبيريين خصوم الهاشميين والأمويين جميعاً في محمد ابن الحنفية لحبس ابن الزبير اياه ومحاولته تحريق بني هاشم . ولبث على تلك الحال حتى مات بالمدينة في خلافة يزيد بن عبد الملك .

∴

كان كثير دميماً قبيح المنظر أحمر أقيشر[1] عظيم الهامة شديد القصر حتى قال الوقاصي « رأيته يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدقه » وكان اذا دخل على عبد العزيز بن مروان يقول له هازلاً « طأطئ رأسك لايصيبه السقف ! » . وكان به غفلة وحمق فكان الظرفاء يتندرون به ويتخذونه هزؤاً فلا يشعر بهزئهم ولا يحسبهم في حديثهم الا جادين . وهو مع ذلك تياه شديد الاعجاب بنفسه ذاهب بكبريائه على الناس كأنه ليس موضع هزئهم وتندرهم ، وقد حفظ أهل النوادر من ذلك أحاديث مضحكة تجد بعضها في « الأغاني » . وهو بعد هذا شاعر فحل يستقصي المديح ، ويجيد النسيب ، ولكنه لم يبرأ من الخطل أحياناً ، ونسيبه صناعي في المذهب الراجح يعظم حظه من الاجادة فيه من حيث هو نظم لا من حيث هو حب . وللناس — بعد — مذاهب فمنهم من كان يقدمه في المدح على جرير والفرزدق ، ومنهم من يقرنه اليهما والى الأخطل والراعي ، ومنهم من يقدمه على ابن أبي

---

(١) تصغير الاقشر وهو الشديد الحمرة

ربيعة، وقيس بن الملوح، وجميل بن معمر. ولعل هذا الرأي أبعد تلك الآراء عن السداد، فشتان بين مذهبه ومذهب ابن أبي ربيعة، وبون بعيد بين نسيب صادق يمثله قيس وجميل وبين نسيب صناعي لاحب فيه ولاعاطفة أراد كثير أن يشاكه به عشاق الغزلين فما بلغ ولا قارب.

واليك قصيدة من منتخبات شعره في النسيب فوازن بينها وبين شعر عمر وجميل وقيس لتعرف قيمة هذا الرأي... قال كثير:

خليلي هذا ربع (عزة) فاعقلا[1] ... قلوصيكما[2] ثم ابكيا حيث حلت

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ... ولا موجعات القلب حتى تولت

فقد حلفت جهداً بما نحرت له ... قريش غداة (المأزمين[3]) وصلت

أناديك[4] ما حج الحجيج وكبرت ... بفيفا[5] غزال رفقة وأهلت

وكانت لقطع الحبل بيني وبينها ... كناذرة نذراً وفت فأحلت

فقلت لها: ياعز كل مصيبة ... اذا وطنت يوماً لها النفس ذلت

ولم يلق انسان من الحب ميعة[6] ... تعم، ولاغماء[7] الا تجلت

كأني أنادي صخرة حين أعرضت ... من الصم[8] لو تمشي بها العصم[9] زلت

صفوحاً[10] فما تلقاك الا بخيلة ... فمن مل منها ذلك الوصل ملت

أباحت حمى لم يرعه الناس قبلها ... وحلت تلاعاً[11] لم تكن قبل حلت

«١» عقل البعير: ثني وظيفه الى ذراعه فشدهما معا «٢» القلوص: بفتح القاف، الناقة الشابة «٣» بين عرفة والمزدلفة.

«٤» أي أجالسك من الندى والنادى «٥» بمكة «٦» أول الحب

«٧» كرباً وحزناً «٨» جمع صماء وهي التي لاصدع فيها ولاخرق

«٩» جمع أعصم وهو من الظباء والوعول مافي ذراعيه أو في أحدهما بياض وسائره أسود أو أحمر «١٠» معرضة «١١» جمع تلعة وهي ما ارتفع من الارض وما انهبط ضد، ومسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادي

فليت قلوصي عند عزة قيدت — بحبل ضعيف عز منها فضلت

وغودر في الحي المقيمين رحلها — وكان لها باغ[1] سواي فبلت[2]

وكنت كذي رجلين: رجل صحيحة — ورجل رمى فيها الزمان فشلت

وكنت كذات الظلع[3] لما تحاملت — على ظلعها بعد العثار[4] استقلت

أريد الثواء[5] عندها وأظنها — اذا ما أطلنا عندها المكث ملت

فما أنصفت، أما النساء فبغضت — اليّ، وأما بالنوال فضنت

يكلفها الغيران[6] شتمي وما بها — هواني ولكن للمليك استذلت

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر[7] — لعزة من أعراضنا ما استحلت

فوالله ما قاربت الا تباعدت — بصرم[8] ولا أكثرت الا أقلت

فان تكن العتبى[9] فأهلاً ومرحباً — وحقت لها العتبى لدينا وقلت

وإن تكن الأخرى فان وراءنا — منادح[10] لو سارت بها العيس[11] كلت

خليلي إن الحاجبية طلحت[12] — قلوصيكما وناقتي قد أكلت

فلا يبعدن وصل لعزة أصبحت — بعاقبة أسبابه قد تولت

أسيئي بنا أو أحسني لاملومةً — لدينا، ولامقلية[13] إن تقلت

ولكن أنيلي واذكري من مودة — لنا خلة كانت لديكم فطلت[14]

فاني وإن صدت لمثن وصادق — عليها بما كانت الينا أزلت[15]

فما أنا بالداعي لعزة بالجوى — ولا شامت إن نعل عزة زلت

فلا يحسب الواشون أن صبابتي — بعزة كانت غمرة فتجلت

«١» طالب «٢» ذهبت «٣» الظلع: الغمز فى المشى

«٤» فى أساس البلاغة: يوم العثار «٥» الاقامة «٦» زوجها الذى يغار عليها

«٧» مخالط «٨» قطيعة «٩» الرضى «١٠» جمع مندوحة وهى ما اتـم من الارض

«١١» الابل «١٢» أتعبت «١٣» مبغضة «١٤» هدرت «١٥» اصطنعت

فأصبحت قد أبللت من دنف بها ... كما أدنفت هيماء ثم استبلت [1]

فوالله ثم الله ما حل قبلها ... ولا بعدها من خلة حيث حلت

وما مر من يوم علي كيومها ... و إن عظمت أيام أخرى وجلت

وأضحت بأعلى شاهق من فؤاده ... فلا القلب يسلاها ولا العين ملت

فيا عجباً للقلب كيف اعترافه [2] ... وللنفس لما وطنت كيف ذلت

و إني وتهيامي بعزة بعدما ... تخليت مما بيننا وتخلت

لكالمرتجي ظل الغمامة كلما ... تبوأ [3] منها للمقيل [4] اضمحلت

كأني وإياها سحابة ممحل [5] ... رجاها فلما جاوزته استهلت [6]

فإن سأل الواشون: فيم هجرتها ؟ ... فقل : نفس حر سليت فتسلت

ومن مدحه قوله في عبد الملك بن مروان :

أحاطت يداه بالخلافة بعدما ... أراد رجال آخرون اغتيالها

فما أسلموها عنوة [7] عن مودة ... ولكن بحد المشرفي [8] استقالها

سموت [9] فأدركت العلاء وإنما ... يلقى عليات العلاء من سمالها

وصلت فنالت كفك المجد كله ... ولم تبلغ الأيدي السوامي مصالها

«١» بل من مرضه وأبل واستبل : برأ ، والدنف : المرض اللازم ، والهيماء : الناقة أصابها داء الهيام بضم الهاء وهو داء يصيب الابل من ماء مستنقع تشربه فتهيم على وجهها لاترعى .

«٢» اضطرابه «٣» نزل «٤» النوم أو الاستراحة نصف النهار «٥» أمحل : أصابه المحل وهو الجدب «٦» استهل المطر : انصب بشدة وارتفع صوت وقعه «٧» قهراً وقسراً

«٨» السيف يصنع فى مشارف الشام وهى قرى من أرض العرب تدنو من الريف .

«٩» علوت .

١١ ـــ الفرزدق
[١٩ ــ ١١٠هـ]

هو أبو فراس همام بن غالب بن صعصعة التميمي ، والفرزدق لقب غلب عليه [١] . كان أبوه من سروات قومه وله محامد مشهورة ، وجده من عظماء أهل الجاهلية يعرف بمحيي الموؤدات إذ جعل على نفسه ألا يسمع بموؤدة إلا فداها، ومصداق ذلك قول الفرزدق :

وجدي الذي منع الوائدات   وأحيا الوئيد فلم توأد

ولد الفرزدق في البصرة، وأقام في باديتها بين فصحاء قومه، ورواه أبوه الشعر ، وتدرب في القريض حتى تفتقت عنه قريحته وهو فتى في أيام عثمان بن عفان . كان من أشد الشعراء انتصاراً لبني أمية وميلاً الى عثمان وأسرته ، ولكن هذا لم يمنعه ـ وهو الفتى السليط ـ أن يدافع عمالهم في العراق و يعارض سياستهم ، فكان تارة يقع في كفهم فيحبسونه ، وتارة يتمكن من النجاء ، وفي أثناء ذلك يرحل الى خلفاء بني أمية في الشام يمدحهم فيجازونه . وقد مدح منهم معاوية وعبد الملك بن مروان وأولاده فأجزلوا له العطاء الا هشاماً فان الفرزدق مدحه فلم يسخ عليه فهجاه بشعر غضب له وحبسه من أجله ثم أطلقه . والذي يدور على الالسنة أن السبب في حبس هشام اياه قصيدة قالها في مدح علي بن الحسين وعرض فيها بهشام إذ قال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته   والبيت يعرفه والحل والحرم

وليس قولك : من هذا ؟ بضائره   العرب تعرف من أنكرت والعجم

---

(١) الفرزدق في اللغة : الرغيف الذي يسقط في التنور ، وانما لقب به لانه كان جهم الوجه متغضنه من جدري أصابه .

والتحقيق أن هذه القصيدة محمولة عليه وليست منه في ورد ولا صدر ، وقائلها إنما هو الحزين الكناني من فحول شعراء الأمويين قالها في عبدالله بن مروان ، ومن الناس من يرويها لغيره أيضاً . إذن فدعوى أن الفرزدق علوي المذهب في سياسته ساقطة . . . (١)

و بينما الفرزدق في هجائه وتعرضه للامرآء وللناس واذا بشاعر ينبغ في قومه ويعنى بمنافسته ، ذلك هو جرير ، فاضطر أن يقف له يهاجيه ، فاستطارا في الشعر وأشاعا في الناس هجر القول ، وهاج من حولها نحو سبعين أو ثمانين شاعراً يتقاذفون في سبيلهما بشعر أقل ما يقال فيه إنه مما تحظر علينا المروءة روايته ، فحل مربد البصرة وسوق الكوفة محل عكاظ ، وهنا الناس بهؤلاء عن الخصومة في الخلافة وسياسة الملك حتى انشعبوا في جرير والفرزدق الى حزبين ، يعزز كل منهما أحد الشاعرين ، وكثيراً ما كان يحتدم الجدال بين القوم حتى يفضي بهم الى الخصام العنيف . ودامت هذه المهاجاة بينهما سجالاً نحو أربعين عاماً كان لها شأن عجيب في التأريخ ، لم يسقط فيها أحدهما صاحبه حتى أهاب بالفرزدق داعي الرشاد بأخرةٍ فكف ونزع عن القذف والفسق ، و راجع طريقة الدين وان لم يكن منسلخاً منه جملةً ولا مهملاً لأمره أصلا . فقال - وهو متعلق بأستار الكعبة يعاهد الله على الاستقامة على الطريقة ، والخطاب لابليس :

ألم ترني عاهدت ربي فانني لبين رتاج قائم ومقام (٢)

« ١ » وسنعرض لتفصيل هذا في غير هذا الكتاب

« ٢ » الرتاج : غلق الباب

على حلفة لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً[1] من في زور كلام
أطعتك يا ابليس سبعين حجة فلما انتهى عمري وتم تمامي
فزعت الى ربي وأيقنت أنني ملاق لأيام المنون حمامي

وتوفي بالبصرة بمرض ذات الجنب.

∴

وقد كان مدلاً بنفسه، فخوراً بآبائه، لا ينفك يسامي بهم الناس بل يتحدى بهم مناوئيه ومنافسيه، كقوله لجرير:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم اذا جمعتنا يا جرير المجامع

وقد يغرب في الفخر حتى يفضي به الى الاحالة الفاسدة كقوله:

انا ابن (خندف[2]) والحامي حقيقتها قد جعلوا في يدي الشمس والقمرا
أخذنا بآفاق السماء عليكم لنا قمراها والنجوم الطوالع
إن السماء التي من (دارم[3]) خلقت والأرض كانا لنا عزاً ومفتخرا

وربما افتخر بهم في مدحه للخلفاء حتى يؤدي الى حرمانه الجائزة وإحالته على الأموات من آبائه. ولهاتين الخلتين في غريزة الفرزدق «القذف، والخيلاء» غلب على شعره الفخر، والهجاء المفرط في الاقذاع. وله بعد ذلك وصف بديع، ومدح جيد. أما الرثاء فلا يدله فيه كصاحبه الأخطل، وله سوائر كثيرة، منها:

«١» وضع اسم الفاعل موضع المصدر وأراد لا اشتم الدهر مسلماً ولا يخرج خروجاً من في زور كلام لانه على ذا اقسم، والمصدر يقع في موضع اسم الفاعل أيضاً يقال ماء غور أي غائر. هذا تأويل المبرد، ونقل عن عيسى بن عمرو: أن قول الفرزدق «لا أشتم» حال. فاراد عاهدت ربي في هذه الحال وأنا غير شاتم ولا خارج من في زور كلام، ولم يذكر الذي عاهد عليه - الكامل للمبرد «٢–٣» قبيلتان

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً لصاحبه يوماً أحال على الدم

قوارص [1] تأتيني وتحتقرونها وقد يملأ القطرُ الأناء فيفعم [2]

ليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزرا مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

أقول له لما أتاني نعيه : به لا بظبي بالصريمة أعفرا [3]

فيا عجبا حتى (كليب) تسبني كأن أباها (نهشل) و(مجاشع)

وكنا اذا الجبار صعر [4] خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع [5]

أما أسلوبه فهو أشبه بأساليب البادين ضخامةألفاظ ،وفخامةتراكيب قدلاتخلو من تعقيد وتعاظل ،ولكن شيوخ اللغة والنحو معجبون بشعره وان كان يتعبهم ولم يبلغوا من بعضه ما يقنع ويرضي ، ويرون أنه لولا شعرهُ لذهب ثلث العربية لا أكاد أستثني منهم في ذلك الا الأصمعي فانه كان يتحامل عليه تحاملاً شديداً ، ويزعم أن تسعة أعشار شعره سرقة ، والمحققون لايشكون أن الفرزدق قد أغار على بعض الشعراء في أبيات معروفة فأما أن تسعة أعشار شعره سرقة فهذا محال أراد الأصمعي - فيما أرى - أن يطفئ به غلته من حرارة هجاء الفرزدق لعشيرته باهلة . وقد ادعى عليه قرينه جرير السرق فقال :

سيعلم من يكون أبوه فينا ومن عرفت قصائده اجتلابا

كما ادعى الفرزدق عليه فقال :

ان استراقك ياجرير قصائدي مثل ادعائك سوى أبيك تنقل

وتهون هذه الدعوى بجانب ما كان يتهم به أحدهما الآخر أمه وأخته بأقبح

«١» جمع قارصة وهي الكلمة المؤلمة «٢» يملأ «٣» الصريمة القطعة الضخمة المنقطعة من معظم الرمل ، والاعفر : من الظباء الابيض في غبرة

«٤» أمال «٥» جمع أخدع وهو شعبة من الوريد .

السوءات ، وأشنع الرذائل الى غير ذلك مما تأباه المروءة، ولا يقره الوازع . . . وانا لنقتصر هنا على رواية بعض الامثلة من هجاء الفرزدق مما يبرأ من الهجر وفحش القول . . .

قال من قصيدة يهجو بها جريراً ، ويرد عليه هجاءه الأخطل :

ما ضر تغلب وآئل أهجوتها ... أم بلت حيث تناطح البحران
قوم هم قتلوا (ابن هند) عنوة ... (عمراً) وهم قسطوا على (النعمان)

وقال فيه أيضاً :

فان تك كلباً من (كليب) فانني ... من (الدارميين) الطوال الشقاشق
هم الداخلون البيت لاتدخلونه ... على الملك والحامون عند الحقائق
ونحن اذا عدت (معد) قديمها ... مكان النواصي من وجوه السوابق

وقال يهجو كليباً قوم جرير :

ولو ترمى بلؤم بني كليب ... نجوم الليل ما وضحت لساري
ولو لبس النهار بني كليب ... لدنس لؤمهم وضح النهـــار
وما يغـدو عزيز بني كليب ... ليطلب حاجـة الابجـار

ومن روائع فخره :

لنا العزة العقساء[1] والعدد الذي ... عليه اذا عـد الحصى يتخلف
ومنا الذي لا ينطق الناس عنده ... ولكن هو المستأذن المتنصف[2]
تراهم قعوداً حـوله وعيـونهم ... مكسرة أبصارهـا ما تصرف
وبيتان : بيت الله نحن ولاته ... وبيت بأعلى إيليـاء مشرف

«١» الثابتة «٢» المخدوم .

ترى الناس ما سرنا يسيرون خلفنا … وإن نحن أومأنا الى الناس وقفوا[1]

ولا عز الا عزنا قاهر له … ويسألنا النصف الذليل فننصف

وما حل من جهل حبا[2] حلمائنا … ولا قائل المعروف فينا يعنف

وما قام منا قائم في نديِّنا … فينطق الا بالتي هي أعرف

هم يعدلون الأرض لولاهم التقت … على الناس أو كادت تميل فتنسف

وانك إذ تسعى لتدرك شأونا[3] … لأنت المعنى يا جرير المكلف

ومنه في مدح أبيه، وقد أنشده سليمان بن عبد الملك الأموي حين استنشده فغضب عليه :

وركب كأن الريح تطلب عندهم … لها ترة[4] من جذبها بالعصائب

سروا يخبطون الليل وهي تلفهم … الى شعب الأكوار من كل جانب

اذا آنسوا ناراً يقولون : ليتها، … وقد خصرت[5] أيديهم، نار غالب

وللفرزدق ديوان طبع بمصر في جملة الدواوين الخمسة (للنابغة وعروة وحاتم وعلقمة والفرزدق)، وطبع وحده في باريس مع ترجمة لبوشر.

١٢ — جرير
[٤٢ — ١١٠ هـ]

هو أبو حزرة جرير بن عطية بن الخطفى التميمي . ولد باليمامة لسبعة أشهر في أوائل خلافة معاوية . ونشأ بالبادية، وشب يقرض الشعر الجيد . وكان يتردد الى البصرة يمتار لأهله، ويمتدح الأجواد، فاستهواه ما رأى الفرزدق عليه من المكانة والجاه لدى الأمراء وسراة الناس، والنعيم الذي يخطر في حلله السابغة

---

(١) يعزى هذا البيت الى غير الفرزدق أيضاً انظر الموشح ص١٠٩

(٢) جمع حبوة وهي ثوب يحتبي به والاحتباء أن يجمع الرجل ظهره وساقيه بثوب، وقد يحتبي بيديه (٣) الشأو : الغاية والامد (٤) الترة : الثأر (٥) من الخصر وهو البرد .

بفضل الشعر ، وهو تميمي مثله ، فود لو يبلغ ما بلغه ، بل نفس ذلك عليه ، فحمله الحسد على مزاحمته ، فاستطارا في الهجاء حتى هجر جرير البادية واستوطن البصرة ليناقضه من كثب ، ولج الهجاء بينهما نحواً من أربعين سنة لم يتغلب واحد منهما على صاحبه ، و وفد وهو شاب الى الشام فتعرف الى يزيد بن معاوية وهو أمير فاستحسن شعره ، واقتبس منه أبياتاً في العتاب أنفذها الى أبيه وفارق معاوية الدنيا وهو يحسب أنها لابنه ، فلما صارت الخلافة الى يزيد وفد عليه ثانية وأمر له بجائزة فكانت أول جائزة أخذها من خليفة . ثم لما أفضت الى عبد الملك بن مروان حذر أن يفد عليه لغضبه على شعراء مضر لاتصالهم بآل الزبير أعدائه السياسيين ، فاحتال حتى قدم على الحجاج بن يوسف الثقفي — وهو أمير العراقين من قبل عبد الملك — بوساطة بعض عماله ، فأعجب ببلاغة شعره وحظي عنده ، ثم أنفذه الى عبد الملك مع ابنه محمد بن الحجاج ، فلما دخل عليه استأذنه في الانشاد ، فأبى ، فشفع له محمد، فأذن له ، فأنشده قصيدته التي يقول فيها :

ألستم خير من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح ؟

فأجازه عليها بمائة لقحة وثمانية رعاء كما أشار الى ذلك في جملة قصيدة يمدح بها يزيد بن عبد الملك وهو خليفة :

أعطوا هنيدة[1] تحدوها ثمانية   ما في عطائهم من ولا سرف

وصار من يومئذ من أكثر الشعراء ايثاراً عند خلفاء بني أمية لا أكاد استثني منهم إلا الامام العادل الجليل عمر بن عبد العزيز فانه لم ير للشعراء حقاً في العطاء . . . فأذكى ذلك نيران الحسد في قلوب منافسيه ، فشدوا عليه ينهشونه

---

(١) اسم علم على مائة من الابل

والفرزدق من ورائهم يحرضهم ويغريهم بالمال حتى تألب عليه نحو ثمانين شاعراً يقارعونه ، فظهر عليهم جميعاً الا الفرزدق والأخطل فانهما ثبتا له يجاذبانه برد الغلبة ، ودامت بينهم هذه المهاجاة سجالاً حتى مات الأخطل[1] ، فانفرد جرير بالفرزدق ، ثم نزع الفرزدق عن مهاجاته بأخرة ، وتاب وتنسك ومات بعد ذلك بقليل ، فلم تمض عليه بضعة أشهر حتى لحقه جرير ودفن باليمامة حيث قبر الأعشى .

***

وهو على خوضه في الأعراض متجمل بخلال لم تكن في صاحبيه : من عفة الازار ، وصحة الدين ، ورقة الشمائل ، وصفاء الطبع . لذلك كثر أشياعه من الناس ، واستطاع أن يثبت لخصومه على كثرة عددهم وعددهم التي كانوا يجهزون بها عليه . وقد ظهر ذلك واضح الاثر في شعره فامتاز بصفاء الديباجة وجمال الاسلوب ، وبشاشة المعاني ، واستواء الأطراف ، مع كثرة التصرف في فنون الشعر : من رقة التشبيب الى نصاعة المديح ، الى حرارة الرثاء ، الى مرارة الهجاء ، الى اصابة التشبيه والجد والهزل وحسن التهكم . لذلك فضله فحول النقاد على صاحبيه : الأخطل والفرزدق ، وقطعوا بأنه أجمع شعراء عصره لصفات الشاعر . وحسبك أن بشار بن برد ، وهو رئيس طبقة المحدثين وقد أدرك جريراً وهجاه ، كان من أصحاب هذا الرأي على استصغار جرير لشأنه وإعراضه عنه . ونحن على بعدنا عن عصره ، وخلونا مما يتصرف بالنفوس من الأهواء والمؤثرات التي تغمر الحاسة الفنية وتحمل على إصدار الأحكام الجائرة في الموازنات — نذهب مذهبه ونرى أن جريراً أجمع من صاحبيه لصفات

---

(١) وقد كان متصراً عن اللحاق به

الشاعر، وإن امتازا ببعض المميزات .

والناس — بعد — نزعات كثيرة واختلاف عظيم في أيهم أشعر لو ذهبنا نورد ذلك لخرجنا عن حدود الايجاز الذي هو شرط هـذا المختصر. فيحسن بك أن تلتمسه في دواوين الأدب لتتبين ما كان لهؤلاء الشعراء من الأثر في حياة المجتمع يومئذ، ولتعرف كيف استطاع الأمويون أن يشغلوا بهم الناس، ويلعبوا أدوارهم السياسية، إن صح هـذا التعبير. إلتمس ذلك في الاغاني : في ترجمة الأخطل وجرير والفرزدق والراعي فانك ستصيب فيها شيئاً كثيراً تلتذ به وتستفيد منه. على أني أحب أن أقفك على قصيدة رائعة في الحكم بين جرير والفرزدق ولكن بعد أن أزودك بشيء من مختار شعر جرير لتتبين أسلوبه وتعرف طابعه .

فمن أمثلة هجائه قوله من قصيدة في الأخطل :

أنسيت يومك بالجزيرة بعدما ... كانت عواقبه عليك وبالا

حملت عليك حماة قيس خيلها ... شعثاً عوابس تحمل الأبطالا

مازلت تحسب كل شيء بعدهم ... خيلاً تكر عليكم ورجالا

قال الأخيطل إذ رأى راياتهم: ... يا (مارسرجس) لانريد قتالا

ولو أن تغلب جمعت أنسابها ... يوم التفاضل لم تزن مثقالا

لاتطلبن خؤولة في تغلب ... فالزنج أكرم منهم أخوالا

والتغلبي اذا تنحنح للقرى ... حك استه وتمثل الأمثالا

ومن مشهور هجائه (الدامغة) التي هجا بها الراعي النميري إذ فضل عليه الفرزدق متأثراً برشا أنصاره؛ فثار ثائره، وأقسم لاينام حتى يخزي الراعي،

فذهب الى غرفته، وطلب الى راويته زيادة الزيت في المصباح، وأخذ يشرب ويهمهم حتى الفجر فقال قصيدته المشهورة التي يقول في مطلعها:

أقلي اللوم عاذل والعتابا ... وقولي، إن أصبت: لقد أصابا

وأبلغ ما فيها من الفخر والهجاء:

اذا غضبت عليك بنو تميم ... حسبت الناس كلهم غضابا

فغض الطرف إنك من نمير ... فلا كعباً بلغت ولا كلابا

وقد لا يفطن المرء الى موضع الهجاء في هذا البيت اذا لم يعلم أن كعباً وكلاباً ونميراً أبطن من عامر بن صعصعة من قيس، فجرير فضل كعباً وكلاباً على نمير مع أنهما أخواه بأسلوب بلغ من شدة التأثير في نفوس العرب أن لم يسمعه أحد منهم يومئذ الا قال «لا يفلح النميري بعد ذلك أبداً» فأسقط بني نمير بعد أن كانوا يذهبون بنسبهم على الناس حتى صاروا في البصرة ينتسبون الى عامر بن صعصعة ويتجاوزون أباهم نميراً الى أبيه هرباً من ذكر نمير وفراراً مما وسم به من الفضيحة والعار، مع أن جريراً لم يفحش ولم يرفث، وهذا أقصى ما يوفق له البليغ. ويقال إن جريراً لما قال هذا البيت أطفأ سراجه ونام، وقال: قد والله أخزيتهم آخر الدهر!

ومن نقائضه[1] مع الفرزدق قوله من جملة قصيدة طويلة: يحذر أهل المدينة لارتكابه الاثم، ومجاهرته به في الشعر:

---

(١) طبع هذه النقائض (Anthony Ashley Bevan m,a) بليدن في مجلدين عظمين هذا الفهرس بعنوان (نقائض جرير والفرزدق)

لقـد ولدت أم الفرزدق فاجراً   فجاءت بوزار (١) قصير القوادم

يوصل حبليه اذا جن ليله   ليرقى الى جاراته بالسـلالم (٢)

تدليت تزني من ثمانين قامـة   وقصرت عن باع العلى والمكارم

هو الرجس ياأهل المدينة فاحذروا   مداخل رجس بالخبيثات عالم

لقد كان إخراج الفرزدق عنكم   طهوراً لما بين (المصلى) و (راقم) (٣)

...

ومن رقيق شعره قوله من قصيدة متغزلاً :

ما كنت أول مشتاق أخا طرب   هاجت له غدوات البين أحزانا

يا أم عمرو جزاك الله مغفرة   ردي علي فـؤادي كالذي كانـا

يلقى غريمكم من غير عسرتكم   بالبذل بخلاً وبالاحسان حرمانا

لا بارك الله في الدنيا اذا انقطعت   أسباب دنياك من أسباب دنيانا

ما أحدث الدهر مما تعلمين لكم   للحبـل صرماً ولا للعهد نسيانا

يارب عائذة بالغور لو شهـدت   عزت عليها (بدير اللج) شكوانا

إن العيون التي في طرفها حور (٤)   قتلننـا ثم لم يحيـين قتلانـا

يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به   وهن أضعف خلق الله إنسانـا

...

ويستجاد له قوله من قصيدة يرثي بها زوجه:

لولا الحياء لهاجني استعبار (٥)   ولزرت قـبرك والحبيب يزار

ولهت قلبي إذ علتني كبرة (٦)   وذوو التمائم من بنيـك صغـار

«١» من الوزر وهو الاثم (٢) جمع سلم وهو المرقاة (٣) راقم: من حصون المدينة «٤» شدة سواد المقلة في شدة بياضها (٥) استعبرت عبرته: جرت دموعه (٦) بفتح الكاف الكبر والضعف.

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا   ليل يكر عليهم ونهار
صلى الملائكة الذين تخيروا   والطيبون عليك والابرار
فلقد أراك كسيت أحسن منظر   ومع الجمال سكينة ووقار

∴

ومن جيد العتاب قوله من قصيدة يناقض بها الفرزدق ويعاتب جده الخطفى:

وإني لمغرور أعلل بالمنى   ليالي أرجو أن مالك ماليا
فأنت أبي مالم تكن لي حاجة   فان عرضت أيقنت أن لا أباليا!
بأي نجاد[1] تحمل السيف بعدما   قطعت القوى من محمل كان باقيا؟
بأي سنان تطعن القوم بعدما   نزعت سناناً من قناتك ماضيا؟
ألم أك ناراً يصطليها عدوكم   وحرزاً لما ألجاتم من ورائيا[2]؟
وباسط خير فيكم بيمينه   وقابض شر عنكم بشماليا
اذا سركم أن تمسحوا وجه سابق   جواد فمدوا وابسطوا من عنانيا

∴

ومن مقلداته وسوائره:

تعدو الذئاب على من لا كلاب له   وتتقي صولة المستأسد الضاري
وابن اللبون اذا مالز في قرن   لم يستطع صولة البزل القناعيس[3]
لا يأمنن قوي نقض مرته[4]   إني أرى الدهر ذا نقض وإمرار
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً   والنفس مولعة بحب العاجل
زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً[5]   أبشر بطول سلامة يا مربع

(١) علاقة السيف ،ومثله المحمل على وزن منبر (٢) الحرز : الملجأ والموضع الحصين
(٣) ابن اللبون : ولد الناقة اذا كان فى العام الثانى واستكمله أو اذا دخل فى الثالث ولز : شد ، والقرن : الحبل ، والبزل: جمع بازل وهو الجمل اذا كان فى تاسع سنيه . والقناعيس: جمع قنعاس وهو العظيم (٤) المرة : القوة (٥) راوية جرير .

واليك القصيدة التي وعدناك بها ؛ وهي للصلتان العبدي قالها في الحكم بين جرير والفرزدق:

أنا الصلتاني الذي قد علمتمُ ... متى ما يحكم فهو بالحق صادع
أتتني تميم حين هابت قضاتها ... فاني لبا لفصل المبين قاطع
كما أنفذ الأعشى قضية عامر[1] ... وما لتميم في قضائي رواجع
ولم يرجع الأعشى قضية جعفر ... وليس لحكمي آخر الدهر راجع
سأقضي قضاء بينهم غير جائر ... فهل أنت للحكم المبين سامع ؟
قضاء امرئ لا يتقي الشتم منهم ... وليس له في المدح منهم منافع
قضاء امرئ لا يرتشي في حكومة ... اذا مال بالقاضي الرشا والمطامع
فان كنتما حكمتماني فأنصتا ... ولا تجزعا وليرض بالحكم قانع
فان تجزعا أو ترضيا لا أقلكما ... وللحق بين الناس راض وجازع
فأقسم لا آلو عن الحق بينهم ... فان أنا لم أعدل فقل أنت ظالع
فان يك بحر الحنظليين واحداً ... فما تستوي حيتانه والضفادع
وما يستوي صدر القناة و زجها[2] ... وما يستوي شم الذرا والأجارع
وليس الذنابى كالقدامى وريشه ... وما تستوي في الكف منك الأصابع
الا إنما تحظى (كليب)[3] بشعرها ... وبالمجد تحظى (دارم) و(الأقارع)[4]
ومنهم رؤوس يهتدى بصدورها ... والاذناب قدماً للرؤوس توابع

(١) أنظر تفصيلها في الاغاني (٢) الزج: الحديدة في اسفل الرمح، والاجارع جمع أجرع وهو الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل (٣) قبيلة جرير (٤) من بني تميم

أرى الخطفى[1] بذ الفرزدق شعره ... ولكن خيراً من كليب مجاشع
فيا شاعراً لا شاعر اليوم مثله ... جرير ولكن في كليب تواضع
جرير أشد الشاعرين شكيمة ... ولكن علته الباذخات الفوارع[2]
ويرفع من شعر الفرزدق أنه ... له باذخ لذي الخسيسة رافع
وقد يحمد السيف الددان[3] بجفنه ... وتلقاه رثاً غمده وهو قاطع
يناشدني النصر الفرزدق بعدما ... ألحت عليه من جرير صواقع
فقلت له : إني ونصرك كالذي ... يثبت أنفاً كشمته الجوادع[4]
وقالت كليب : قد شرفنا عليكم ... فقلت لها: سدت عليك المطالع[5]

١٣ـــ مجنون ليلى
وفن القصص الروائي

لم يختلف أهل الأخبار في شيء اختلافهم في المجنون وليلاه . فقد اختلفوا في اسمه وعشيرته ، وفي صفته وحياته ، ثم في وجوده وعدم وجوده . . .

فهو قيس بن الملوح أو قيس بن معاذ ؛ من بني جعدة بن كعب بن سعد ابن عامر، أو من بني عقيل بن كعب بن سعد بن عامر .. .وقد زعموا أنه كان هو وليلى يرعيان البهم ، وهما صبيان، فعلقها علاقة الصبا، ثم نشأ وكان يجلس معها ويتحدث في ناس من قومه، وهو ظريف جميل راوية للشعر حلو الحديث ، فكانت تعرض عنه وتقبل بالحديث على غيره حتى شق ذلك عليه وعرفته...

«١» كنية جد جرير ، والشاعر عنى جريراً
«٢» يلاحظ أنه يذهب مذهب من يفضل الشعر بقائله . وهو أحد مذاهب القدماء المعروفة فى اختيار الشعر ، وقد ألم بها أبو طاهر محمد بن حيدر البغدادى فى كتابه (قانون البلاغة) الذى نشره المجمع العلمى العربى بدمشق فى مجلته م٧ «٣» هو الكهام والقطاع ضد
«٤» استأصلته القواطع «٥» يحدثنا ابن سلام بأن الشاعرين لم يرض واحد منهما هذا الحكم . . . أنظر طبقات الشعر .

ثم تمادى به الأمر حتى ذهب عقله ، وهام مع الوحش ، وصار لا يلبس الا خرقة، ولا يعقل الا أن تذكر له ليلى . وقيل : بل إنه لم يعرفها منذ الصبا ، و إنما كان زير نسآء ، وكانت ليلى أجمل الفتيات منظراً وأحسنهن حديثاً، فكانت نساء الحي يختلفن اليها و يجاذبنها أطراف الاحاديث ، فسمع بها قيس فاختلف الى مجالسها فكان الحب ، قالوا : فلما شهر أمرها وتناشد الناس شعره فيها خطبها و بذل لها خمسين ناقة حمرآء ، وخطبها غيره و بذل لها عشراً و راعيها،فلما خيرها أهلها بينهما اختارت الآخر عليه وتزوجته على كره منها، فكان ما كان من جنونه [1]

وأنكر الاصمعي جنونه فقال « لم يكن مجنوناً و إنما كانت به لوثة كلوثة أبي حية النميري » و زعم بعضهم أنه إنما دعي المجنون لشعر قاله وفيه لفظ المجنون . . . الى غير ذلك من الروايات المتخاذلة بتضاربها .وكل هذا ، وهو بعض أخباره ، مما يبعث في النفس الارتياب في شأنه لذلك اتخذ بعضهم هذا التضارب دليلاً على عدم وجوده . بل أنكر ناس من القدماء وجوده من غير أن يلتفتوا الى تضارب الروايات [2] ، فقد حكى الرياشي عن الأصمعي أنه سمعه يقول « رجلان ما عرفا في الدنيا قط الا بالاسم مجنون بني عامر وابن القرية ، و إنما وضعهما الرواة » . وقال ابن الكلبي ، وهو ممن لا يوثق بحديثهم [3] «إن حديثه وشعره وضعه فتى من بني أمية كان يهوى ابنة عم له ،وكان يكره أن يظهر ما بينه و بينها، فوضع حديث المجنون،وقال الأشعار التي يرويها للمجنون ونسبها اليه » . ور بما أيد هذا أن كثيراً من أشعاره المذكورة في أخباره تروى لغيره من المجودين

«١» وحكى الرياشي عنه أنه كان ينكر وجوده كما سيأتي ، فتدبر .

«٢» على أنني أشك أيضاً في صدق الروايات التي تنكر وجود المجنون : لأن بعضها متضارب كروايتي الاصمعي السابقة واللاحقة ، وبعضها راويه كذاب أشر لا يوثق بحديثه كابن الكلبي «٣» أنظر ص ٥٧

في الغزل أمثال أبي صخر الهذلي ، و يزيد بن الطثرية . . . و يقول الجاحظ: « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل في ليلى الا نسبوه الى المجنون، ولا شعراً هذه سبيله الا نسبوه الى قيس بن ذريح » .

إذن فالمجنون وليلاه هما ـ على هذا ـ « بطلان خياليان » يمثلان في « مسارح الخيال » رواية غرامية موضوعة تمثل العشق العفيف ، وشعائر المحبين ، في أوآئل عصور الاسلام . على أنه ليس بالبعيد أن يكون المجنون وليلاه وجدا حقاً وتعاشقا فدون الفتى الأموي العاشق ـ اذا صدق ابن الكلبي ـ سيرتهما ، وزاد فيهاما اقتضاه تمثيل شعوره وغرامه وآلامه كما فعلوا بقصة عنترة العبسي... وسوآء أ كان المجنون قد وجد أم لم يوجد فان الذي يعنينا أن نعرفه إنما هو ظهور هذا الفن القصصي الروائي في اللغة العربية أيام بني أمية بالحجاز ، واتجاه القوم الى الحفل بهذه الناحية من نواحي الأدب التي تستمد مادتها من الحياة لتمثيل ألوان المعاش . وهذه القصة مرآة وضاءة تلتمس فيها صورة حياة الطبقة العليا من المترفين وأهل الثراء في الحجاز وماحوله. إذ انصرفوا الى الغزل واللهو والمجون ، واستقلوا بهذا النوع من الحياة التي لم تتأثر بها الشام ومصر والعراق حتى تغيرت سياسة الدولة ، وقطعت الأموال عن الحجاز ، وشعر ذووه بالفقر وضعف الثروة ، فانصرفوا عن اللهو والغزل والمجون ، الى الجد والتحرج والدين. وهي ـ كما تقدم ـ تمثل العشق البرئ ، وتصف حب رجل يسمى (قيساً) لفتاة علقها صبياً ، ثم حيل بينه و بينها وتزوجت من غيره ، فأداه ذالك الى الجنون ، وعاش مضطرب الحياة : بين مرض وإغماء، واستئناس بالوحش ، وإلف للفلوات ، حتى فارق الدنيا. تصف ذلك كله بضرب من المبالغة التي تنتهي أحياناً الى الاحالة والسخف في الاختراع يتخللها شعر صادراً كثره من عاشق عذري

صادق اللهجة ، و بعضه بين الصنعة فاتر متكلف لا يرضاه شاعر لنفسه يجد في الحب لذة وألماً ، ولها — بعد — حظ عظيم من جمال اللفظ، وطلاوة الأسلوب، ومتانة التركيب مما يقل نظيره عند أبناء الفصحاء ، و بلغاء الأدباء .

∴

ومن بديع ما ينسب الى المجنون قوله يصف تعلقه بليلى منذ الصغر :

تعلقت ليلى وهي ذات ذؤابة [1] ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجم
صغيرين نرعى البهم [2] ياليت أننا ... الى اليوم لم نكبر ولم تكبر البهم

وقوله يناجيها :

وخبرك الواشون أن لن أحبكم ... بلى وستور الله ذات المحارم
أصد وما الصد الذي تعلمينه ... شفاءً لنا الا اجتراع العلاقم
حياء و بقيا أن تشيع نميمة ... بنا و بكم ؛ أف لأهل النمائم !
و إن دماً لو تعلمين جنيته ... على الحي جاني مثله غير سالم
أما إنه لو كان غيرك أرقلت [3] ... اليه القنا [4] بالراعفات [5] اللهاذم [6]
ولكن لعمر الله ما كل مسلم ... كغر الثنايا واضحات المعاصم [7]
اذاهن ساقطن الحديث لذي الهوى ... سقاط حصى المرجان من كف ناظم
رمين فأقصدن [8] القلوب فلم تجد ... دماً مائراً [9] الاجوى في الحيازم [10]

«١» ضفيرة الشعر المرسلة «٢» بفتح الباء ، أولاد الضأن والمعز «٣» أسرعت

«٤» الرماح «٥» من رعف الانف اذا سبق دمه «٦» جمع لهذم وهو القاطع من الاسنة «٧» جمع معصم وهو موضع السوار من اليد «٨» أصبن «٩» منصباً متردداً

«١٠» الجوى : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن ، والحيازم : جمع حيزوم وهو الصدر .

١٤ ـ الكميت بن زيد (*)

[٦٠ — ١٢٦ هـ]

هو من بني أسد ، و ينتهي نسبه الى مضر بن نزار بن عدنان . ولد بالكوفة ، ونشأ في قومه معلم صبيان ، وكان ذكي الفؤاد فثقف لغات العرب وأيامها وأنسابها بمشافهة الأعراب حتى كان من أعلم أهل زمانه ، وقرض الشعر ، وهو غلام ، ومضى يتكسب بمدح الولاة والأعيان ، ونظم قصائده « الهاشميات » يمدح بها آل علي ، ويحتج لهم . على أنه لما نالهم حكيم الكلبي شاعر اليمانية بالهجاء ، وأغري به للنضح عنهم ـ اعتذر وامتنع حتى أسمع بجاءه في بنات عمه وخاله ، فحمي أنفه وهجاه وهجا اليمانية جمعاء ؛ وكان خالد بن عبد الله القسري والي العراق من اليمانية ، فغضب وسعى به الى هشام بن عبد الملك وأبلغه شعره في ذم بني أمية ومدح بني هاشم ، فأمره بقطع لسانه ويده ، فقبض عليه خالد وأودعه السجن ، فاحتال للفرار بواسطة زوجه (حبي) إذ دخلت عليه ، فتنقب نقابها ولبس ثيابها ، ثم خرج هارباً ومر بالسجان ، فظن أنه المرأة ، فلم يعرض له ، فنجا و بقي متوارياً حتى أيقن أن الطلب قد خف عنه ، فسار الى الشام ولاذ بقبر معاوية بن هشام ، ومشت رجال قريش الى عنبسة ليكلم فيه مسلمة بن هشام فدخل مسلمة على أبيه وما زال به حتى استل سخيمته . . . ودخل الكميت عليه وارتجل بحضرته خطبة رائعة ، وقصيدة يعتذر بها و يعلن توبته من التشيع لآل علي ، فعفا عنه ، وأمر له بجوائز وعطايا جزيلة ، وكتب الى خالد بأمانه وأمان أهل بيته وأنه لا سلطان له عليهم ، فرجع الى الكوفة ،

« * » من يقال لهم الكميت من الشعراء ثلاثة : الكميت بن ثعلبة ، وحفيده الكميت ابن معروف ، والكميت بن زيد . قال ابن سلام في طبقات الشعراء ٧٥ : « والكميت بن معروف أشعرهم قريحة ، والكميت بن زيد أكثرهم شعراً » .

وعاد الى شنشنته يهجو اليمانية متذرعاً الى ذلك بفخره ببني أمية ؛ وكان قريعه حكيم الكلبي ، فخشي إن ينقض عليه شعره أن يبطش به الأمويون ، فأمسك عنه . وبهذه الحيلة الواسعة استطاع الكميت أن يعلو عليه؛ وابث حقده على خالد القسري كامناً في صدره حتى اذا عزل وولي مكانه يوسف بن عمر ودخل عليه فأنشده معرضاً بخالد ، وكان الجند على رأس يوسف متعصبين لخالد ، فوضعوا سيوفهم في بطنه ، وقالوا : أتنشد الأمير ولم تستأمره ؟ فقضى عليه لسانه في خلافة مروان ابن محمد .

∴

وقد ذهب في أكثر شعره مذهباً سياسياً حار اللهجة مصبوغاً بصبغة الدين ، فكان له في تأريث العداوات بين القحطانيين والعدنانيين ، وإثارة الخصومات والفتن التي حلت عقدة الوحدة — أثر قوي لم يتلاش حتى ذهب الأعاجم بهم جميعاً في أواسط العصر العباسي ، فحينئذ شعروا بما فرطت جهالتهم الجهلاء في جنب الوحدة ، ولات حين مندم ! ولعل الكميت هو الشاعر الفذ في الشعراء الواصل الينا شعرهم ، في احكام المذهب السياسي ، وتبيين مناهجه ، وشرحها بتفصيل الأغراض ، وإقامة الحجج على طريقة المذهب الكلامي ، كقوله :

يقولون : لم يورث[1] ، ولولا تراثه   لقد شركت فيه (بكيل) و(أرحب)[2]
ولا انتشلت[3] عضوين منها (يحابر)[4]   وكان (لعبد القيس) عضو مؤرب[5]
ولا انتقلت من (خندف) في سواهم   ولاقتدحت (قيس) بها ثم أثقبوا[6]

«١» أى لم يورث الرسول «٢» حيان من همدان قبيلة من العرب
«٣» أخذت «٤» أبو قبيلة وهو يحابر بن مالك بن أدد
«٥» موفر «٦» أثقب النار أوقدها

ولا كانت (الأنصار) فيكم أدلة | ولا غيباً عنها إذ الناس غيب
هم شهدوا (بدراً) و(خيبر) بعدها | و(يوم حنين)، والدماء تصبب
وهم رأموها (1) غير ظأر (2) وأشبلوا | عليها (3) بأطراف القنا وتحدبوا
فان هي (4) لم تصلح لحي سواهم | فان ذوي القربى أحق وأقرب
والا فقولوا غيرها تتعرفوا | نواصيها (5) تردي بنا (6) وهي شزب (7)
فيالك أمراً قد أشتت (8) أموره | ودنيا أرى أسبابها تتقضب (9)

وفي الوصل الينا من شعره روائع ومقلدات وإن كان لا يرى ذلك فيه قديماً فأحصيت له خطيئات، ورمي بالسرقات، حتى بالغ المفضل فقال:

«لا يعتد بالكميت في الشعر، أنشدني أي معنى له شئت مما تستغربه حتى آتيك به» وضرب خلف الأحمر مثالاً لسرقته قوله:

قف بالديار وقوف زائر | وتأيّ (10) إنك غير صاغر
ماذا عليك من الوقو | ف بها مدى الطللين دائر
درجت عليها الغاديا | ت الرائحات من الأعاصر (11)

قال: هو من قول امرئ القيس بن عابس الكندي:

قف بالديار وقوف عابس | وتأي إنك غير آيس
ماذا عليك من الوقو | ف بهامدى الطللين دارس
درجت عليها الرائحا | ت الغاديات من الروامس (12)

«1» من رأم القدح: أصلحه، والضمير عائد الى الخلافة «2» الظئر: العاطفة على ولد غيرها المرضعة له في الناس وغيرهم للذكر والانثى
«3» أشبل عليه: عطف وأعانه «4» الخلافة «5» نواصي الخيل
«6» ردت الفرس تردى رجمت الارض بحوافرها أو هي بين العدو والمشي
«7» جمع شازب وهو الخشن الضامر اليابس (8) افترقت (9) تتقطع
(10) تلبث (11) جمع اعصار وهو الريح التي تثير السحاب أو الغبار (12) الرياح الدوافن للآثار

وكذلك سائر الأبيات بعد هذا الا القليل أخذه غير القافية . ومهما يقل فيه فليس في استطاعة المفضل أو غيره أن يأتي من شعر من تقدمه بشيء من معانيه السياسية واضح المناهج محكم المذاهب ذي غناء . ويعجبني منها قوله :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوؤها ويا حاطباً في غير حبلك تحطب

ومن جيد شعره قوله :

الا هل عم في رأيه متأمل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل ؟
وهل أمة مستيقظون لرشدهم فيكشف عنه النعسة المتزمل [1]
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا على ملة غير التي نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها لنا جنة [2] مما نخاف ومعقل [3]
أرانا على حب الحياة وطولها يجد بنا في كل يوم ونهزل
نعالج مرمقاً [4] من العيش فانياً له حارك [5] لا يحمل العبء [6] أجزل [7]
فتلك أمور الناس أضحت كأنها أمور مضيع آثر النوم بهل [8]
فيا ساسة هاتوا لنا من حديثكم ففيكم لعمري ذو أفانين مقول [9]
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم على الحق نقضي بالكتاب ونعدل
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة فريقان شتى تسمنون ونهزل
أنصلح دنيانا جميعاً وديننا على ما به ضاع السوام [10] المؤبل [11]
برينا كبري القدح أوهن [12] متنه من القوم لا شار ولا متنبل [13]

«١» الملتف «٢» وقاية «٣» ملجأ «٤» دوناً خسيساً «٥» الحارك : أعلى : الكاهل وعظم مشرف من جانبيه «٦» الحمل «٧» اصابه الجزل وهو الدبرة «٨» مهملة «٩» بكسر الميم اللسان «١٠» الماشية الراعية «١١» المتخذ للقنية «١٢» أضعف «١٣» المتنبل : حامل النبل .

ولاية ساغد[1] ألف[2] كأنه ... من الرهق[3] المخلوط بالنوك[4] أنول[5]
كأن كتاب الله يعنى بأمره ... وبالنهي فيه الكودني[6] المركل[7]
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتام حتام العناء المطول ؟
وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا ... لأجور من حكامنا المتمثل
هم خوفونا بالعمى هوة الردى ... كما شب نار الحالفين المهول[8]
فيارب هل الا بك النصر يرتجى ... عليهم ، وهل الا عليك المعول؟

وقوله :

الا لا أرى الأيام يقضى عجيبها ... لطول، ولا الأحداث تفنى خطوبها
ولا عبر الأيام يعرف بعضها ... ببعض من الأقوام الا لبيبها
ولم أر قول المرء الا كنبله ... به وله محرومها ومصيبها
وما غبن الأقوام مثل عقولهم ... ولا مثلها كسباً أفاد كسوبها
وأجهل جهل القوم ما في عدوهم ... وأقبح أخلاق الرجال غريبها
ولم أر باب الشر سهلاً لأهله ... ولا طرق المعروف وعثاً[9] كثيبها
وأكثر ما تلقى المرء من مطمئنه ... وأكثر أسباب الرجال ضروبها

ومنها :

وهل يعدون بين الحبيب فراقه ... نعم ! داء نفس أن يبين حبيبها
ولكن صبراً عن أخٍ لك ضائر ... عزاء اذا ما النفس حن طروبها

«١» أحمق «٢» عي بطيء الكلام اذا تكلم ملأ لسانه فمه ، والالف : الثقيل البطيء
«٣» السفه والحمق والخفة وركوب الشر والظلم وغشيان المحارم
«٤» الحمق «٥» مجنون أحمق
«٦» الهجين «٧» الذى يضربه راكبه برجله ليعدو «٨» كان العرب فى الجاهلية اذا أرادو أن يستحلفوا انساناً أوقدوا ناراً ليحلف عليها وكان السدنة يطرحون فيها ملحاً من حيث لا يشعر يهولون بها عليه «٩» عسراً .

رأيت عذاب الماء إن حيل دونها كفاك لما لابد منه شروبها
وان لم يكن الا الأسنة مركب فما حيلة المضطر الا ركوبها

ومن مستحسن شعره ما رواه الشريف المرتضى في أماليه، في الحسدة :

إن يحسدوني فاني لا ألومهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم مابي وما بهم ومات أكثرنا غيظاً بما يجد
أنا الذي يجدوني في صدورهم لاأرتقي صدراً عنها ولا أرد
لاينقص الله حسادي فانهم أسر عندي من اللائي له الودد

١٥ــ رؤبة بن العجاج
[... ــ ١٤٥هـ]

هو رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة السعدي التميمي من رجاز الاسلام وفصحائهم والمذكورين المقدمين. سمي باسم قطعة من الخشب يشعب بها الاناء

وكان أبوه العجاج من زعماء الرجاز الذين افتنوا بالرجز، وطولوه، وانتصفوا لقائليه من الشعراء، وزاحموهم به في مجالس الملوك؛ وله ديوان ليس فيه سوى الأراجيز. فتخرج عليه رؤبة في هذا الفن، ونبغ به في حياته حتى بلغ مبلغ الفحول وأخذ عنه وجوه أهل اللغة، وجعلوه إماماً يقتدون به ويحتجون بشعره. وكان يقيم بالبصرة، ويختلف مع أبيه الى ملوك بني أميـــة وعمالهم يبتغي نوالهم بشعره فيكرمونه ويحسنون اليه حتى أفضت الدولة الى بني هاشم، فبعث اليه أبو مسلم الخراساني، فشخص اليه طائر الفؤآد جزعاً قلقاً، فلما رأى أبو مسلم ما هو فيه ابتدره يهدئ روعه، ويسكن نافر جأشه، ثم سأله عن سبب ذلك، فأجابه بلغني أنك تقتل الناس! فقال: إنما أقتل من يقاتلني ويريد قتلي، أفأنت منهم؟ قال: لا، قال: فهـــل ترى بأساً؟ قال: لا، فأقبل أبو مسلم على جاسائه ضاحكاً، ثم استنشده قوله :

وقاتم الأعماق خاوي المخترق ... مشتبه الأعلام لماع الخفق [1]

فوجد رؤبة مجال القول ذا سعة حتى طمع في جائزته، فاعتل بأنه ينشده أحسن منه، فاقتضاه أبو مسلم، فأنشده:

قلت، ونسجي مستجد حوكا: ... لبيك إذ دعوتني لبيكا

أحمد رباً ساقني اليكا ... الحمد والنعمة في يديكا

فاقتضاه أبو مسلم قوله الأول، فاعتل بأنه ينشده أحسن منه: يريد مدحه، وما زال يقتضيه فيعتل ويمدحه حتى أبى أبو مسلم الا أن ينشده إياه، فأنشده حتى اذا صار الى قوله «يرمي الجلاميد بجلمود مدق [2] ...» قال: قاتلك الله لشد ما استصلبت الحافر، ثم قال: حسبك أنا ذلك الجلمود المدق، وجيء بمنديل فيه مال فوضع بين يدي رؤبة، فقال أبو مسلم: يا رؤبة! إنك أتيتنا والأموال مشفوهة [3] وإن لك لعودة الينا، وعلينا معولا، والدهر أطرق مستتب [4]، فلا تجعل بجنبك الأسدة [5]. فأخذ رؤبة المنديل، وخرج جذلاً بما نال منه معجباً بفصاحته، فكان يقسم أنه ما رأى أعجمياً أفصح منه، ويقول: ماظننت أن أحداً يعرف هذا الكلام غيري وغير أبي!

وبقي رؤبة مقيماً في البصرة حتى ظهر بها ابراهيم بن عبد الله بن الحسن بن

«١» القاتم من القتام وهو الغبرة الى الحمرة، والخاوى: الخالى، والمخترق: الممر، مشتبه الاعلام: اى متشابه الجبال التى يهتدى بها فتشتبه السراية فيها على المرء، والخفق: أصله ساكن الفاء فحركه للقافية يريد أنه يلمع فيه السراب اى يضطرب، وهذا البيت من أرجوزة طويلة مشهورة أنظرها فى كتاب اراجيز العرب.

«٢» يصف حماراً. والجلاميد: الحجارة، ويعنى بقوله (بجلمود مدق) حافره الذى يدق به هذه الحجارة «٣» من قولهم ماء مشفوه اذا كثرت عليه الواردة

«٤» أى مطرق منض منقاد «٥» أى لا يضيقن صدرك فتسكت عن الجواب كمن به عيب من صمم أو بكم.

علي بن أبي طالب على المنصور العباسي ، وجرت الواقعة المشهورة [1] ، فخاف رؤبة على نفسه وخرج الى البادية ليجتنب الفتنة ، فلما وصل الى الناحية التي قصدها أدركه أجله بها فتوفي سنة ١٤٥ هـ ، وقيل بل بقي مقيماً في البصرة حتى أدركه بها الأجل وقد أسن . فقد روى يعقوب بن داود قال : لقيت الخليل ابن أحمد يوماً بالبصرة فقال : يا أبا عبدالله ! دفنا الشعر واللغة والفصاحة اليوم، فقلت له : كيف ذلك ؟ قال : حين انصرفت من جنازة رؤبة بن العجاج .

وكان في رؤبة شذوذ غريب. فقد كان يأكل الفأر ويرى أنه أنظف من الدواجن والدجاج لأن هذه في زعمه تأكل العذرة ولا يأكل الفأر الا نقي البر ولباب الطعام . ويلبس من الثياب ذوات الألوان غير المألوفة الاستعمال فيعبث به الصبيان ، دخل يوماً السوق في البصرة وعليه برنكاني [2] أخضر فجعل الصبيان يغرزون شوك النخل في برنكانه ، ويصيحون به : يامردوم ! يامردوم ! ففزع الى الوالي ليرسل معه الوزعة [3] فينجو بهم من شر الصبيان ، فرفده ببعض الأعوان ، فشد على الصبيان وهو يسبهم مرتجزاً ، فجعلوا يعدون بين يديه حتى دخلوا دار الصيارفة ، فقال له الشرطي : أين هم ؟ قال : دخلوا دار الظالمين ، فسميت دار الظالمين .

...

وكان رؤبة فصيحاً بصيراً باللغة قيماً بحوشيها وغريبها، وبلغ من اضطلاعه بها وتبحره فيها أن كان يقيسها ويتصرف فيها ويقدم على مالم يأت به من قبله فيرتجل ألفاظاً لم يسمعها ولا استعملتها العرب كما كان يفعل أبوه وكذلك خلف الأحمر فيما

«١» أنظر تاريخ ابن الاثير م٥ ص٢٢٦ الى ٢٣٠

«٢» البرنكاني والبركان نوع من الاكسية «٣» بفتح الواو والزاي جمع وازع وهم الولاة المانعون من محارم الله تعالى

حكى أبو الفتح عثمان بن جني في الخصائص. وأصحاب القياس من أهل اللغة لا يتحرجون في قبول ما جاء من ذلك مقيساً على كلام العرب وعده من كلامهم حتى قال أبو عثمان: لو شاء شاعر أو ساجع أو متسع أن يبني بألحاق اللام اسماً وفعلاً وصفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب، وذلك نحو قولك خرجج أكرم من دخلل، وضربب زيد عمراً، ومررت برجل ضربب وكرمم، ونحو ذلك[1].

وقد سمت برؤبة الفصاحة الى التوسع في اللغة عند الحاجة جرياً على مقاييس أوزانها، فلم يدافع ولا أنكر عليه لأنه لم يأت بما يأباه القياس، ولا هو بالضنين أو المتهم أو الدخيل أو العربي الذي لم ترق به فصاحته، فيرد قياسه ويطرح ولا يبهأ به[2]، وحسبه شهادة الخليل بن أحمد، وإقبال وجوه أهل اللغة والشعر[3] عليه للأخذ عنه، وجعله إماماً يقتدى به ويحتج بشعره.

ولرؤبة ديوان ليس فيه شعر سوى الأراجيز، ولم نقف عليه، ولكن في (كتاب أراجيز العرب للبكري) طائفة منه تدل على قوة شاعريته، وطول نفسه، وتفننه في مذاهب الكلام، واضطلاعه بغريب اللغة إذ ملأها من حوشيها، وأودعها علمه بغريبها جرياً على سنة من تقدمه من كبار الرجاز: كأبيه، وأبي النجم قدامة العجلي، والأغلب، إذ كانوا يحفلون بالحوشي ويحشرونه في أراجيزهم حشراً يضيق به أقوم الناس باللغة ذرعاً.

وقد نبأنا أبو الفرج بأن أصحاب الغناء كانوا يغنون ببعض رجز رؤبة، وذلك قوله:

داينت أروى[4] والديون تقضى فمطلت بعضاً وأدت بعضا
ياليت أروى إذ لوتك قرضا جاءت بقرض فشكرت القرضا

«١» الخصائص ج ١ ص ٣٦٣ «٢» بهأ به: أنس، وبهأله: فطن «٣» كالكميت والطرماح وغيرهما «٤» اسم امرأة

ومن رجزه قوله متغزلاً ومفتخراً ، وهو أخلى كلامه من الغريب :

رابك [1] والشيب قناع المقت ❊ نحول جسماني كما نحلت
وخشنتي بعد الشباب الصلت [2] ❊ أزمان لا أدري وإن سألت
مانسك يوم جمعة من سبت ❊ أغيد [3] لا أحفل يوم الوقت [4]
فان تريني أحتمي بالسكت [5] ❊ فقد أقوم بالمقام الثبت [6]
أشجع من ذي لبد [7] بخبت [8] ❊ يدق صلبات العظام رفتي [9]
لفتاً وتهزيعاً سواء اللفت [10] ❊ وطامح النخوة مستكت [11]
طأطأ من شيطانه المعتي [12] ❊ صكي عرانين العدا وصتي [13]
حتى ترى البين [14] كالأرت [15] ❊ يعتز [16] صدقي صدقه و بهتي [17]

«١» رأيت مني ما أوقعك في الريبة «٢» الاملس «٣» لين متثن

«٤» يوم القيامة «٥» أي امتنع عن التكلم مخافة أن أسقط في كلامي لاني قد كبرت، أو المعنى قد توقرت وسكنت عما عليه في شبابي مما لايعنيني «٦» الذي يحتاج الى الثبات

«٧» سبع «٨» موضع أو هو المتسع من الارض «٩» الرفت : الدق

«١٠» يقول اللفت غير التهزيع يعني أن الاول غير الكسر والدق «١١» عظيم في نفسه أو مملوء غضباً «١٢» من العتو وهو الاستكبار ومجاوزة الحد «١٣» الصك والصت : الدفع بقهر أو الضرب باليد «١٤» الفصيح «١٥» الذي يتردد في كلامه «١٦» يغلب

«١٧» البهت : الكذب .

الفصل الخامس

في الخط والعلوم

الخط

الخط في أدواره التاريخية — أمهات الخطوط — سلسلة الخط العربي أول من حمل الخط الى مكة — أماكن انتشاره وجهل أهل البداوة اياه — الخط بعد ظهور الاسلام — كيفية انتشاره — المستعمل من الخطوط في هذا العصر — اختراع الشكل والنقط ودواعيه

الخط رسوم وأشكال تدل على ما في النفس ، ويرى علماء الآثار القديمة أنه لم يصل الى ماهو عليه الآن الا بعد أن قطع أربعة « أدوار » — (١) الدور الصوري المادي (٢) الدور الصوري المعنوي (٣) الدور الصوري الحرفي (٤) الدور الحرفي الصرف.

وذلك أن البشر في أول الأمر كان يرسم صور الماديات للدلالة عليها ، فاذا أراد أن يدل على معنى الليث رسم صورة ليث ، واذا رام الدلالة على معنى البيت رسم صورة بيت ، وهلم جرا .

ثم رأى ذلك غير كاف لأداء الصور التي لا مادة لها كالشجاعة ، والغنى ، والحزن ، ونحو ذلك ، فبدا له أن يرسم صور لوازمها كأن يرسم الليث للدلالة على الشجاعة لأنها من لوازمه ، وضخامة الجسم للدلالة على غنى صاحبه ، والشعر المسدول للدلالة على الحزن . فكانت الكتابة في هذا الدور تتألف من صور الماديات للدلالة عليها وعلى لوازمها من المعاني .

ثم ترقى الى الدور الحرفي فاستخدم تلك الصور للدلالة على الحروف التي في صور أسمائها فاذا قصد أن يكتب (غلب) مثلاً صور غراباً وليمونة وباباً ، وهكذا . وقد اصطلح كل قوم على صور مخصوصة بقدر عدد حروف لغتهم .

ثم غير تلك الصور شيئاً فشيئاً مع مرور الزمن حتى خفيت وصارت علامات لاتدل الا على أصوات الحروف الى يومنا هذا .

والخطوط المصطلحة عليها الأمم اليوم ترجع الى أمهات نعرف منها أربعاً :

(١) الخط المسماري الذي كان يستعمله البابليون والأشوريون (٢) الخط الحيثي الذي كان مستعملاً قديماً في بلاد الشام ، وقد انقرضا جميعاً (٣) الخط الصيني (٤) الخط المصري القديم . وهو أول ما عرف من سلسلة الخط العربي على رأي الافرنج ورواة العرب جميعاً ، ومنه اشتق « الخط الفينيقي » نسبة الى فينيقيا وهي أرض كنعان على ساحل البحر الابيض بمحاذاة جبل لبنان ، ومن الفينيقي اشتق الخط « الآرامي [١] » و « المسند » بأنواعه [٢] ، ومن المسند اشتق «الكندي» و « النبطي » ، ومنهما اقتطع أهل الحيرة والأنبار « خط الجزم [٣] » ، ومن الجزم اقتبس أهل الحجاز « الخط الحجازي » : نقله اليهم حرب بن أمية بن عبد شمس ، وكان قد تعلمه في أسفاره من عدة أشخاص منهم بشر بن عبد الملك أخو أكيدر صاحب دومة الجندل ، وقد حضر بشر مكة مع حرب ، وتزوج الصهباء ابنته وأخت أبي سفيان ، وعلم جماعة من أهل مكة ثم ارتحل .

« ١ » نسبة الى آرام بن سام المسمى عند العرب بارم

« ٢ » الصفوى والثمودى واللحيانى فى الشمال ، والحميرى فى الجنوب « ٣ » هو بعينه الذى يسمى بالكوفى بعد بناء الكوفة ولكن أهل الكوفة اخترعوا فيه حلية وزخرفوه كما سنذكره

وقد كان الخط قبل الاسلام شائعاً في الجهات التي كانت على شيء من الحضارة ، والاجتماع والتجارة : كالك التبابعة في الجنوب ، وممالك المناذرة والغساسنة في الشمال . أما سكان أواسط الجزيرة من القبائل المتبدية الرحالة فان طبيعة معاشهم وحياتهم أبعد من أن تقتضي الكتابة والقراءة . لذلك كانوا على جهل مبين بالخط ، واذا ذكر أن فيهم من يكتب و يقرأ فانما هو -- اذا بحثت -- نزيل هبط اليهم ، أو راجع من سفر بعد طول إقامة في أرض متحضرة ، أو آخذ عن هذين وهو أندر من بيض الأنوق .

وجاء الاسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش[1] ، وأفراد من أهل المدينة ومجاوريهم من تجار اليهود وقليل من النساء [2] ، فلما كتب النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر ، وأسروا منهم جماعة فيهم بعض الكتاب -- قبل النبي (ص) من الكتاب أن يفدي كل منهم نفسه بتعليم عشرة من صبيان المدينة ليكون ذلك مدعاة لانتشار الدين والعلم الذي هو أكبر هم الاسلام ، ففعلوا ، وحض النبي القوم على تعلمها حتى تعلمتها النساء ، فانتشر الخط بالتدريج من هذا الحين في المدينة والأمصار التي دخلت في حوزة الاسلام . اللهم الا البادية فقد كان الرجل من أهلها يأتي بالمعجب المطرب من الشعر والنثر وهو لايعرف حروف الهجاء .

وكان الخط المستعمل في أول عهد الاسلام (الخط الأنباري) الذي سمي في الحجاز (بالحجازي) . وقد كان على شكلين : شكل مبسوط ، و يسمى

«١» ذكر البلاذري اسماءهم في فتوح البلدان طبع أوربة ص ٤٧١ وما بعدها

«٢» كحفصة وأم كلثوم من زوجات النبي (ص) والشفاء بنت عبد الله العدوية وقد علمت حفصة الكتابة ، وكانت عائشة تقرأ المصحف ولا تكتب ، وكذلك أم سلمة

باليابس ؛ وشكل مقور ، و يسمى باللين و بالنسخي . وبالمقور المنخسف العراقي كتب زيد بن ثابت صحف القرآن في خلافة أبي بكر ، وهو الذي عم تداوله في كتاباتهم ومراسلاتهم .

أما المبسوط فأهمل إلا قليلاً حتى اذا بنيت الكوفة بأمر عمر بن الخطاب على مقربة من موضع الحيرة ، وانتقل اليها من بقي من أهل الحيرة والأنبار لحلولها محل حاضرتيهم — انتشر الخط المبسوط في أهلها ، وعنوا بتجويده ، وتفننوا فيه ، فأحسنوا هندسة أشكاله وتمطيط كأساته حتى امتاز بشكله عن الحجازي ، واستحق أن يطلق عليه لفظ (كوفي) ، ودرجوا يكتبون به سكك النقود ، والمصاحف الكبيرة ؛ ويحلون به المحاريب ، وأبواب المساجد ، وجدران المباني الفخمة ، وكل ما يقصد به الزينة والزخرف .

وهذا الخط الذي وصل الى العرب لم يكن مضبوطاً بالاعجام والشكل كما هو اليوم بل كان خلواً من ذلك اعتماداً منهم على سياق الكلام وسباقه ومعرفة من يكتب لهم بالصيغ العامة وانطباعهم على ملكة الاعراب التي كانت سليقة فيهم فلما فسد اللسان باختلاط العرب بالعجم ونشوء نابتة من الهجناء والمقرفين ، وخيف أن يمتد ذلك الى تحريف كلم القرآن عن مواضعه ، وهو عمود الاسلام ودعامة الدين — وضع أبو الأسود الدؤلي (المتوفى سنة ٦٩ هـ) في أيام معاوية ابن أبي سفيان (نقط الشكل) في المصاحف بصبغ يخالف لون المداد تمييزاً لنوع الحركة ، فجعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة أسفله ، وعلامة الضمة نقطة بين يدي الحرف من الجهة اليسرى ، وعلامة التنوين نقطتين ، أما الحرف الساكن فقد أهمله واعتبر عدم النقط علامة له . وأخذ الناس عنه هذه الطريقة وكتبوها بمداد مخالف أيضاً ، ثم تفننوا بعده في شكل هذه النقط تفنناً لا طائل تحته ، واخترع أهل المدينة للحرف المشدد علامة على

شكل قوس طرفاها الأعلى هكذا (◡) توضع فوق الحرف المفتوح ، وتحت المكسور ، وعلى شمال المضموم ؛ وكانوا يضعون نقطة الفتحة داخل القوس ، ونقطة الكسرة تحت حدبتها ، ونقطة الضمة على شمالها . ثم استغنوا عن النقطة وقلبوا القوس مع الكسرة والضمة . ثم زاد الناس علامات أخرى فجعلوا للسكون جرة أفقية فوق الحرف منفصلة عنه سواء كان همزة أم غير همزة ، ولألف الوصل جرة في أعلاها متصلة به إن كان قبلها فتحة ، وفي أسفلها إن كان قبلها كسرة ، وفي وسطها إن كان قبلها ضمة . وكل ذلك بمداد مخالف في اللون لمداد الكتابة .

وما كاد القوم يفرغون من هذا الاصلاح حتى انفتحت لهم هوة أخرى لابد من ردمها إذ كثر التصحيف بالتباس الباء بالتاء والثاء ، والجيم بالحاء والخاء ، والدال بالذال ، والراء بالزاي ، والسين بالشين ، والصاد بالضاد ، والطاء بالظاء والعين بالغين ، والفاء بالقاف . فنشط لهذا الأمر الحجاج بن يوسف الثقفي ؛ وهو أمير العراقين من قبل عبد الملك ؛ فأمر نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر بمعالجة هذا الأمر فوضعا (نقط الاعجام) بالمداد الذي تكتب به الكلمة تمييزاً للحروف بعضها من بعض ، وحمل عبد الملك الناس على اتباع ذلك فشاع استعماله في المصاحف وفي غيرها حتى عد إهمال الاعجام خطأً في الكتابة لا يغتفر ، واستمر الأمر على ذلك الى يومنا هذا .

ولكن هذا العمل أدى الى التباس نقط الاعجام بنقط الشكل مع كتابة هذه بمداد مخالف ، فرأى الناس أيام الدولة العباسية أنه لابد من اصلاح ثالث تسهل معه الكتابة والتعليم ، فنهض لمعالجة هذه المهمة الخطيرة نابغة عربي كبير ، هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (١) أذكى علماء العربية وأدقهم تفكيراً ، فاخترع الشكل المستعمل الآن . وسنعرض لتفصيل ذلك في الجزء الثاني إن شاء الله .

(١) ولد سنة ١٠٠ ﻫ بالبصرة وتوفي سنة ١٧٤ ﻫ

علوم العرب

علوم العرب قبل الاسلام - علوم العرب في صدر الاسلام والعصر الاموي - أثر الاسلام في التدوين - الحركة الفلسفية وأثر خالد بن يزيد ابن معاوية فيها - الحركة الدينية وتدوين القرآن والحديث والفرائض - وضع كتب السير والمغازي والتاريخ والامثال والاغاني - اختراع النحو ودواعيه - ترجمة مخترعه أبي الاسود الدؤلي

مر بك في هذا الكتاب أن العرب القدماء كانوا ثلاث طبقات: بائدة، وعاربة، ومستعربة، وأن البائدة منهم قد انقرضوا وعميت أخبارهم وطمست آثارهم فلم يقع الينا منها شيء صحيح تطمئن اليه النفس، . . . وأن العاربة هم القحطانيون، والمستعربة هم العدنانيون .

فأما القحطانيون، وأعني التبابعة في اليمن، فقد كان لهم حظ عظيم من الحضارة ولوازمها من العلوم والفنون والصناعات . يدل على ذلك دولهم الكبرى، وقدم تاريخهم، وآثارهم الماثلة الى اليوم . وكذلك كان عرب الشمال من المناذرة والغساسنة . واذا استمر علماء الآثار على التنقيب في خرائب اليمن والشام وفلسطين فستنكشف لنا درجة رقيهم، وحقيقة علومهم وصناعاتهم انكشافاً لايدع ريباً لذي ريبة، وإن كان ما نطقت به الأخبار البالغة مبلغ التواتر من المسلمات التي لاتقبل الشك والتردد .

وأما بنو عدنان، وأعني سكان الجزيرة من القبائل الرحالة ومن جاورهم من عرب اليمن بعد أن فرقهم سيل العرم، فقد كانوا على شريعة موروثة من

ابراهيم واسماعيل عليهما السلام ؛ ثم اختل أمرهم بتطاول الدهور ، فأهملوا ما كانوا عليه ، ودانوا بأباطيل زخرفت لهم ، وتشتتوا هنا وهنا ، ووقع بينهم التنازع والتشاجر ، فأضاعوا ما كان عندهم ، واستحكمت فيهم الأمية حتى أصبحوا يمقتون الصناعات و ينتقصون أصحابها ، فلم يبق لهم في العلم من حظ سوى ما سمحت به قرائحهم من الشعر والخطب ، وما حفظوه من أنسابهم وأيامهم التي يدعوهم الى الحفل بها حبهم للافتخار بكرم النجار ، وحاجتهم الى التناصر بالعصبية ؛ وما اضطرتهم اليه الحاجة ، وأكسبتهم إياه قوة الملاحظة وكثرة التجاريب كالطب ، والأنواء [1] والنجوم ، والفراسة [2] والقيافة ، [3] والعيافة [4] ؛ وماقادهم الجانب الروحي الى الاعتقاد به كالكهانة [5] ، والعرافة [6] ، وزجر الطير [7] .

*

ولما جاء الاسلام ذهب بما كان يقودهم هذا الجانب الروحي الى الاعتقاد به

«١» يراد بالانواء قديماً ما يقابل (علم الظواهر الجوية) اليوم مما يتعلق بالمطر والرياح ولكنهم كانوا ينسبون هذه الظواهر الى طلوع الكواكب أو غروبها ، وقد قالوا في تفسير النوء : هو سقوط نجم ينزل في المغرب وطلوع رقيبه في المشرق من نجوم المنازل

«٢» هي الاستدلال بالامور الظاهرة على الامور الخفية كالاستدلال بشكل المرء ولونه على خلقه من ذكاء وبلادة ونزاهة ولؤم ونحو ذلك «٣» هي الاستدلال بهيئة الانسان وشكله على نسبه ، وأشهر العرب في هذا العلم بنو مدلج من كنانة ، وبنو لهب من الازد

«٤» هي الاهتداء الى الهارب أو الضال بآثار قدمه «٥» الكهانة : ادعاء علم الغيب بما سيقع في الارض مع الاستناد الى سبب ، وكانت شائعة في العرب وعليها مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم ، ومن أشهر الكهان والكواهن في الجاهلية شق بن أنمار ، وسطيح بن مازن وسواد بن قارب ، وطريفة ، وزبراء ، وسلمى الهمدانية ، وعفيراء .

«٦» هي قسيمة للكهانة كما يفهم من كلام كثير من أهل العلم ، وقد يخصون الكهانة بالامور المستقبلة ، والعرافة بالامور الماضية ، ومن أشهر العرافين الابلق الاسدي عراف نجد ، ورياح بن عجلة عراف اليمامة «٧» أنظر ص ١٢٥ من هذا الكتاب .

وقد عرض أستاذنا الالوسي لتفصيل هذه المباحث في بلوغ الارب ، وخصها بنحو مجلد ، فارجع اليه .

ونشر فيهم ديناً يخصب العقل وينشط النفس الخاملة من العقال ، فأخرجهم فجأة من ظلمات الجهل الى أنوار العلم ، ومن ضيق البداوة الى متسع الحضارة، وأذاع فيهم الكتابة ليستعينوا بها على درس العلم ونشره ، فلم يمض عليهم زمن يسير حتى أصبحوا ولهم حظ غير ضئيل من العلم إذ درسوا القرآن وحفظوه وفسروه ، وعنوا بالتشريع وأصول الحكم والأحوال الشخصية والشؤون المدنية والجنائية وما الى ذلك، وانصرفوا الى البحث في التاريخ والسير والمغازي ، ولم يكد ينسلخ عصر بني أمية حتى ظهرت فيهم حركة فلسفية في المنطق والكيمياء والطب [1] والنجوم . فقد حدثنا ابن النديم في الفهرست « أن خالد بن يزيد بن معاوية المتوفى سنة ٨٥ هـ عني باخراج كتب القدماء في الصنعة ، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي، وهو أول من ترجمت له كتب الطب والنجوم وكتب الكيمياء . وله عدة كتب ورسائل ... قال: ورأيت من كتبه كتاب الحرارات ـ كتاب الصحيفة الكبير ـ كتاب الصحيفة الصغير ـ كتاب وصيته الى ابنه في الصنعة » . ويرى المستشرق نلينو الايطالي أنه ربما كان أول كتاب ترجم من اليونانية الى العربية كتاب (أحكام النجوم) المنسوب الى هرمس الحكيم. وذكر القفطي في أخبار الحكماء في ترجمة ابن السنبدي أنه شاهد في خزائن الكتب بالقاهرة كرة نحاس وعليها مكتوب « حملت هذه الكرة من الأمير خالد بن يزيد بن معاوية » .

* * *

ولكن الحركة الدينية كانت أقوى الحركات وأعظمها اتساعاً وانتشاراً ، فكان أول مادونوه كتاب الله، إذ هو المرجع واليه المفزع في أمري الدين والدنيا،

---

(١) ترجم ماسرجويه متطبب البصرة كتاب أهرون أو (أهرن) بن أعين من السريانية الى العربية وزاد عليه مقالتين، وكان في عهد الدولة المروانية ، وابن أهرون قس متطبب عاش في مبدأ الاسلام.

وقد مر بك نبأ جمعه وتدوينه . وكان بعض الصحابة يعنى بكتابة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن عمرو بن العاص فانه كان يدون ما يسمع منه، وكان مما كتبه صحيفة تسمى (الصادقة) وهي من أصح الأحاديث، وكتب غيره أيضاً، ولكن هذه الحركة حركة تدوين الحديث لم تكن في أول العهد كما كان ينبغي ، وإنما قويت بعد انتشار الاسلام في الأقطار إذ تفرق الصحابة في البلاد ، ومات كثير منهم ، وكثرت الأقوال والفتاوي ، فخيف أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا (حديث) رسول الله (ص) الذي هو في الدرجة الثانية من (الكتاب) فكتب الامام العادل عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الى أبي بكر محمد بن عمرو بن حزم عامله وقاضيه على المدينة المتوفى سنة ١٢٠ هـ أن يكتب ما كان من حديث رسول الله، وكذلك كتب الى عماله في أمهات المدن الاسلامية بجمعه ، وممن كتب اليهم محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب الزهري المدني عالم أهل الحجاز والشام [٥١ — ١٢٤ هـ] ، ثم شاع التدوين في الطبقة التي تلي طبقة الزهري .

وذكر بعض الحفاظ أن زيد بن ثابت الصحابي أحد كتاب الوحي ومن جامعي القرآن ألف كتاباً في علم الفرائض .

∴

وقد كان ما في القرآن من الاشارات الى الأمم البائدة ، وما في الأحاديث من أخبار تاريخية توضح إشارات القرآن، أو تتعلق بحياة النبي وغزواته — أساساً لانتشار حركة تاريخية واسعة، وباعثاً قوياً على تدوين السير والمغازي . وروي أن عروة بن الزبير بن العوام [٢٣ - ٩٤ هـ] وهو من كبار محدثي المدينة ونقلتها ـ كان أقدم من ألف في سيرة رسول الله (ص)، وكذلك معاصره أبان

ابن عثمان بن عفان [٢٢ – ١٠٥ هـ] فقد جمع له تلميذه عبد الرحمن بن المغيرة كتابه في سيرة الرسول .

وروي أيضاً أن وهب بن منبه [٣٤ – ١١٠ هـ] ألف كتاباً في المغازي ، وكتاباً في ترجمة الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم ، وأن ابن شهاب الزهري جمع كتاباً في المغازي . ويحدثنا ابن النديم في الفهرست أن عبيد بن شرية الجرهمي الذي أدرك النبي وعاش الى أيام عبد الملك بن مروان ألف لمعاوية بن أبي سفيان كتاباً عن الأخبار المتقدمة وملوك العرب والعجم وسبب تبلبل الألسنة وافتراق الناس في البلاد ، وله من الكتب كتاب الأمثال . وأن صحاراً العبدي ، وكان خارجياً وأحد النسابين الخطباء أيام معاوية ، له من الكتب كتاب الأمثال

∴

وألف يونس بن سليمان كتاباً في الأغاني ونسبتها الى من غنى فيها ، وكانت نشأته بالمدينة ، وكان من الكتاب ، وأخذ الغناء عن معبد ، وابن سريج ، والغريض ، وابن محرز ، واستقدمه الوليد بن يزيد فنافنه حتى قتل .

∴

وكان التوسع في الفتح واختلاط العرب بالامم المختلفة من الأعاجم الذي نجم منه نشوء اللحن ومداهمة العجمة العربية — باعثاً قوياً للعرب على التفكير في وضع أصول يحوطون بها اللغة ، ويدرأون سيول العامية والعجمة قبل أن يقوى تيارها ويستطير شرها ، فوضعوا علم النحو .

وكانت أوليته في البصرة ، والمؤرخون مجمعون على أن واضعه ومدونه رجل بصري من أعيان التابعين ، وهو أبو الأسود ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلي ، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب وشهد معه وقعة صفين ، ويقول

الجاحظ في صفته : « إنه معدود في طبقات من الناس وهو في كلها مقدم ومأثور عنه الفضل في جميعها . وكان معدوداً في التابعين والفقهاء والشعراء والمحدثين والأشراف والفرسان والأمراء والدهاة والنحويين والحاضري الجواب والشيعة والبخلاء والصلع الأشراف والبخر الأشراف » وله ديوان ومن شعره :

وما طلب المعيشة بالتمني ولكن ألق دلوك في الدلاء

تجئ بملئها طوراً وطوراً تجئ بحمأة وقليل ماء

والعمل الكبير الذي خلد به ذكره وعرف به اسمه الى اليوم هو وضعه هذا النحو ، وللناس في سبب وضعه وعمن أخذه أقوال كثيرة لاأجدني مطمئناً الى قبول أكثرها . فهم مرة يقولون : إن علياً رضي الله عنه وضع له الكلام كله ثلاثة أضرب اسم وفعل وحرف ، ثم دفعه اليه وقال له : تمم على هذا أو انح نحو هذا . . . وأخرى يقولون : إنه كان يعلم أولاد زياد بن أبيه ، وهو والي العراقين يومئذ، فجاءه يوماً وقال له : أصلح الله الأمير إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم وتغيرت ألسنتهم ، أفتأذن لي أن أضع للعرب ما يعرفون أو يقيمون به كلامهم ؟ فأبى عليه ذلك زياد . ثم عاد فأمره بما نهاه عنه لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول: «أصلح الله الأمير! توفي أبانا وترك بنون» . وطوراً يقولون إنه دخل بيته يوماً فقالت له بنته الصغرى : ياأبت ما أحسن السماء ! فضمت النون وجرت الهمزة ، فاستنكر ذلك و وضع باب التعجب ، ثم بابي الفاعل والمفعول . . . الى غير ذلك من الأقوال المتضاربة والحكايات المتخاذلة ومهما يكن من شئ فان الذي بعث أبا الأسود على وضع النحو هو هذا الذي رآه من تغير الألسن ونشوء اللحن بمخالطة الأعاجم . ولعل أول ما عمله

لضبط اللغة هو هذا النقط الشكلي الذي أشرنا اليه في بحث الخط ، ثم بدا له فوضع ما تيسر له من أصول النحو التي أخذها عنه يحيى بن يعمر ، وميمون بن الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ونصر بن عاصم الليثي ، وغيرهم ، ثم جاء بعد هؤلاء عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي المتوفى سنة ١١٣ ﻫ فبعج النحو ومد القياس والعلل ، وجرى على أثره الناس وتوسعوا فيه حتى أنضجوه وحرقوه . . .

وكانت وفاة أبي الأسود بالبصرة سنة تسع وستين من الهجرة في أشهر الأقوال .

﴿ تم الجزء الاول و يليه الجزء الثاني ﴾

الخطأ والصواب

ص	س	خ	ص
٧	٦هـ	ومرقناهم	ومزقناهم
٨	٩هـ	حدهما	أحدهما
٨	١٢هـ	القباوى	القهاوي
١١	٤	فينعاش	فعيناش
١٠	١٤	طمطانية	طمطمانية
١١	٤	هذه الحروف	هذه الحركات
١٦	١٤	تخذلقاً	تحذلقاً
٢٠	٥	نورها	نوردها
٢٤	١٠هـ	وناحيها	وناحيتها
٥١	٦هـ	درات	دارت
٦١	١٤	مهاهلاً	مهلاً
٦٩	٣	وبروقني	ويروقني
٧٤	١٠	المعاضلة	المعاظلة
١١٢	١هـ	لأصوات	الأصوات
١١٣	٧	مر	أمر
١١٩	٦	نعلوهم	يعلوهم
١٢٣	١	نا	إنا
١٣٤	١هـ	في كتابه إعجاز القرآن	مؤلف دلائل الاعجاز
١٤٢	١٥	ومصاهرتم	ومصاهرتهم

ص	س	خ	س
١٥٠	٦	وٍن	وإن
١٥٢	١٥	دخلت	خلت
١٥٣	١٤	رأبتموني	رأيتموني
١٥٦	١١	عن ذلك	ذلك
١٥٦	١١	ني	إني
١٨٥	٥	وسربة	وسرية
١٨٩	٦	وآدبها	وآدابها
١٩٣	١٢	حثث	جثث
١٩٣	٩هـ	ى	أي
١٩٩	٤	(٤	سقط تفسير كلمة التتفل في هـذا البيت وهو الثعلب
٢٠٠	٨	ـغنت	تغنت
٢٠٨	٦	الرس	الرمس
٢٠٨	٦هـ	سيرها	بسيرها
٢١١	٦	انقطع كل منهم الى حزب سياسي يناضل عنه ثم (هذه الجملة زائدة)	
٢١٩	١٤	وعادوها	وعاودها
٢٦٨	٥	هل	أهل
٢٧٢	١٦	العقسآء	القعسآء
٢٨٦	٧	مرون ابن محمد	مروان بن محمد
٢٨٧	٧	الوصل	الواصل
٢٨٧	١٦	الطلين	الطاملين